تفسير المراغي

تأليف

صاحب الفضيلة الأستاذ الكبير

أحمد مصطفى المراغي

أستاذ الشريعة الإسلامية واللغة العربية
بكلية دار العلوم سابقا

الجزء الخامس

شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر

الطبعة الأولى
١٣٦٥ هـ — ١٩٤٦ م

الجزء الخامس

وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ النِّسَاءِ إِلاَّ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ، كِتَابَ اللهِ عَلَيْكُمْ،
وَأُحِلَّ لَكُمْ مَا وَرَاءَ ذَلِكُمْ أَنْ تَبْتَغُوا بِأَمْوَالِكُمْ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ،
فَمَا اسْتَمْتَعْتُمْ بِهِ مِنْهُنَّ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ فَرِيضَةً ، وَلاَ جُنَاحَ عَلَيْكُمْ
فِيمَا تَرَاضَيْتُمْ بِهِ مِنْ بَعْدِ الْفَرِيضَةِ ، إِنَّ اللهَ كَانَ عَلِيماً حَكِيماً (٢٤)
وَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ مِنْكُمْ طَوْلاً أَنْ يَنْكِحَ الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ فَمِمَّا مَلَكَتْ
أَيْمَانُكُمْ مِنْ فَتَيَاتِكُمُ الْمُؤْمِنَاتِ ، وَاللهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِكُمْ بَعْضُكُمْ مِنْ
بَعْضٍ،فَانْكِحُوهُنَّ بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ وَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ مُحْصَنَاتٍ
غَيْرَ مُسَافِحَاتٍ وَلاَ مُتَّخِذَاتِ أَخْدَانٍ ، فَإِذَا أُحْصِنَّ فَإِنْ أَتَيْنَ بِفَاحِشَةٍ
فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى الْمُحْصَنَاتِ مِنَ الْعَذَابِ ، ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ الْعَنَتَ
مِنْكُمْ ، وَأَنْ تَصْبِرُوا خَيْرٌ لَكُمْ ، وَاللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٢٥)

بسم الله الرحمن الرحيم

شرح المفردات

المحصنات واحدتهن محصنة (بفتح الصاد) يقال حصنت المرأة (بضم الصاد) حِصْنا وحصانة إذا كانت عفيفة فهى حاصن وحاصنة وحصان (بفتح الصاد) ويقال أحصنت المرأة إذا تزوجت لأنها تكون فى حصن الرجل وحمايته ، وأحصنها أهلها زوجوها ، ما ملكت أيمانكم أى بالسبى فى حروب دينية وأزواجهن كفار فى دار الحرب ، فينفسخ عند ذلك نكاحهن ويحل الاستمتاع بهن بعد وضع الحامل حملها وحيض غيرها ثم طهرها ، والإحصان العفة ، والمسافح الزانى ، والاستمتاع بالشىء هو التمتع به ، والأجور واحدها أجر وهو فى الأصل الجزاء الذى يعطى فى مقابلة شىء ما من عمل أو منفعة والمراد به هنا المهر ، فريضة أى حصة مفروضة محدودة مقدرة ، ولا جناح : أى لا حرج ولا تضييق ، الاستطاعة كون الشىء فى طوعك لا يتعاصى عليك ، والطول الغنى والفضل من مال أو قدرة على تحصيل الرغائب ، والمحصنات هنا الحرائر ، والفتيات الإماء ، محصنات أى عفيفات ، مسافحات مستأجرات للبغاء ، والأخدان واحدهم خِدْن وهو الصاحب ويطلق على الذكر والأنثى ، وهو أن يكون للمرأة خدن يزنى بها سرا فلا تبذل نفسها لكل أحد ، والفاحشة الفعلة القبيحة وهى الزنا ، والمحصنات هنا الحرائر ، والعذاب هو الحد الذى قدره الشارع وهو مائة جلدة ، فنصفها خمسون ، ولا رجم عليهن لأنه لا يتنصف ، العنت الجهد والمشقة .

المعنى الجملى

هاتان الآيتان من تتمة ما قبلهما من جهة المعنى فقد ذكر فى أولاهما بقية ما يحرم من النساء وحل من عدا من تقدم ووجوب إعطاء المهور ، وذكر فى الآية الثانية

حكم نكاح الإماء وحكم حدهن عند ارتكاب الفاحشة ، لكن من قسموا القرآن ثلاثين جزءاً جعلوها أول الجزء الخامس مراعاة للفظ دون المعنى إذ لو راعوه لجعلوا أول الخامس « يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ » .

الإيضاح

(والمحصنات من النساء إلا ما ملكت أيمانكم) أى وحرم عليكم نكاح المتزوجات إلا ما ملكت الأيمان بالسبي فى حروب دينية تدافعون بها عن دينكم وأزواجهن كفار فى دار الكفر وقد رأيتم من المصلحة ألا تعاد السبايا إلى أزواجهن فحينئذ ينحل عقد زوجيتهن ويكنّ حلالا لكم بالشروط المعروفة فى كتب الفقه .

وحكمة هذا أنه لما كان الغالب فى الحروب أن يقتل بعض أزواجهن ويفرّ بعضهم الآخر ولا يعود إلى بلاد المسلمين ، وكان من الواجب كفالة هؤلاء السبايا بالإنفاق عليهن ومنعهن من الفسق ـ كان من المصلحة لهن وللمجتمع أن يكون لكل واحدة منهن أو أكثر كافل يكفيها البحث عن الرزق أو بذل العرض ، وفى هذا ما لايخفى من الشقاء على النساء .

والإسلام لم يفرض السبى ولم يحرمه ، لأنه قد يكون من الخير للسبايا أنفسهن فى بعض الأحوال كما إذا استأصلت الحرب جميع الرجال من قبيلة محدودة العدد .

فإن رأى المسلمون أن من الخير أن ترد السبايا إلى قومهن جاز لهم ذلك عملا بقاعدة (درء المفاسد مقدم على جلب المصالح) فإن كانت الحرب لمطامع الدنيا وحظوظ الملوك فلا يباح فيها السبى .

وقوله من النساء قيد جيء به لإفادة التعميم وأن المراد كل متزوجة لا العفيفات ولا المسلمات ، وقد جاء الإحصان فى القرآن لأربعة معان :

(١) التزوج كما فى هذه الآية .

(٢) العفة كما فى قوله : (مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ) .

(٣) الحرية كما فى قوله : (وَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ مِنْكُمْ طَوْلاً أَنْ يَنْكِحَ الْمُحْصَنَاتِ) .

(٤) الإسلام كما فى قوله : (فَإِذَا أُحْصِنَّ) أى : أسلمن .

أخرج مسلم عن أبى سعيد الْخُدْرى أنه قال أصبنا سبيا يوم (أوطاس) ولهن أزواج فكرهنا أن نقع عليهن فسألنا النبى صلى الله عليه وسلم فنزلت الآية فاستحللناهن

وقال الحنفية إن من سبى معها زوجها لا تحل لغيره ، إذ لابد من اختلاف الدار بين الزوجين دار الإسلام ودار الحرب .

(كتاب الله عليكم) أى كتب عليكم تحريم هذه الأنواع كتابا مؤكدا وفرضه فرضا ثابتاً محكما لاهوادة فيه ، لأن مصلحتكم فيه ثابتة لايدخلها شك ولا تغيير .

(وأحل لكم ما وراء ذلكم) أى وأحل الله لكم ما وراء ذلكم مما هو خارج من مدلول اللفظ و إفادته ولايتناوله بنص أو دلالة ، فيدخل بطريق الدلالة فى الأمهات الجدات وفى البنات بنات الأولاد وفى الجمع بين الأختين الجمع بين المرأة وعمتها وخالتها كما يؤخذ بعض المحرمات من آيات أخرى كتحريم المشركات والمطلقة ثلاثا على مطلقها فى سورة البقرة .

(أن تبتغوا بأموالكم محصنين غير مسافحين) أى أحل لكم ما وراء ذلكم لأجل أن تبتغوه وتطلبوه بأموالكم التى تدفعونها مهرا للزوجة أو ثمنا للأمة ، محصنين أنفسكم وما نعين لها من الاستمتاع بالمحرم باستغناء كل منكما بالآخر ، إذ الفطرة تدعو الرجل إلى الاتصال بالأنثى والأنثى إلى الاتصال بالرجل ليزدوجا ويُنْتِجَا .

فالإحصان هو هذا الاختصاص الذى يمنع النفس أن تذهب أى مذهب فيتصل كل ذكر بأى امرأة وكل امرأة بأى رجل إذ لو فعلا ذلك لما كان القصد من هذا إلا المشاركة فى سفح الماء الذى تفرزه الفطرة إيثارا للذة على المصلحة ، إذ المصلحة تدعو إلى اختصاص كل أنثى بذكر معين لتتكون بذلك الأسرة ويتعاون الزوجان على تربية أولادهما .

فإذا انتفى هذا المقصد انحصرت الداعية الفطرية فى سفح الماء وصبه ، وذلك هو البلاء العام الذى تصطلى بناره الأمة كلها ، فإن بعض الدول الأوربية التى كثر فيها السفاح وقل النكاح بضعف الدين وقف نموها وقل نسلها وضعفت حتى اضطرت إلى الاعتزاز بمحالفة بعض الدول الأخرى .

والاسترقاق المعروف فى هـــذا العصر فى بلاد السودان و بلاد الحجاز و بلاد الجراكسة غير شرعى، وهو محرم لأن أولئك اللواتى تسترقن حرائر من بنات المسلمين الأحرار فلا يجوز الاستمتاع بهن بغير عقد النكاح ، والإسلام برىء من كل هذا .

(فما استمتعتم به منهن فآتوهن أجورهن فريضة) أى وأىّ امرأة من النساء اللواتى أحللن لـكم ، تزوجتموها فأعطوها الأجر وهو المهر بعد أن تفرضوه فى مقابلة ذلك الاستمتاع .

وسر هذا أن الله لما جعل للرجل على المرأة حق القيام وحق رياسة المنزل الذى يعيشان فيه وحق الاستمتاع بها ــ فرض لهـا فى مقابلة ذلك جزاء وأجرا تطيب به نفسها ويتم به العدل بينها و بين زوجها .

والخلاصة ـــ أن أىّ امرأة طلبتم أن تمتعوا وتنتفعوا بتزوجها فأعطوها المهر الذى تتفقون عليه عند العقد ، فريضة فرضها الله عليكم، وذلك أن المهر يفرض و يعين فى عقد النكاح و يسمى ذلك إيتاء و إعطاء ، و يقال عقد فلان على فلانة وأمهرها ألفا كما يقال فرض لها ألفاً ومن هذا قوله تعالى : « وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً » وقوله : « مَا لَمْ تَمَسُّوهُنَّ أَوْ تَفْرِضُوا لَهُنَّ فَرِيضَةً » فالمهر يتعين بفرضه فى العقد و يصير فى حكم المعطى وقد جرت العادة بأن يعطى كله أو أ كثره قبل الدخول ، ولـكن لايجب كله إلا بالدخول ، فمن طلق قبله وجب عليه نصفه لا كله ، ومن لم يعط شيئا قبل الدخول وجب عليه كله بعده .

(ولا جناح عليكم فيما تراضيتم به من بعد الفريضة) أى ولا تضييق عليكم إذا تراضيتم على النقص فى المهر بعد تقديره أو تركه كله أو الزيادة فيه ، إذ ليس الغرض

من الزوجية إلا أن يكونا فى عيشة راضية يستظلان فيها بظلال المودة والرحمة والهدوء والطمأنينة ، والشارع الحكيم لم يضع لكم إلا ما فيه سعادة الفرد والأمة ، ورقى الشؤون الخاصة والعامة .

(إن الله كان عليما حكيما) وقد وضع لعباده من الشرائع بحكمته ما فيه صلاحهم ما تمسكوا به ، ومن ذلك أنه فرض عليهم عقد النكاح الذى يحفظ الأموال والأنساب وفرض على من يريد الاستمتاع بالمرأة مهرا يكافئها به على قبولها قيامه ورياسته عليها ثم أذن للزوجين أن يعملا ما فيه الخير لهما بالرضا فيحطا المهر كله أو بعضه أو يزيدا عليه .

ونكاح المتعة (وهو نكاح المرأة إلى أجل معين كيوم أو أسبوع أو شهر) كان مرخصا فيه فى بدء الإسلام وأباحه النبي لأصحابه فى بعض الغزوات لبعدهم عن نسائهم فرخص فيه مرة أو مرتين خوفا من الزنا فهو من قبيل ارتكاب أخف الضررين ، ثم نهى عنه نهيا مؤبدا ، لأن المتمتع به لا يكون مقصده الإحصان ، وإنما يكون مقصده المسافحة ، وللأحاديث المصرحة بتحريمه تحريما مؤبدا إلى يوم القيامة ولنهى عمر فى خلافته وإشادته بتحريمه على المنبر وإقرار الصحابة له على ذلك .

ومنع نكاح المتعة يقتضى منع النكاح بنية الطلاق ، ولكن الفقهاء أجازوه إذا نواه الرجل ولم يشترطه فى العقد ، وإن كان كتمانه يعد خداعا وغشا وعبثا بهذه الرابطة العظيمة التى هى أعظم الروابط البشرية وإيثارا للتنقل فى مراتع الشهوات ، إلى ما يترتب على ذلك من العداوة والبغضاء وذهاب الثقة بين الزوجين حتى بالصادقين الذين يريدون بالزواج الإحصان والتعاون على تأسيس البيت الصالح والعيشة السعيدة.

(ومن لم يستطع منكم طولا أن ينكح المحصنات المؤمنات فما ملكت أيمانكم من فتياتكم المؤمنات) المحصنات هنا الحرائر خاصة بدليل مقابلتها بالإماء ، والحرية كانت عندهم داعية الإحصان ، كما كان البغاء من شأن الإماء ، ومن ثم قالت هند للنبي صلى الله عليه وسلم على سبيل التعجب أو تزنى الحرة ؟ وعبر عن الإماء بالفتيات

تكريما لهن و إرشادا لنا إلى ألا ننادى بالعبد والأمة بل بلفظ الفتى والفتاة ، وقد روى البخارى قوله صلى الله عليه وسلم «لايقولنّ أحدكم عبدى أمتى ، ولا يقل المملوك ربى ليقل المالك فتاى وفتاتى وليقل المملوك سيدى وسيدتى ، فإنكم المملوكون والرب هو الله عز وجل » .

والمعنى — ومن لم يستطع منكم طولا فى المآل أو الحال نكاح المحصنات اللواتى أحل لكم أن تبتغوا نكاحهن بأموالكم وتقصدوا بنكاحهن الإحصان لهن ولأنفسكم فلينكح أمة من الإماء المؤمنات ، والطول (هو السعة المعنوية أو المادية) يختلف باختلاف الأشخاص فقد يعجز الرجل عن التزوج بحرة وهو ذو مال يقدر به على المهر لنفور النساء منه لعيب فى خَلْقه أو خُلُقه ، وقد يعجز عن القيام بغير المهر من حقوق المرأة الحرة فإن لها حقوقا كثيرة من النفقة والمساواة وغير ذلك وليس للأمة مثل هذه الحقوق .

وقد قدر الحنفية المهر بدراهم معدودة ، فقال بعضهم : ربع دينار ، وقال بعضهم : عشرة دراهم .

وليس فى الكتاب ولا فى السنة ما يؤيد هذا التحديد ، فقد ورد أن النبى صلى الله عليه وسلم قال لمن يريد الزواج « التمس ولو خاتما من حديد » وروى أن بعض المسلمين تزوج امرأة وجعل المهر تعليمها شيئا من القرآن .

(والله أعلم بإيمانكم بعضكم من بعض) أى فأنتم أيها المؤمنون إخوة فى الإيمان بعضكم من بعض كما قال :

« وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ » فلا ينبغى أن تعدوا نكاح الأمة عارا عند الحاجة إليه ، وفى هذا إشارة إلى أن الله قد رفع شأن الفتيات المؤمنات وساوى بينهن و بين الحرائر ، وهو العلم بحقيقة هذا الإيمان ودرجة قوته وكماله ، فرب أمة أكمل إيمانا من حرة فتكون أفضل منها عند الله « إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللهِ أَتْقَاكُمْ » .

(فانكحوهن بإذن أهلهن) الأهل هنا الموالى المالكون لهن أى فإذا أحببتم نكاحهن ورغبتم فيه ، لأن الإيمان قد رفع من قدرهن فانكحوهن بإذن مواليهن .

وقال بعض الفقهاء المراد من الأهل من لهم عليهن ولاية التزويج ولو غير المالكين كالأب أو الجد أو القاضى أو الوصى إذ لكل منهم تزويج أمة اليتيم .

(وآتوهن أجورهن) أى وأدوا إليهن مهورهن بإذن أهلهن ، إذ أن المهر هو حق المولى لأنه بدل عن حقه فى إباحة الاستمتاع بها ، وقال مالك : المهر حق للزوجة على الزوج وإن كانت أمة فهو لها لا لمولاها ، وإن كان الرقيق لا يملك شيئا لنفسه لأن المهر حق الزوجة تصلح به شأنها ويكون تطييبا لنفسها فى مقابلة رياسة الزوج عليها ، وسيد الأمة مخير بين أن يأخذه منها بحق الملك ، أو يتركه لها لتصلح به شأنها وهو الأفضل والأكمل .

ومعنى قوله: (بالمعروف) أى بالمعروف بينكم فى حسن التعامل ومهر المثل وإذن الأهل.

(محصنات غير مسافحات ولا متخذات أخدان) أى أعطوهن أجورهن حال كونهن متزوجات منكم لامستأجرات للبغاء جهرا وهن المسافحات ، ولا سرًّا وهن متخذات الأخدان والأصحاب .

وقد كان الزنا فى الجاهلية قسمين سرى وعلنى : فالسرى يكون خاصا فيكون للمرأة خدن يزنى بها سرا ولا تبذل نفسها لكل أحد ، والعلنى يكون عاما وهو المراد بالسفاح قاله ابن عباس .

وكان البغايا من الإماء ينصبن الرايات الحمر لتعرف منازلهن ولا تزال هذه العادة متبعة إلى الآن فى بلاد السودان ، فتوجد بيوت خاصة لشراب الذرة (المريسة) وفيها البغاء العلنى .

وروى عن ابن عباس أن أهل الجاهلية كانوا يحرمون ما ظهر من الزنا ويقولون إنه لؤم ويستحلون ما خفى ويقولون إنه لا بأس به ، وقد نزل فى تحريم هذين النوعين قوله تعالى « وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ » .

وهذان النوعان فاشيان الآن فى بلاد الإفرنج والبلاد التى تقلدهم فى شرورهم كمصر والآستانة و بعض بلاد الهند .

وقصارى القول أن الله فرض فى نكاح الإماء مثل ما فرض فى نكاح الحرائر من الإحصان والعفة لكل من الزوجين ، لكن جعل الإحصان وعدم السفاح فى نكاح الحرائر من قبل الرجال أولا و بالذات فقال (محصنين غير مسافحين) لأن الحرائر ولا سيما الأبكار أبعد من الرجال عن الفاحشة وأقل انقيادا لطاعة الشهوة ، إلى أن الرجال هم الطالبون للنساء والقوامون عليهن .

وجعل قيد الاحصان فى جانب الإماء فاشترط على من يريد أن يتزوج أمة أن يتحرى فيها أن تكون محصنة مصونة فى السر والجهر فقال (محصنات غير مسافحات ولا متخذات أخدان) وذلك أن الزنا كان غالبا فى الجاهلية على الإماء وكانوا يشترونهن للاكتساب ببغائهن حتى إن عبد الله بن أبىّ كان يكره إماءه على البغاء بعد أن أسلمن فنزل فى ذلك « وَلاَ تُكْرِهُوا فَتَيَاتِكُمْ عَلَى البِغَاءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّناً لِتَبْتَغُوا عَرَضَ الحَيَاةِ الدُّنْيَا » .

إلى أنهن لذلّهن وضعف نفوسهن وكونهن مظنة للانتقال من يد إلى أخرى ، فنفوسهن لم تمرن على الاختصاص برجل واحد يرى لهن عليه من الحقوق ما تطمئن به نفوسهن فى الحياة الزوجية التى هى من شؤون الفطرة .

(فإذا أحصنّ فإن أتين بفاحشة فعليهن نصف ما على المحصنات من العذاب) أى إن الإماء إذا زنين بعد إحصانهن بالزواج فعليهن من العقاب نصف ما على المحصنات الكاملات وهن الحرائر إذا زنين ، وهذا العقاب ما بينه الله تعالى بقوله « الزَّانِيَةُ وَالزَّانِى فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ » فتجلد الأمة المتزوجة خمسين جلدة وتجلد الحرة مائة .

والسر فى هذا ما قدمناه فيما سلف وهو كون الحرة أبعد عن داعية الفاحشة ، والأمة ضعيفة عن مقاومتها فرحم الله ضعفها وخفف العقاب عنها ، وقد قيدوا المحصنات

هنا بكونهن أبكارا لأن من تزوجت تسمى محصنة بالزواج وإن آمت بطلاق أو بموت زوجها وحينئذ ترجم بالحجارة إذا زنت .

وفى الصحيحين وغيرهما عن عمر رضى الله عنه: أن الرجم فى كتاب الله حق على من زنا إذا أحصن من الرجال والنساء إذا قامت البينة أو كان حمل أو اعتراف .

وأمر النبي صلى الله عليه وسلم برجم ماعز الأسلمى والغامدية لاعترافهما بالزنا لكنه أرجأ المرأة حتى وضعت وأرضعت وفطمت ولدها رواه مسلم وأبو داود .

(ذلك لمن خشى العنت منكم) أى ذاك الذى ذكر لكم من إباحة نكاح الإماء عند العجز عن الحرائر جائز لمن خشى عليه الضرر من مقاومة دواعى الفطرة والتزام الإحصان والعفة ، فى كثير من الأحيان تقضى هذه المقاومة إلى أعراض عصبية وغير عصبية إذا طال العهد على مقاومتها كما أثبت ذلك الطب الحديث .

(وأن تصبروا خير لكم) أى وصبركم عن نكاح الإماء خير لكم من نكاحهن لما فى ذلك من تربية قوة الإرادة وتنمية ملكة العفة وتغليب العقل على عاطفة الهوى ومن عدم تعريض الولد للرقّ وخوف فساد أخلاقه بإرثه منها المهانة والذلة إذ هى بمنزلة المتاع والحيوان فربما ورث شيئا من إحساسها ووجدانها وعواطفها الخسيسة .

وروى عن عمر رضى الله عنه أنه قال : إذا نكح العبد الحرة فقد أعتق نصفه ، وإذا نكح الحر الأمة فقد أرقّ نصفه ، ورحم الله القائل .

إذا لم تكن فى منزل المرء حرة تدبره ضاعت مصالح داره

وسر هذا ما شرحناه من قبل من أن معنى الزوجية حقيقة واحدة مركبة من ذكر وأنثى كل منهما نصفها فهما شخصان صورة ، واحد اعتبارا بالإحساس والشعور والوجدان والمودة والرحمة ، ومن ثم ساغ أن يطلق على كل منهما لفظ (زوج) لاتحاده بالآخر وإن كان فردا فى ذاته ومستقلا فى شخصه .

(والله غفور رحيم) فهو غفار لمن صدرت منه الهفوات كاحتقار الإماء المؤمنات والطعن فيهن عند الحديث فى نكاحهن وعدم الصبر على معاشرتهن بالمعروف وسوء

الظن بهن ، رحيم بعباده إذ رخص لهم فيما رخص فيه ببيان أحكام شريعته ، فلا يؤاخذنا بما لا نستطيعه منها .

يُرِيدُ اللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (٢٦) وَاللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَنْ تَمِيلُوا مَيْلاً عَظِيماً (٢٧) يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ وَخُلِقَ الْإِنْسَانُ ضَعِيفاً (٢٨)

المعنى الجملى

بعد أن ذكر أحكام النكاح فيما سلف على طريق البيان والإسهاب ، ذكر هنا عللها وأحكامها كما هو دأب القرآن الكريم أن يعقب ذكر الأحكام التى يشرعها للعباد ببيان العلل والأسباب ليكون فى ذلك طمأنينة للقلوب وسكون للنفوس ، لتعلم مغبة ماهى مقدمة عليه من الأعمال ، وعاقبة ما كلفت به من الأفعال ، حتى تقبل عليها وهى مثلجة الصدور عالمة بأن لها فيها سعادة فى دنياها وأخراها ، ولا تكون فى عماية من أمرها فتتيه فى أودية الضلالة وتسير قدما لا إلى غاية .

الإيضاح

(يريد الله ليبين لكم ويهديكم سنن الذين من قبلكم) جاءت هذه الآيات كأجوبة لأسئلة من شأنها أن تدور بخلد السامع لهذه الأحكام ، فيطوف بخاطره أن يسأل — ما الحكمة فى هذه الأحكام وما فائدتها للعباد ، وهل من كان قبلنا من الأمم السالفة كلف بمثلها فلم يبح لهم أن يتزوجوا كل امرأة ، وهل كان ما أمرنا به ونهانا عنه تشديدا علينا أو تخفيفا عنا ؟.

والمعنى يريد الله بما شرعه لكم من الأحكام أن يبين لكم ما فيه مصالحكم ومنافعكم ، وأن يهديكم مناهج من تقدمكم من الأنبياء والصالحين لتقتفوا آثارهم وتسيروا سيرتهم ، فالشرائع والتكاليف وإن اختلفت باختلاف أحوال الاجتماع والأزمان كما قال « وَلِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجاً » فهى متفقة فى مراعاة المصالح العامة للبشر ، فروح الديانات جميعا توحيد الله وعبادته والخضوع له على صور مختلفة ، ومآل ذلك تزكية النفس بالأعمال التى تقوم بها وتهذيب الأخلاق لتبعد عن سيء الأفعال والأقوال .

(ويتوب عليكم) أى ويريد أن يجعلكم بالعمل بتلك الأحكام تائبين راجعين عما كان قبلها من تلك الأنكحة الضارة التى كان فيها انحراف عن سنن الفطرة إذ كنتم تنكحون ما نكح آباؤكم وتقطعون أرحامكم ولا تلتفتون إلى المعانى السامية التى فى الزوجية من تقوية روابط النسب وتجديد قرابة الصهر والسعادة التى تثلج قلوب الزوجين والمودة والرحمة التى تعمر نفوسهما .

(والله عليم حكيم) فبعلمه المحيط بما فى الأكوان شرع لكم من الدين ما فيه مصلحتكم ومنفعتكم ، وبحكمته لم يكلفكم بما يشق عليكم وبما فيه الأذى والضرر لكم وبها يتقبل التوبة من عباده ويعفو عن السيئات .

(والله يريد أن يتوب عليكم) أى إنه تعالى بما كلفكم به من تلك الشرائع يريد أن يطهركم ويزكى نفوسكم فيتوب عليكم .

(ويريد الذين يتبعون الشهوات أن تميلوا ميلا عظيما) متبعو الشهوات هم الفسقة الذين يدورون مع شهوات أنفسهم وينهمكون فيها ، فكأنها أمرتهم باتباعها فامتثلوا أمرها ، فلا يبالون بما قطعوا من وشائج الأرحام ، ولا بما أزالوا من أواصر القرابة ، فليس مقصدهم إلا التمتع باللذة ، أما الذين يفعلون ما يأمر به الدين فليس غرضهم إلا امتثال أوامره لا اتباع شهواتهم ولا الجرى وراء لذاتهم .

(يريد الله أن يخفف عنكم) فأباح لكم عند الضرورة نكاح الإماء قاله مجاهد وطاوس ، وقيل بل خفف عنكم التكاليف كلها ولم يجعل فى الدين من حرج فشريعتكم هى الحنيفية السمحة كما ورد فى الحديث .

(وخلق الانسان ضعيفا) يستميله الهوى والشهوات و يستشيطه الخوف والحزن ولا يقدر على مقاومة الميل إلى النساء ولا يقوى على الضيق عليه فى الاستمتاع بهن .

وقد رحم الله عباده فلم يحرم عليهم منهن إلا ما فى إباحته مفسدة عظيمة وضرر كبير ، ولا يزال الزنا ينتشر حيث يضعف وازع الدين ، ولا يزال الرجال هم المعتدين فهم يفسدون النساء و يغرونهن بالأموال و يحجر الرجل على امرأته ويحجبها ، بينما يحتال على امرأة غيره ويخرجها من خدرها ، وإنه لغرّ جاهل أفيظن أن غيره لايحتال على امرأته كما احتال هو على امرأة سواه ؟ فقلما يفسق رجل إلا يكون قدوة لأهل بيته فى الفسق والفجور ، وفى الحديث «عفوا تعف نساؤكم وبروا آباءكم تبركم أبناؤكم» رواه الطبرانى من حديث جابر .

وقد بلغ الفسق فى هذا الزمن حدا صار الناس يظنونه من الكياسة ، وزالت غيرتهم ، وأسلسوا القياد لنسائهم كما يسلسن لقيادتهم ، فوهت الروابط الزوجية ، ونخر السوس فى سعادة البيوت ، ووجدت الرذيلة لها مرتعا خصيبا فى أجواء الأسر ، حتى أصبح الرجل لا يثق بنسله ، وكثرت الأمراض والعلل بشتى مظاهرها .

أخرج البيهقى فى شعب الإيمان عن ابن عباس رضى الله عنهما أنه قال: ثمانى آيات نزلت فى سورة النساء هى خير لهذه الأمة مما طلعت عليه الشمس وغربت ، وعد هذه الآيات الثلاث : يريد الله ليبين لكم إلى قوله وخلق الإنسان ضعيفا ، والرابعة : إن تجتنبوا كبائر ماتنهون عنه نكفر عنكم سيئاتكم، والخامسة : إن الله لايظلم مثقال ذرة ، والسادسة : ومن يعمل سوءا أو يظلم نفسه ثم يستغفر الله يجد الله غفوراً رحيا ، والسابعة : إن الله لايغفر أن يشرك به و يغفر مادون ذلك لمن يشاء ، والثامنة: والذين آمنوا بالله ورسله ولم يفرقوا بين أحد منهم أولئك سوف يؤتيهم أجورهم الآية .

يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ إِلاَّ أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً عَنْ تَرَاضٍ مِنْكُمْ وَلاَ تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ إِنَّ اللهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيماً (٢٩) وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ عُدْوَاناً وَظُلْماً فَسَوْفَ نُصْلِيهِ نَاراً وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللهِ يَسِيراً (٣٠)

المعنى الجملى

بعد أن ذكر فيما سلف كيفية معاملة اليتامى وإيتاء أموالهم إليهم عند الرشد وعدم دفع الأموال إلى السفهاء ثم بين وجوب دفع المهور للنساء وأنكر عليهم أخذها بوجه من الوجوه ، ثم ذكر وجوب إعطاء شيء من أموال اليتامى إلى أقاربهم إذا حضروا القسمة ذكر هنا قاعدة عامة للتعامل فى الأموال تطهيرا للأنفس فى جمع المال المحبوب لها فقال :

الإيضاح

(يأيها الذين آمنوا لا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل) الباطل من البطل والبطلان وهو الضياع والخسار ، وفى الشرع أخذ المال بدون عوض حقيقى يعتد به ولا رضا ممن يؤخذ منه ، أو إنفاقه فى غير وجه حقيقى نافع ، فيدخل فى ذلك النصب والغش والخداع والربا والغبن وإنفاق المال فى الوجوه المحرمة والإسراف بوضع المال فيما لا يرضى به العقلاء .

وقوله بينكم رمز إلى أن المال المحرم يكون عادة موضع التنازع فى التعامل بين الآكل والمأكول منه كل منهما يريد جذبه إليه ، والمراد بالأكل الأخذ على أى وجه ، وعبر عنه بالأكل لأنه أكثر أوجه استعمال المال وأقواها ، وأضاف الأموال إلى الجميع ولم يقل لا يأكل بعضكم مال بعض ، تنبيها إلى تكافل الأمة فى الحقوق والمصالح كأنّ مال كل واحد منها هو مال الأمة جميعها ، فإذا استباح أحدهم

أن يأكل مال الآخر بالباطل كان كأنه أباح لغيره أن يأكل ماله فالحياة قصاص ، وتنبيها إلى أن صاحب المال يجب عليه بذل شىء منه للمحتاج وعدم البخل عليه به ، إذ هو كأنما أعطاه شيئا من ماله .

وبهذا قد وضع الإسلام قواعد عادلة للأموال لدى من يعتنق مبادئه وهى :

(١) أن مال الفرد مال الأمة مع احترام الحيازة والملكية وحفظ حقوقها ، فهو يوجب على ذى المال الكثير حقوقا معينة للمصالح العامة ، وعلى ذى المال القليل حقوقا أخرى للبائسين وذوى الحاجات من سائر أصناف البشر ، ويحث على البر والإحسان والصدقات فى جميع الأوقات .

وبهذا لا يوجد فى بلاد الإسلام مضطر إلى القوت أو عريان سواء أكان مسلما أم غير مسلم ، لأن الإسلام فرض على المسلمين إزالة ضرورة المضطر ، كما فرض فى أموالهم حقوقا للفقراء والمساكين .

وكل فرد يقيم فى بلادهم يرى أن مال الأمة هو ماله ، فإذا اضطر إليه يجده مذخوراً له ، كما جعل المال المفروض فى أموال الأغنياء تحت سيطرة الجماعة الحاكمة من الأمة حتى لا يمنعه من فى قلبه مرض ، وحثهم على البذل ورغبهم فيه ، وذمهم على البخل ووكل ذلك إلى أنفسهم ، لتقوى لديهم ملكة السخاء والمروءة والرحمة .

(٢) أنه لم يبح للمحتاج أن يأخذ ما يحتاج إليه من أيدى أربابه إلا بإذنهم ، حتى لا تنتشر البطالة والكسل بين أفراد الأمة ، وتوجد الفوضى فى الأموال ، والضعف والتوانى فى الأعمال ، ويدب الفساد فى الأخلاق والآداب .

ولو أقام المسلمون معالم دينهم ، وعملوا بشرائعه ، لضربوا للناس الأمثال واستبان لهم أنه خير شريعة أخرجت للناس ، ولأقاموا مدنية صحيحة فى هذا العصر يتأسى بها كل من يريد سعادة الجماعات ، ولا يجعلها تئنّ تحت أثقال العوز والحاجة ، كما هو حادث الآن من التنافر العام والنظر الشزر من العمال إلى أصحاب رءوس الأموال

(إلا أن تكون تجارة عن تراض منكم) أى لا تكونوا من ذوى الأطماع الذين

يأكلون أموال الناس بغير مقابل لها من عين أو منفعة ، ولكن كلوها بالتجارة التى قوام الحل فيها التراضى ، وذلك هو اللائق بأهل المروءة والدين إذا أرادوا أن يكونوا من أرباب الثراء .

وفى الآية إيماء إلى وجوه شتى من الفوائد :

(١) أن مدار حل التجارة على تراضى المتبايعين ، فالغشّ والكذب والتدليس فيها من المحرمات .

(٢) أن جميع ما فى الدنيا من التجارة وما فى معناها من قبيل الباطل الذى لابقاء له ولا ثبات ، فلا ينبغى أن يشغل العاقل عن الاستعداد للآخرة التى هى خير وأبقى .

(٣) الإشارة إلى أن معظم أنواع التجارة يدخل فيها الأكل بالباطل ، فإن تحديد قيمة الشىء وجعل ثمنه على قدره بالقسطاس المستقيم يكاد يكون مستحيلا ، ومن ثم يجرى التسامح فيها إذا كان أحد العوضين أكبر من الآخر ، أو إذا كان سبب الزيادة براعة التاجر فى تزيين سلعته ، وترويجها بزخرف القول من غير غش ولا خداع ، فكثيراً ما يشترى الإنسان الشىء وهو يعلم أنه يمكنه شراؤه من موضع آخر بثمن أقل ، وما نشأ هذا إلا من خلابة التاجر وكياسته فى تجارته ، فيكون هذا من باطل التجارة الحاصلة بالتراضى فيكون حلالاً .

والحكمة فى إباحة ذلك ، الترغيب فى التجارة ، لشدة حاجة الناس إليها ، والتنبيه إلى استعمال ما أوتوا من الذكاء والفطنة فى اختيار الأشياء ، والتدقيق فى المعاملة ، حفظا للأموال حتى لايذهب شىء منها بالباطل أى بدون منفعة تقابلها .

فإذا ما وجد فى التجارة الربح الكثير بلا غش ولا تغرير ، بل بتراض من الطرفين لم يكن فى هذا حرج ، ولولا ذلك ما رغب أحد فى التجارة ، ولا اشتغل بها أحد من أهل الدين ، على شدة حاجة العمران إليها ، وعدم الاستغناء عنها .

ولما كان المال عديل الروح وقد نهينا عن إتلافه بالباطل ـ نهينا عن إتلاف النفس ، لكون أكثر إتلافهم لها بالمغامرات لنهب الأموال وما كان متصلا بها ، وربما أدى ذلك إلى الفتن التى ربما كان آخرها القتل ومن ثم قال :

(ولا تقتلوا أنفسكم) أى لا يقتل بعضكم بعضا ، وعبر بذلك للمبالغة فى الزجر ، وللاشعار بتعاون الأمة وتكافلها ووحدتها ، وقد جاء فى الحديث « المؤمنون كالنفس الواحدة » ولأن قتل الإنسان لغيره يفضى إلى قتله قصاصا أو ثأرا ، فكأنه يقتل نفسه.

وبهذا علمنا القرآن أن جناية الإنسان على غيره جناية على نفسه ، وجناية على البشر جميعا ، لا على المتصلين به برابطة الدين أو الجنس أو السياسة كما قال تعالى : « مَنْ قَتَلَ نَفْساً بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعاً » كما أنه أرشدنا باحترام نفوس الناس بعدّها كنفوسنا ـ إلى أن نحترم نفوسنا بالأولى فلا يباح بحال أن يقتل أحد نفسه ، ليستريح من الغم وشقاء الحياة ، فمهما اشتدت المصايب بالمؤمن ، فعليه أن يصبر ويحتسب ولا ييأس من الفرج الإلهى ، ومن ثم لا يكثر بخع النفس (الانتحار) إلا حيث يقل الإيمان ويفشو الكفر والإلحاد .

(إن الله كان بكم رحيما) أى إنه بنهيكم عن أكل الأموال بالباطل ، وعن قتلكم أنفسكم كان رحيما بكم ، إذ حفظ دماءكم كما حفظ أموالكم التى عليها قوام المصالح واستمرار المنافع ، وعلمكم أن تتراحموا وتتوادوا ويكون كل منكم عونا للآخر ، يحافظ على ماله ويدافع عن نفسه ، إذا جد الجد ، ودعت الحاجة إلى الدفاع عنه .

(ومن يفعل ذلك عدوانا وظلما فسوف نصليه ناراً) العدوان هو التعدى على الحق ، وهو يتعلق بالقصد بأن يتعمد الفاعل الفعل وهو عالم أنه قد تعدى الحق وجاوزه إلى الباطل ، والظلم يتعلق بالفعل نفسه ، بألا يتحرى الفاعل عمل ما يحل ، فيفعل مالا يحل ، والوعيد مقرون بالأمرين معا ، فلابد من قصد الفاعل العدوان ، وأن يكون فعله ظلما حقا ، فإذا وجد أحدهما دون الآخر لم يستحق الفاعل هذا التهديد الشديد ، فإذا قتل الإنسان رجلا كان قد قتل أباه أو ابنه ، فهنا قد وجد العدوان

ولم يوجد الظلم، وإذا سلب امرؤ مال آخر ظانا أنه ماله الذى كان قد سرقه أو اغتصبه ثم تبين له أن المال ليس ماله ، وأن هذا الرجل لم يكن هو الذى أخذ ماله ، فهاهنا قد وجد الظلم دون العدوان .

(وكان ذلك على الله يسيرا) أى وكان ذلك الإصلاء فى النار يسيرا على الله ، هينا لا يمنعه منه مانع ، ولا يدفعه عنه دافع، ولا يشفع فيه إلا بإذنه شافع ، فلا يغترنّ الظالمون المعتدون بحلمه عليهم فى الدنيا ، وعدم معاجلتهم بالعقوبة، فيظنوا أنهم بمنجاة من عقابه فى الآخرة ، ولا يكوننّ كأولئك المشركين الذين قالوا «نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالاً وَأَوْلَادًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ» .

إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُمْ مُدْخَلاً كَرِيمًا (٣١)

شرح المفردات

الاجتناب ترك الشىء جانبا ، والكبائر واحدتها كبيرة وهى المعصية العظيمة ، والسيئات واحدتها سيئة وهى الفعلة التى تسوء صاحبها عاجلا أو آجلا ، والمراد بها هنا الصغيرة ، ونكفر نغفر ونمحو ، ومدخلا كريما أى مكانا كريما وهو الجنة .

المعنى الجملى

بعد أن نهى الله عن أكل أموال الناس بالباطل ، وعن قتل النفس ، وهما أكبر الذنوب المتعلقة بحقوق العباد ، وتوعد فاعل ذلك بأشد العقوبات — نهى عن جميع الكبائر التى يعظم ضررها ، وتؤذن بضعف إيمان مرتكبها ، ووعد من تركها بالمدخل الكريم .

الإيضاح

(إن تجتنبوا كبائر ما تنهون عنه نكفر عنكم سيئاتكم) أى إن تتركوا جانبا كبائر ما ينهاكم الله عن ارتكابه من الذنوب والآثام نمح عنكم صغائرها فلا نؤاخذكم بها .

وقد اختلف فى عدد الكبائر فقيل هى سبع لما ورد فى الصحيحين عن أبى هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « اجتنبوا السبع الموبقات ، قالوا وما هى يا رسول الله ؟ قال : الشرك بالله ، وقتل النفس التى حرم الله إلا بالحق ، والسحر ، وأكل مال اليتيم ، وأكل الربا ، والتولّى يوم الزحف ، وقذف المحصنات المؤمنات الغافلات » وفى رواية لهما عن أبى بكرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « ألا أنبئكم بأكبر الكبائر ؟ قلنا بلى يا رسول الله ، قال : الإشراك بالله ، وعقوق الوالدين — وكان متكئا فجلس وقال — ألا وقول الزور وشهادة الزور ، فما زال يكررها حتى قلنا ليته سكت » .

وفيهما أيضا من حديث ابن عمر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إن من أكبر الكبائر أن يلعن الرجل والديه ، قالوا وكيف يلعن الرجل والديه ؟ قال يسب أبا الرجل فيسب أباه ، ويسب أمه فيسب أمه» .

والأحاديث الصحيحة مختلفة فى عددها ، ومجموعها يزيد على سبع ، ومن ثم قال ابن عباس لما قال له رجل : الكبائر سبع ، قال هى إلى سبعين أقرب ، إذ لا صغيرة مع الإصرار ، ولا كبيرة مع الاستغفار ، ومراده أن كل ذنب يرتكب لعارض يعرض على النفس من استشاطة غضب أو ثورة شهوة ، وصاحبه متمكن من دينه ، يخاف الله ولا يستحل محارمه ، فهو من السيئات التى يكفرها الله تعالى ، إذ لولا ذلك العارض القاهر للنفس لم يكن ليجترحه تهاونا بالدين ، إذ هو بعد اجتراحه يندم ويتألم ويتوب ويرجع إلى الله تعالى ، ويعزم على عدم العودة إلى اقتراف مثله ، فهو إذ ذاك أهل لأن يتوب الله عليه ، ويكفر عنه .

وكل ذنب يرتكبه الإنسان مع التهاون بالأمر وعدم المبالاة بنظر الله إليه ، ورؤيته إياه حيث نهاه ، فهو مهما كان صغيرا فى صورته ، أو فى ضرره ، يعد كبيراً من حيث الإصرار والاستهتار ، فتطفيف الكيل والميزان ولو حبة لمن اعتاده ، والهمز واللمز (عيب الناس والطعن فى أعراضهم) لمن تعوده ـ كل ذلك كبيرة ولا شك .

وكان النبى صلى الله عليه وسلم يذكر فى كل مقام ما تمس إليه الحاجة ، ولم يرد الحصر والتحديد .

وقال بعض العلماء : الكبيرة كل ذنب رتب عليه الشارع حدا أو صرح فيه بوعيد .

(وندخلكم مدخلا كريما) أى وندخلكم مكانا لكم فيه الكرامة عند ربكم وهى الجنات التى تجرى من تحتها الأنهار ، والعرب تقول أرض كريمة ، وأرض مكرمة أى طيبة جيدة النبات قال تعالى : « فَأَخْرَجْنَاهُمْ مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ » .

وَلاَ تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ ، لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِمَّا اكْتَسَبُوا ، وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِمَّا اكْتَسَبْنَ ، وَاسْأَلُوا اللهَ مِنْ فَضْلِهِ ، إِنَّ اللهَ كَانَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيماً (٣٢)

شرح المفردات

التمنى تشهى حصول الأمر المرغوب فيه ، وحديث النفس بما يكون وما لا يكون ، من فضله أى إحسانه ونعمه المتكاثرة :

المعنى الجملى

بعد أن نهى سبحانه عن أكل أموال الناس بالباطل ، وعن القتل ، وتوعد فاعلهما بالويل والثبور ، وهما من أفعال الجوارح ، ليصير الظاهر طاهرا عن المعاصى الوخيمة العاقبة — نهى عن التمنى وهو التعرض لها بالقلب حسدا ، لتطهر أعمالهم الباطنة ، فيكون الباطن موافقا للظاهر ، ولأن التمنى قد يجر إلى الأكل ، والأكل قد يقود إلى القتل ، فإن من يرتع حول الحمى يوشك أن يقع فيه .

الإيضاح

(ولا تتمنوا ما فضل الله به بعضكم على بعض ، للرجال نصيب مما اكتسبوا وللنساء نصيب مما اكتسبن) أى إن الله كلف كلا من الرجال والنساء أعمالا ، فما كان خاصا بالرجال لهم نصيب من أجره لا يشاركهم فيه النساء ، وما كان خاصا بالنساء لهن نصيب من أجره لا يشاركهن فيه الرجال ، وليس لأحدهما أن يتمنى ما هو مختص بالآخر ، وقد أراد الله أن يختص النساء بأعمال البيوت ، والرجال بالأعمال الشاقة التى فى خارجها ليتقن كل منهما عمله ، ويقوم بما يجب عليه مع الإخلاص .

وعلى كل منهما أن يسأل ربه الإعانة والقوة على ما نيط به من عمل ، ولا يجوز أن يتمنى ما نيط بالآخر ، ويدخل فى هذا النهى تمنى كل ما هو من الأمور الخِلْقية كالعقل والجمال ، إذ لا فائدة فى تمنيها لمن لم يعطها ، ولا يدخل فيه ما يقع تحت قدرة الإنسان من الأمور الكسبية ، إذ يحمد من الناس أن ينظر بعضهم إلى ما نال الآخرون ، ويتمنوا لأنفسهم مثله وخيرا منه بالسعى والجد .

والخلاصة — أنه تعالى طلب إلينا أن نوجه الأنظار إلى ما يقع تحت كسبنا ، ولا نوجهها إلى ما ليس فى استطاعتنا ، فإنما الفضل بالأعمال الكسبية ، فلا تتمنوا شيئا بغير كسبكم وعملكم ، قاله الأستاذ الإمام بتصرف .

فعلى المسلم أن يعتمد على مواهبه ، وقواه فى كل مطالبه ، بالجد والاجتهاد ، مع رجاء فضل الله فيما لا يصل إليه كسبه ، إما للجهل به ، وإما للعجز عنه ، فالزارع يجتهد فى زراعته ، ويتبع السنن والأسباب التى سنها الله لعمله ، ويسأل الله أن يمنع الآفات والجوائح عنه ، ويرفع أثمان غلاته إلى نحو أولئك مما هو بيد الله .

روى عكرمة أن النساء سألن الجهاد فقلن : وددنا أن الله جعل لنا الغزو ، فنصيب من الأجر ما يصيب الرجال فنزلت .

(واسألوا الله من فضله) أى لا تتمنوا نصيب غيركم ، ولا تحسدوا من فضل عليكم ، واسألوا الله من إحسانه وإنعامه ، فإن خزائنه مملوءة لا تنفد ، روى أنه صلى الله عليه وسلم قال : « سلوا الله من فضله ، فالله يحب أن يسأل ، وإن من أفضل العبادة انتظار الفرج » .

(إن الله كان بكل شىء عليما) وبذا فضل بعض الناس على بعض على حسب مراتب استعدادهم ، وتفاوت اجتهادهم فى معترك الحياة ، ولا يزال العاملون يستزيدونه ولا يزال ينزل عليهم من جوده وكرمه مايفضلون به القاعدين الكسالى حتى بلغ التفاوت بين الناس فى الفضل حدا بعيدا ، وكاد التفاوت بين الشعوب يكون أبعد من التفاوت بين بعض الحيوان وبعض الإنسان .

وَلِكُلٍّ جَعَلْنَا مَوَالِيَ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ وَالَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَانُكُمْ ، فَآتُوهُمْ نَصِيبَهُمْ ، إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا (٣٣)

شرح المفردات

الموالى من يحق لهم الاستيلاء على التركة ، مما ترك أى وارثين مما ترك ، والذين عقدت أيمانكم هم الأزواج ، فإن كلا من الزوجين له حق الإرث بالعقد ، والمتعارف عند الناس فى العقد أن يكون بالمصافحة باليدين قاله أبو مسلم الاصفهانى .

المعنى الجملى

بعد أن نهى سبحانه عن أكل أموال الناس بالباطل ، وعن تمنى أحد ما فضل الله به غيره من المال ، حتى لا يسوقه التمنى إلى التعدى ، وهو وإن كان نهيا عاما فالسياق يعين المراد منه وهو المال ، لأن أكثر التمنى يتعلق به ، ثم ذكر القاعدة العامة فى حيازة الثروة وهى الكسب ـ انتقل إلى نوع آخر تأتى به الحيازة وهو الإرث.

الإيضاح

(ولكلّ جعلنا موالى مما ترك) أى إن لكل من الرجال الذين لهم نصيب مما اكتسبوا ، ومن النساء اللواتى لهن نصيب مما اكتسبن ، موالى لهم حق الولاية على ما يتركون من كسبهم .

ثم بين هؤلاء الموالى فقال :

(الولدان والأقربون والذين عقدت أيمانكم) أى إن هؤلاء الموالى هم جميع الورثة من الأصول والفروع والحواشى والأزواج .

(فآتوهم نصيبهم) أى فأعطوا هؤلاء الموالى نصيبهم المقدر لهم ولا تنقصوهم منه شيئا .

(إن الله كان على كل شىء شهيدا) أى إن الله رقيب شاهد على تصرفاتكم فى التركة وغيرها ، فلا يطمعنّ من بيده المال أن يأكل من نصيب أحد الورثة شيئا ، سواء أكان ذكرا أم أنثى ، كبيرا أم صغيرا .

وجاءت هذه الآية لمنع طمع بعض الوارثين فى بعض .

الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَبِمَا أَنْفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ ، فَالصَّالِحَاتُ قَانِتَاتٌ حَافِظَاتٌ لِلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ

اللهُ ، وَاللاَّتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَاهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ وَاضْرِبُوهُنَّ ، فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلاَ تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلاً ، إِنَّ اللهَ كَانَ عَلِيًّا كَبِيرًا (٣٤) وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَابْعَثُوا حَكَمًا مِنْ أَهْلِهِ وَحَكَمًا مِنْ أَهْلِهَا إِنْ يُرِيدَا إِصْلاَحاً يُوَفِّقِ اللهُ بَيْنَهُمَا ، إِنَّ اللهَ كَانَ عَلِيماً خَبِيرًا (٣٥)

شرح المفردات

يقال هذا قيم المرأة وقوامها إذا كان يقوم بأمرها و يهتم بحفظها ، وما به الفضل قسمان : فطرى وهو قوة مزاج الرجل وكماله فى الخلقة ، و يتبع ذلك قوة العقل وصحة النظر فى مبادئ الأمور وغاياتها ، وكسبى وهو قدرته على الكسب والتصرف فى الأمور ، ومن ثم كلف الرجال بالإنفاق على النساء والقيام برياسة المنزل ، والقنوت السكون والطاعة لله وللأزواج ، والحافظات للغيب أى اللاتى يحفظن ما يغيب عن الناس ، ولا يقال إلا فى الخلوة بالمرأة ، وتخافون أى تظنون ، ونشزت الأرض ارتفعت عما حواليها ، و يراد بها هنا معصية الزوج والترفع عليه ، والبغى الظلم وتجاوز الحد ، والشقاق الخلاف الذى يجعل كلا من المختلفين فى شق أى جانب ، وخوفه توقع حصوله بظهور أسبابه ، والحكم من له حق الحكم والفصل بين الخصمين و بعث الحكمين إرسالها إلى الزوجين لينظرا فى شكوى كل منهما و يتعرّفا ما يرجى أن يصلح بينهما .

المعنى الجملى

لما نهى الله تعالى كلا من الرجال والنساء عن تمنى ما فضل الله به بعضهم على بعض وأرشدهم إلى الاعتماد فى أمر الرزق على كسبهم ، وأمرهم أن يؤتوا الوارثين

أنصبتهم ، وفى هـــذه الأنصبة يستبين تفضيل الرجال على النساء ـ ذكر هنا أسباب التفضيل .

الإيضاح

(الرجال قوّامون على النساء بما فضل الله بعضهم على بعض وبما أنفقوا من أموالهم) أى إن من شأن الرجال أن يقوموا على النساء بالحماية والرعاية ، وتبع هذا فرض الجهاد عليهم دونهن ، لأن ذلك من أخص شئون الحماية ، وجعل حظهم من الميراث أكثر من حظهن ، لأن عليهم من النفقة ما ليس عليهن .

وسبب هذا أن الله فضل الرجال على النساء فى الخلقة ، وأعطاهم ما لم يعطهن من الحول والقوة ، كما فضلهم بالقدرة على الإنفاق على النســاء من أموالهم ، فإن فى المهور تعويضا للنساء ومكافأة لهن على الدخول تحت رياسة الرجال وقبول القيامة عليهن ، نظير عوض مالى يأخذونه كما قال تعالى : « وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِى عَلَيْهِنَّ بِالمَعْرُوفِ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ » .

والمراد بالقيام الرياسة التى يتصرف فيها المرءوس بإرادة الرئيس واختياره ، إذ لامعنى للقيام إلا الإرشاد والمراقبة فى تنفيذ ما يرشد إليه ، وملاحظة أعماله ، ومن ذلك حفظ المنزل وعدم مفارقته إلا بإذنه ولو لزيارة القربى ، وتقدير النفقة فيه ، فهو الذى يقدرها على حسب ميسرته ، والمرأة هى التى تنفذ على الوجه الذى يرضيه ، ويناسب حاله سعة وضيقا .

ولقيام الرجل بحماية المرأة وكفايتها مختلف شئونها ، يمكنها أن تقوم بوظيفتها الفطرية وهى الحمل والولادة وتربية الأطفال وهى آمنة فى سربها ، مكفية ما يهمها من أمور أرزاقها .

ثم فصل حال النساء فى الحياة المنزلية التى تكون المرأة فيها تحت رياسة الرجل فذكر أنها قسمان ، وأشار إلى معاملتها فى كل حال منهما فقال :

(فالصالحات قانتات حافظات للغيب بما حفظ الله) أى فالنساء الصالحات مطيعات للأزواج حافظات لما يجرى بينهن وبينهم فى الخلوة من الرفث والشئون الخاصة بالزوجية ، لايطلعن أحدا عليها ولو قريبا ، وبالأولى يحفظن العرض من يد تلمس ، أو عين تبصر ، أو أذن تسمع .

وقوله : بما حفظ الله ، أى بسبب أمر الله بحفظه ، فهنّ يطعنه ويعصين الهوى.

وفى الآية أكبر عظة وزجر لمن تتفكه من النساء بإفشاء الأسرار الزوجية ولا تحفظ الغيب فيها .

وكذلك عليهن أن يحفظن أموال الرجال وما يتصل بها من الضياع ، روى ابن جرير والبيهقى عن أبى هريرة قال « خير النساء التى إذا نظرت إليها سرّتك ، وإذا أمرتها أطاعتك ، وإذا غبت عنها حفظتك فى مالك ونفسها ، وقرأ الآية » وهذا القسم من النساء ليس للرجال عليهن سلطان التأديب ، إذ لايوجد مايدعو إليه ، وإنما سلطانهم على القسم الثانى الذى ذكره الله وذكر حكمه بقوله :

(واللاتى تخافون نشوزهن فعظوهن واهجروهنّ فى المضاجع واضربوهن) أى واللاتى تأنسون منهن الترفع وتخافون ألا يقمن بحقوق الزوجية على الوجه الذى ترضونه، فعليكم أن تعاملوهن على النهج الآتى :

(١) أن تبدءوا بالوعظ الذى ترون أنه يؤثر فى نفوسهن ، فمن النساء من يكفيها التذكير بعقاب الله وغضبه ، ومنهن من يؤثر فى أنفسهن التهديد والتحذير من سوء العاقبة فى الدنيا كشماتة الأعداء ، ومنعها بعض رغباتها كالثياب والحلى ونحو ذلك ، وعلى الجملة فاللبيب لاتخفى عليه العظات التى لها المحل الأرفع فى قلب امرأته .

فإن لم يُجْدِ ذلك فله أن يجرب :

(٢) الهجر والإعراض فى المضجع ، ويتحقق ذلك بهجرها فى الفراش مع الإعراض والصدّ (وقد جرت العادة بأن الاجتماع فى المضجع يهيج شعور الزوجية ،

فتسكن نفس كل من الزوجين إلى الآخر، ويزول ما كان فى نفوسهما من اضطراب أثارته الحوادث قبل ذلك) .

فإذا هو فعل ذلك دعاها هـذا إلى السؤال عن أسباب الهجر والهبوط بها من نشز المخالفة إلى مستوى الموافقة ، فإن لم يفد ذلك فله أن يجرب :

(٣) الضرب غير المبرّح أى غير المؤذى إيذاء شـــديدا كالضرب باليد أو بعصا صغيرة .

وقد روى عن مقاتل فى سبب نزول الآية — أن سعد بن الربيع وكان من النقباء نشزت عليه امرأته حبيبة بنت زيد بن أبى زهير ، فلطمها فانطلق أبوها معها إلى النبى صلى الله عليه وسلم فقال : أفرشته كريمتى فلطمها ، فقال النبى صلى الله عليه وسلم « لتقتص من زوجها ، فانصرفت مع أبيها لتقتص منه فقال النبى صلى الله عليه وسلم : ارجعوا ، هذا جبرائيل أتانى وأنزل الله هذه الآية فتلاها صلى الله عليه وسلم وقال : أردنا أمرا وأراد الله أمرا ، والذى أراده الله خير » .

وقد يستعظم بعض من قلد الإفرنج من المسلمين مشروعية ضرب المرأة الناشز ولا يستعظمون أن تنشز وتترفع هى عليه فتجعله وهو الرئيس مرءوسا محتقرا وتصر على نشوزها فلا تلين لوعظه ونصحه ولا تبالى بإعراضه وهجره ، فإن كان قد ثقل ذلك عليهم فليعلموا أن الإفرنج أنفسهم يضربون نساءهم العالمات المهذبات ، بل فعل هذا حكماؤهم وعلماؤهم وملوكهم وأمراؤهم ، فهو ضرورة لا يستغنى عنها ولا سيما فى دين عام للبدو والحضر من جميع أصناف البشر ، وكيف يستنكر هذا والعقل والفطرة يدعوان إليه إذا فسدت البيئة وغلبت الأخلاق الفاسدة ، ولم ير الرجل مناصا منه ولا ترجع المرأة عن نشوزها إلا به .

لـكن إذا صلحت البيئة وصارت النساء يستجبن للنصيحة ، أو يزدجرن بالهجر وجب الاستغناء عنه ، إذ نحن مأمورون بالرفق بالنساء واجتناب ظلمهن ، وإمساكهن بمعروف أو تسريحهن بمعروف .

والأخبار التى وردت فى الوصية بالنساء كثيرة، فمن ذلك ما رواه البخارى ومسلم عن عبد الله بن زَمْعَة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «أيضرب أحدكم امرأته كما يضرب العبد ثم يضاجعها فى آخر اليوم» يعنى أنه إذا لم يكن بدّ للرجل من هذا الاتصال الخاص بامرأته ، وهو أقوى وأحكم اجتماع يكون بين اثنين من البشر وقد قضت به الفطرة ، فكيف يليق به بعدئذ أن يجعل امرأته وهى كنفسه مهينة كمهانة عبده يضربها بسوطه أو بيده ، فالرجل الكريم يأبى عليه طبعه مثل هذا الجفاء .

والخلاصة — أن الضرب علاج مرّ قد يستغنى عنه الخيّر الكريم ، ولكنه لايزول من البيوت إلا إذا عم التهذيب الرجال والنساء وعرف كل ماله من الحقوق وكان للدين سلطان على النفوس يجعلها تراقب الله فى السر والعلن وتخشى أمره ونهيه

(فإن أطعنكم فلا تبغوا عليهن سبيلا) أى إن أطعنكم بواحدة من هذه الخصال التأديبية فلا تبغوا ولا تتجاوزوا ذلك إلى غيرها ، فابدءوا بما بدأ الله من الوعظ ، فإن لم يُجْدِ فبالهجر ، فإن لم يفد فبالضرب ، فإذا لم يغن فليلجأ إلى التحكيم ، ومتى استقام لكم الظاهر فلا تبحثوا عما فى السرائر .

(إن الله كان عليا كبيراً) فى هذه الجملة تهديد شديد ووعيد لمن يظلم النساء ويبغى عليهن ، فالله يذكر عباده بقدرته وكبريائه عليهم ليتعظوا ويخشوه فى معاملتهن فكأنه يقول لهم إن سلطانه عليكم فوق سلطانكم على نسائكم فإذا بغيتم عليهن عاقبكم وإن تجاوزتم عن هفواتهن كرما تجاوز عنكم وكفر عنكم سيئاتكم .

وليس بخافٍ أن الرجال الذين يستذلون نساءهم إنما يلدون عبيدا لغيرهم ، إذ هم يتربون على الظلم ويستسيغونه ولا يكون فى نفوسهم شىء من الكرامة ولا من الشمم والإباء ، وأمة تخرج أبناء كهؤلاء إنما تربى عبيدا أذلاء لايقومون بنصرة أمة ولا يغارون لكرامة ، فما أحراهم بأن يكونوا قطعانا من الغنم تزدجر من كل راع وتستجيب لكل ناعق !.

(وإن خفتم شقاق بينهما فابعثوا حكما من أهله وحكما من أهلها إن يريدا إصلاحا يوفق الله بينهما) هذا الخطاب عام يدخل فيه الزوجان وأقاربهما ، فإن قاموا بذلك فذاك ، وإلا وجب على من بلغه أمرهما من المسلمين أن يسعى فى إصلاح ذات بينهما ، والخلاف بينهما قد يكون بنشوز المرأة ، وقد يكون بظلم الرجل ، فإن كان بالأول فعلى الرجل أن يعالجه بأقرب أنواع التأديب التى ذكرت فى الآية التى سلفت ، وإن كان بالثانى وخيف من تمادى الرجل فى ظلمه أو عجز عن إنزالها عن نشوزها وخيف أن يحول الشقاق بينهما دون إقامتها لأركان الزوجية الثلاث : من السكون والمودة والرحمة ، وجب على الزوجين وذوى القربى أن يبعثوا الحكمين ، وعليهم أن يوجهوا إرادتهم إلى إصلاح ذات البين ، ومتى صدقت الإرادة وصحت العزيمة فالله كفيل بالتوفيق بفضله وجوده .

وبهذا تعلم شدة عناية الله بأحكام نظام الأسر والبيوت وكيف لم يذكر مقابل التوفيق وهو التفريق لأنه يبغضه ولأنه يود أن يشعر المسلمين بأنه لاينبغى أن يقع .

ولكن وا أسفا لم يعمل المسلمون بهذه الوصية الجليلة إلا قليلا حتى دب الفساد فى البيوت ونخر فيها سوس العداوة والبغضاء ففتك بالأخلاق والآداب وسرى من الوالدين إلى الأولاد .

(إن الله كان عليما خبيرا) أى إن هذه الأحكام التى شرعت لكم كانت من لدن عليم بأحوال العباد وأخلاقهم ، خبير بما يقع بينهم وبأسبابه ما ظهر منها وما بطن ولا يخفى عليه شىء من وسائل الإصلاح بينهما .

وفى الآية إرشاد إلى أن مايقع بين الزوجين من خلاف وإن ظن أنه مستعص يتعذر علاجه فقد يكون فى الواقع على غير ذلك من أسباب عارضة يسهل على الحكمين الخبيرين بدخائل الزوجين لقربهما منهما أن يمحصا ما علق من أسبابه بقلوبهما فيزيلاها متى حسنت النية وصحت العزيمة ، ولتعلم أيها المؤمن أن رابطة الزوجية أقوى الروابط التى تربط بين اثنين من البشر ، فبها يشعر كل من الزوجين

بشركة مادية ومعنوية ، بها يؤاخذ كل منهما شريكه على أدق الأمور وأصغرها ، فيحاسبه على فلتات اللسان ، وبالظنة والوهم ، وخفايا خلجات القلب ، فيغريهما ذلك بالتنازع فى كل ما يقصر فيه أحدهما من الأمور المشتركة بينهما ، وما أكثرها وأعسر التوقى منها ، وكثيرا ما يفضى التنازع إلى التقاطع ، والعتاب إلى الكره والبغضاء ، فعليك أن تكون حكيما فى معاملة الزوجة ، خبيرا بطباعها ، وبذا تحسن العشرة بينكما .

وقد صرح علماء الاجتماع بأن السعادة الزوجية قلما تمتع بها زوجان ، وإن كانت أمنية كل الأزواج ، ومن ثم اكتفوا بالمودة العملية ، واجتهدوا فى تربية رجالهم ونسائهم على الاحترام المتبادل جهد المستطاع .

وَاعْبُدُوا اللهَ وَلاَ تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئاً وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً وَبِذِى الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَالْجَارِ ذِى الْقُرْبَى وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنْبِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ، إِنَّ اللهَ لاَ يُحِبُّ مَنْ كَانَ مُخْتَالاً فَخُوراً (٣٦) الَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ وَيَكْتُمُونَ مَا آتَاهُمُ اللهُ مِنْ فَضْلِهِ ، وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَاباً مُهِيناً (٣٧) وَالَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ رِئَاءَ النَّاسِ وَلاَ يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَلاَ بِالْيَوْمِ الْآخِرِ ، وَمَنْ يَكُنِ الشَّيْطَانُ لَهُ قَرِيناً فَسَاءَ قَرِيناً (٣٨) وَمَاذَا عَلَيْهِمْ لَوْ آمَنُوا بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقَهُمُ اللهُ ، وَكَانَ اللهُ بِهِمْ عَلِيماً (٣٩)

شرح المفردات

عبادة الله الخضوع له والاستشعار بتعظيمه فى السر والعلن بالقلب والجوارح ، والإخلاص له بالاعتراف بوحدانيته إذ لا يقبل عملا بدونها ، والإحسان إلى الوالدين

قصد البر بهما بالقيام بخدمتهما والسعى فى تحصيل مطالبهما والإنفاق عليهما بقدر الاستطاعة وعدم الخشونة فى الكلام معهما ، وذى القربى صاحب القرابة من أخ وعمّ وخال وأولاد هؤلاء ، والجار ذى القربى هو الجار القريب الجوار ، والجار الجنب هو البعيد القرابة ، والصاحب بالجنب الرفيق فى السفر أو المنقطع إليك الراجى نفعك ورِفْدَك ، وابن السبيل هو المسافر أو الضيف ، ما ملكت أيمانكم عبيدكم وإماؤكم ، والمختال ذو الخيلاء والكبر ، والفخور الذى يعدد محاسنه تعاظما وتكبرا ، أعتدنا : هيأنا وأعددنا ، والمهين ذو الإهانة والذلة ، رئاء الناس أى للمراءاة والفخر بما فعل ، والقرين الصاحب والخليل ، وماذا عليهم أى أىّ ضرر يحيق بهم لو آمنوا وأنفقوا ؟

المعنى الجملى

كان الكلام من أول السورة فى وصايا ونصائح كابتلاء اليتامى قبل تسليمهم أموالهم ، والنهى عن إيتاء الأموال للسفهاء ، وعن قتل النفس ، والإرشاد إلى كيفية معاملة النساء ، وطرق تأديبهن تارة بالموعظة الحسنة وأخرى بالقسوة والشدة مع مراقبة الله عز وجل فى كل ذلك .

فناسب بعدئذ التذكير بحسن معاملة الخالق بالإخلاص له فى الطاعة ، وحسن معاملة الطوائف المختلفة من الناس وعدم الضنّ عليهم بالمال فى أوقات الشدة ، مع قصد التقرب إلى الله لا لقصد الفخر والخيلاء ، لأن ذلك عمل من لا يرجو ثواب الله ولا يخشى عقابه .

الإيضاح

(واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئا) عبادة الله هى الخضوع له وتمكين هيبته وعظمته من النفس والخشوع لسلطانه فى السر والجهر ، وأمارة ذلك العمل بما به أمر ، وترك ما عنه نهى وبذا تصلح جميع الأعمال من أقوال وأفعال .

والعبادة هى الخضوع لسلطة غيبية وراء الأسباب المعروفة يرجى خيرها ويخشى شرها ، وهذه السلطة لا تكون لغير الله فلا يرجى غيره ولا يخشى سواه ، فمن اعتقد أن غيره يَشْرَكه فيها كان مشركا ، وإذا نهى الله عن إشراك غيره معه ، فلأن ينهى عن إنكار وجوده وجحد ألوهيته أولى .

والإشراك ضروب مختلفة :

منها ما ذكره الله عن مشركى العرب من عبادة الأصنام باتخاذهم أولياء وشفعاء عند الله يقربون المتوسل بهم إليه ويقضون الحاجات عنده ، وقد جاء ذكر هذا فى آيات كثيرة كقوله : « وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ مَا لاَ يَضُرُّهُمْ وَلاَ يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلاَءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللهِ قُلْ أَتُنَبِّئُونَ اللهَ بِمَا لاَ يَعْلَمُ فِى السَّمٰوَاتِ وَلاَ فِى الْأَرْضِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ » .

ومنها ما ذكره عن النصارى من أنهم عبدوا المسيح عليه السلام ، قال تعالى : « اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلاَّ لِيَعْبُدُوا إِلٰهًا وَاحِدًا لاَ إِلٰهَ إِلاَّ هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ » .

وأقوى أنواعه ما سماه الله دعاء واستشفاعا وهو التوسل بغيره له وتوسيطه بينه وبين الله ، ولا ينفع مع هذا صلاة ولا صوم ولا أى عبادة أخرى ، وقد فشا هذا النوع بين المسلمين فتراهم يستشفعون ويقولون (يا شيخ العرب — يا سيد يا بدوى يا سيدى إبراهيم الدسوقى) إلى غير ذلك .

ويعتذر بعض الناس لمثل هؤلاء وغاية ما تصل إليه المعذرة أن يحولوهم من شرك جلىّ واضح إلى شرك أقل منه وضوحا ولكنه شرك على كل حال .

وبعد أن أمر الله بعبادته وحده لا شريك له عقبه بالوصية بالوالدين فقال :

(وبالوالدين إحسانا) أى أحسنوا بهما ولا تقصروا فى شىء مما يطلبانه لأنهما السبب الظاهر فى وجودكم وتربيتكم بالرحمة والإخلاص ، وقد فصلت هذه الوصية

فى سورة الإسراء بقوله تعالى : « وَقَضَى رَبُّكَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلاَهُمَا فَلاَ تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ وَلاَ تَنْهَرْهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلاً كَرِيمًا ، وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا ، رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِى نُفُوسِكُمْ إِنْ تَكُونُوا صَالِحِينَ فَإِنَّهُ كَانَ لِلْأَوَّابِينَ غَفُورًا »

والخلاصة — أن العبرة بما فى نفس الولد من قصد البر والإحسان والإخلاص فيه ، بشرط ألا يحدّ الوالدان من حرية الولد واستقلاله فى شئونه الشخصية والمنزلية ولا فى الأعمال الخاصة بدينه ووطنه فإذا أراد أحدهما الاستبداد فى شىء من ذلك ، فليس من البر العمل برأيهما اتباعا لهواهما .

(وبذى القربى) أى أحسنوا معاملة أقرب الناس إليكم بعد الوالدين ، وإذا أدى المرء حقوق الله فصحت عقيدته وصلحت أعماله ، وقام بحقوق الوالدين ، صلح البيت وحسن حال الأسرة ، وإذا صلح البيت كان قوة كبيرة ، فإذا عاون أهله ذوى القربى الذين ينسبون إليهم كان لكل منهم قوة أخرى تتعاون مع هذه الأسرة ، وبذا تتعاون الأمة جمعاء ، وتمدّ يد المعونة لمن هو فى حاجة إليها ممن ذكروا بعد فى قوله:

(واليتامى والمساكين) لأن اليتيم قد فقد الناصر والمعين وهو الأب ، وقلما تستطيع الأم مهما اتسعت معارفها أن تقوم بتربيته تربية كاملة ، فعلى القادرين أن يعاونوا فى تربيته ، وإلا كان وجوده جناية على الأمة لجهله وفساد أخلاقه ، وكان خطرا على من يعاشرهم من لداته ، وجرثومة فساد بينهم .

وكذلك المساكين لا ينتظم حال المجتمع إلا بالعناية بهم وصلاح حالهم ، وإلا كانوا وبالا عليه .

وهم ضربان مسكين معذور تجب مواساته ، وهو من كان سبب عدمه الضعف والعجز أو نزول آفات سماوية ذهبت بماله، ومثل هذا يجب عونه بمساعدته بالمال الذى يسد عوزه ويستعين به على الكسب .

ومسكين غير معذور فى تقصيره ، وهو من عدم المال بإسرافه وتبذيره ، ومثل هذا يبذل له النصح ويدل على طرق الكسب فإن اتعظ وقبل النصح فيها، وإلاّ ترك أمره إلى أولى الأمر فهم أولى بتقويم معوجّه وإصلاح ما فسد من أخلاقه .

(والجار ذى القربى والجار الجنب) الجوار ضرب من ضروب القرابة فهو قرب بالمكان والسكن ، وقد يأنس الإنسان بجاره القريب أكثر مما يأنس بالنسيب ، فيحسن أن يتعاون الجاران ويكون بينهما الرحمة والإحسان ، فإذا لم يحسن أحدهما إلى الآخر فلا خير فيهما لسائر الناس ، وقد حث الدين على الإحسان فى معاملة الجار ولو غير مسلم فقد عاد النبي صلى الله عليه وسلم ابن جاره اليهودى ، وذبح ابن عمر شاة فجعل يقول لغلامه : أهديت لجارنا اليهودى ، أهديت لجارنا اليهودى ؟ سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « ما زال جبريل يوصينى بالجار حتى ظننت أنه سيورثه » وروى الشيخان أنه صلى الله عليه وسلم قال « من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليحسن إلى جاره ».

وحدد الحسن البصرى الجوار بأربعين جارا من كل جانب من الجوانب الأربعة، والأولى عدم التحديد بالدور وجعل الجار من تجاوره ويتراءى وجهك ووجهه فى غدوك أو رواحك إلى دارك .

وإكرام الجار من شيم العرب قبل الإسلام وزاده الإسلام توكيدا بما جاء فى الكتاب والسنة ، ومن إكرامه إرسال الهدايا إليه ودعوته إلى الطعام وتعاهده بالزيارة والعيادة إلى نحو ذلك .

(والصاحب بالجنب) روى عن ابن عباس أنه الرفيق فى السفر والمنقطع إليك يرجو نفعك ورفدك ، وقيل من صاحبته وعرفته ولو وقتا قصيرا ، فيشمل صاحب الحاجة الذى يمشى بجانبك يستشيرك أو يستعين بك .

(وابن السبيل) هو السائح الرحالة فى غرض صحيح غير محرم ، والأمر بالإحسان إليه يتضمن الترغيب فى السياحة والإعانة عليها ، ويشمل اللقيط أيضا وهو أجدر

بالعناية من اليتيم وأحق بالإحسان إليه ، وقد عنى الأوربيون بجمع اللقطاء وتربيتهم وتعليمهم ، ولولا ذلك لاستطار شرهم وعم ضرهم ، وقد كنا أحق بهذا الإحسان منهم لأن الله قد جعل فى أموالنا حقا معلوما للسائل والمحروم .

(وما ملكت أيمانكم) أى أحسنوا إلى ما ملكت أيمانكم من عبيدكم وإمائكم ، ويشمل هذا تحريرهم وعتقهم وهو أتم الإحسان وأكمله ، ومساعدتهم على شراء أنفسهم دفعة واحدة أو نجوما وأقساطا ، وحسن معاملتهم فى الخدمة بألا يكلفوا ما لا يطيقون ولا يؤذون بقول ولا بفعل ، وقد روى الشيخان قوله صلى الله عليه وسلم « هم إخوانكم وخولكم جعلهم الله تحت أيديكم ، فمن كان أخوه تحت يده فليطعمه مما يأكل وليلبسه مما يلبس ، ولا تكلفوهم من العمل ما يغلبهم ، فإن كلفتموهم فأعينوهم عليه » .

وقد أكد النبى صلى الله عليه وسلم الوصية بهم فى مرض موته وكان ذلك من آخر وصاياه ، فقد روى أحمد والبيهقى من حديث أنس قال : كانت عامة وصية رسول الله صلى الله عليه وسلم حين حضره الموت « الصلاةَ وما ملكت أيمانكم » .

وقد أوصانا سبحانه بهؤلاء حتى لا يظن أن استرقاقهم يجيز امتهانهم ويجعلهم كالحيوانات المسخرة .

(إن الله لا يحب من كان مختالا فخورا) المختال هو المتكبر الذى تظهر آثار الكبر فى حركاته وأعماله ، والفخور هو المتكبر الذى تظهر آثار الكبر فى أقواله ، فتجده يذكر ما يرى أنه ممتاز به عن الناس زهوا بنفسه ، واحتقارا لغيره .

والمختال الفخور مبغوض عند الله ، لأنه احتقر جميع الحقوق التى أوجبها للناس وأوجبها لنفسه من الشعور بعظمته وكبريائه ، فهو كالجاحد لصفات الألوهية التى لا تليق إلا لها .

فالمختال لا يقوم بعبادة ربه حق القيام ، لأن العبادة لا تكون إلا عن خشوع للقلب ، ومن خشع قلبه خشعت جوارحه ، ولا يقوم بحقوق الوالدين ولا ذوى القربى

لأنه لا يشعر بحق لغيره عليه ، وبالأولى لا يشعر بحق لليتيم أو المسكين أو لجار قريب أو بعيد ، فهو لا يرجى منه برٌّ ولا إحسان ، وإنما يتوقع منه إساءة وكفران ، ومن الكبر والخيلاء إطالة الثوب وجر الذيل بطرا ومرحا قال تعالى : « وَلاَ تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحاً إِنَّكَ لَنْ تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَلَنْ تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولاً » .

وليس من الكبر والخيلاء أن يكون المرء وقورا فى غير غلظة ، عزيز النفس مع الأدب والرقة .

روى أبو داود والترمذى عن ابن مسعود قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لا يدخل الجنة من كان فى قلبه مثقال ذرة من كبر » فقال رجل : إن الرجل يحب أن يكون ثوبه حسنا ونعله حسنة ، فقال صلى الله عليه وسلم « إن الله جميل يحب الجمال ، الكبر بطر الحق وغمص الناس » بطر الحق رده استخفافا وترفعا ، وغمص الناس احتقارهم والازدراء بهم .

(الذين يبخلون ويأمرون الناس بالبخل ويكتمون ما آتاهم الله من فضله) روى ابن اسحق وابن جرير عن ابن عباس — كان جماعة من اليهود يأتون رجالا من الأنصار يتنصحون لهم ، فيقولون : لا تنفقوا أموالكم ، فإنا نخشى عليكم الفقر فى ذهابها ، ولا تسارعوا فى النفقة ، فإنكم لا تدرون ما يكون ، فأنزل الله تعالى : (الذين يبخلون — إلى قوله وكان الله بهم عليما) .

والمراد بالبخل فى الآية البخل بالإحسان الذى أمر به فيما تقدم فيشمل البخل بلين الكلام وإلقاء السلام والنصح فى التعليم وإنقاذ المشرف على التهلكة ، وكتمان ما آتاهم الله من فضله يشمل كتمان المال وكتمان العلم .

(وأعتدنا للكافرين عذابا مهينا) أى وهيأنا لهؤلاء بكبرهم وبخلهم وعدم شكرهم عذابا يهينهم ويذلهم، فهو عذاب جامع بين الألم والذلة جزاء لهم على مااقترفوا، وسماهم الله كفارا للإيذان بأن هذه أخلاق وأعمال لا تصدر إلا من الكفور، لامن المؤمن الشكور .

(والذين ينفقون أموالهم رئاء الناس) الرئاء والرياء والمراءاة سواء ، أى إن مانعى الإحسان من أهل الفخر والخيلاء فريقان : فريق يبخلون ويكتمون فضل الله عليهم ، وفريق يبذل المال لا شكرا لله على نعمه ولا اعترافا لعباده بحق ، بل ينفقونها مرائين الناس أى يقصدون أن يروهم فيعظموا قدرهم ويحمدوا فعلهم .

والكبرياء كما تكون من شىء فى نفس الشخص ، تكون أيضا بما يكون له من المال والنسب ، والمرائى أقل شرا من البخيل ، إذ هو يحمل الناس على قبول فخره واختياله فى مقابلة ما يبذله لهم من مال ، فكأنه رأى لهم عليه حقا عوضا من التعظيم والثناء الذى يطلبه بريائه ، وأما البخيل فقد بلغ من احتقاره للناس أنه لا يرى لهم عليه شيئا من الحقوق ، فهو يكلفهم تعظيمه ، وأمواله مدخرة فى الصناديق .

والمرائى بخيل فى الحقيقة إذ هو إنما يبذل المال لمن لا حق لهم عنده ويبخل على أرباب الحقوق كالزوجة والولد والخادم والأقربين كالوالدين ، ولا يتحرى فى إنفاقه النفع العام ولا الخاص، وإنما يتحرى مواطن التعظيم والمدح ، وإن كان الإنفاق ضارا كالمساعدة على فسق أو فتنة فهو تاجر يشترى تعظيم الناس له وتسخيرهم للقيام بخدمته .

(ولا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر) أى إن المؤمنين المرائين فى إنفاقهم يثقون بما عند الناس من المدح والثناء والتعظيم والإطراء ولا يثقون بما أعد الله لعباده من الثواب والجزاء ويفضلون التقرب إليهم على التقرب إليه ، فالله فى نظرهم أهون من الناس ، فمثل هؤلاء لا يعدون مؤمنين إيمانا حقيقيا بالله ولا باليوم الآخر ، بل إيمانهم ضرب من التخيل ليس له مايؤيده من أثر فى القلب ولا إذعان للنفس، فهم لا يعرفون الله وإنما يسمعون الناس يقولون قولا فيقلدونهم فيما يحفظونه منهم فهم لا يعرفون أنه موجد الكائنات النافذ علمه وقدرته فيما فى الأرض والسموات ، ولو كانوا مؤمنين باليوم الآخر وأن هناك حياة أبدية لما فضلوا عليها عرض هذه الحياة القصيرة .

ومن أمارات التفرقة بين المخلص والمرائى ، أن الأول قلما يتذكر عمله أو يذكره إلا لمصلحة كترغيب بعض الناس فى البذل كأن يقول إنى على ما بى من فقر

قد أعطيت كذا درهما فى مصلحة كذا فاللائق بمثالك أن يبذل كذا وكذا درهما .

أما الثانى فهو يلتمس الفرص والمناسبات للفخر والتبجح بما أعطى وما فعل ، كما لا يبذل المال ولا يعمل العمل الصالح إلا بقصد الرياء والسمعة ، إذ ليس له وراء حظوظ الدنيا أمل ولا مطلب .

(ومن يكن الشيطان له قرينا فساء قرينا) أى إن هؤلاء المتكبرين ما حملهم على ما فعلوا إلا وسوسة الشيطان وهو بئس الصاحب والخليل – والمقصد من هذا أن حالهم فى الشر كحال الشيطان .

وفى الآية إيماء إلى تأثير قرناء المرء فى سيرته وأن الواجب اختيار القرين الصالح على قرين السوء، وتعريض بتنفير الأنصار من معاشرة اليهود الذين كانوا ينهونهم عن الإنفاق فى سبيل الله و بيان أنهم شياطين يَعِدون الفقر و ينهون عن العرف .

أما القرين الصالح فهو عون على الخير مرغب فيه ، منفر بسيرته ونصحه عن الشر مبعد عنه ، مذكر بالتقصير مبصر بالعيوب ، وكم أصلح القرين الصالح فاسدا ، وكم أفسد قرين السوء صالحا .

(وماذا عليهم لو آمنوا بالله واليوم الآخر وأنفقوا مما رزقهم الله ؟) أى ما الذى كان يصيبهم من الضرر لو آمنوا بالله إيمانا صحيحا يظهر أثره فى العمل ؟ وفى هذا الأسلوب إثارة عجب الناس من حالهم ، إذ هم لو أخلصوا لما فاتتهم منفعة الدنيا ولفازوا مع ذلك بسعادة العقبى .

فكثيرا ما يفوت المرائى ما يرمى إليه من التقرّب إلى الناس وامتلاك قلوبهم ، و يظفر بذلك المخلص الذى لم يكن من همه أن أحدا يعرف ما عمل ، فيكون الأول قد رجع بخفّى حنين ، بينما الثانى فاز بسعادة الدارين .

فجهله جدير بأن يتعجب منه لأنه جهل بالله وجهل بأحوال الناس ، ولو آمن وأخلص ووثق بوعد الله ووعيده لـكان فى هذا سعادته ، فالإيمان سلوى من كل

فائت ، وفقده عرضة لليأس من كل خير ، ومن ثم يكثر الانتحار من فاقدى الايمان. وأما المؤمن فأقل ما يؤتاه فى المصايب الصبر الذى يخفف وقعها على النفس وأكثره رحمة الله التى بها تتحول النقمة إلى نعمة بما يستفيد من الاختبار والتمحيص وكمال العبرة والتهذيب .

وقد يبتلى الله المؤمن ويمتحن صبره فيعطيه إيمانه من الرجاء به ما تخالط حلاوته مرارة المصيبة حتى تغلبها، وقد يأنس أحيانا بها لعظم رجائه وصبره ، وهذا وإن كان نادرا فهو واقع حاصل .

(وكان الله بهم عليما) فينبغى للمؤمن أن يكتفى بعلم الله فى إنفاقه ولا يبالى بعلم الناس ، فهو الذى لا ينسى عمل العاملين ولا يظلمهم من أجرهم شيئا .

وفى هذه الآيات الكريمة الهداية الكافية فى معاملة الناس لربهم ولبعضهم بعضا ، ولكن المسلمين قصروا فى اتباع هذه الأوامر وأعرضوا عن مساعدة ذوى القربى والجيران واليتامى والمساكين ، والشواهد على هذا كثيرة .

إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ ، وَإِنْ تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِنْ لَدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا (٤٠) فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا (٤١) يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَعَصَوُا الرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّى بِهِمُ الْأَرْضُ وَلَا يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثًا (٤٢)

شرح المفردات

المثقال أصله المقدار الذى له ثقل مهما قل ثم أطلق على المعيار المخصوص للذهب وغيره ، والذرة أصغر مايدرك من الأجسام ومن ثم قالوا إنها النملة أو رأسها أو الخردلة أو الهباء (ما يظهر فى نور الشمس الداخل من الكوة) ولذلك روى عن ابن عباس

رضى الله عنهما أنه أدخل يده فى التراب ثم نفخ فيه فقال كل واحدة من هؤلاء ذرة ، والظلم النقص كما قال تعالى : « كِلْتَا الْجَنَّتَيْنِ آتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِمْ مِنْهُ شَيْئًا » ومن لدنه من عنده ، والحديث الكلام .

المعنى الجملى

بعد أن بين عز اسمه صفات المتكبرين وسوء أحوالهم وتوعدهم على ذلك بأشد أنواع الوعيد ـ زاد الأمر توكيدا وتشديدا فذكر أنه لا يظلم أحدا من العاملين بوصاياه لا قليلا ولا كثيرا ، بل يوفيه حقه بالقسطاس المستقيم ، وفى هذا أعظم الترغيب لفاعلى البر والإحسان وحفز لهممهم على العمل ، وفى معنى الآية قوله : « فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ » .

الإيضاح

(إن الله لا يظلم مثقال ذرة) أى إنه تعالى لا ينقص أحدا من أجر عمله ، والجزاء عليه شيئا ما وإن صغر كذرة الهباء بل يوفيه أجره ، كما لا يعاقبه بغير استحقاق للعقوبة ، إذ أن الثواب والعقاب تابعان لتأثير الأعمال فى النفس بتزكيتها أو تدسيتها ، فالعمل يرفعها إلى أعلى عليين أو يهبط بها إلى أسفل سافلين ، ولذلك درجات ومثاقيل مقدرة فى نفسها لا يحيط بدقائقها إلا من أحاط بكل شىء علما .

والخلاصة — أن الظلم لا يقع من الله تعالى لأنه من النقص الذى يتنزه عنه وهو ذو الكمال المطلق والفضل العظيم ، وقد خلق للناس مشاعر يدركون بها ما لا يدركه الحس ، وشرع لهم من أحكام الدين وآدابه ما لا تستقل عقولهم بالوصول إلى مثله فى هدايتهم وحفظ مصالحهم ، وهى تسوق إلى الخير وتصرف عن الشر وأيدها بالوعد والوعيد ، فمن وقع بعد ذلك فيما يضره ويؤذيه كان هو الظالم لنفسه لأن الله لا يظلم أحدا .

(وإن تك حسنة يضاعفها) أى إنه تعالى مع كونه لا ينقص أحدا من أجر عمله مثقال ذرة يزيد للمحسن فى حسناته ، فالسيئات جزاؤها بقدرها ، والحسنات يضاعف الله تعالى جزاءها عشرة أضعاف أو أضعافا كثيرة كما قال فى آية أخرى « من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها ومن جاء بالسيئة فلا يجزى إلا مثلها وهم لا يظلمون» وقال « من ذا الذى يقرض الله قرضا حسنا فيضاعفه له أضعافا كثيرة » .

(ويؤت من لدنه أجرا عظيما) أى إنه تعالى لواسع فضله لا يكتفى بجزاء المحسنين على إحسانهم فحسب بل يزيدهم من فضله ويعطيهم من لدنه عطاء كبيرا ، وسمى هذا العطاء أجرا ولا مقابل له من الأعمال لأنه لما كان تابعا للأجر على العمل سمى باسمه لمجاورته له . وفى ذلك إيماء إلى أنه لا يكون لغير المحسنين إذ هو علاوة على أجور أعمالهم ، فلا مطمع للمسيئين فيه .

(فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيدا) أى إذا كان الله لا يضيع من عمل العاملين مثقال ذرة ، فكيف يكون الناس إذا جمعهم الله وجاء بالشهداء عليهم وهم أنبياؤهم ؟ فما من أمة إلا لها بشير ونذير .

وهذه الشهادة عبارة عن عرض أعمال الأمم على أنبيائهم (لا فرق بين اليهود والنصارى والمسلمين) ومقابلة عقائدهم وأخلاقهم وأعمالهم بعقائد الأنبياء وأعمالهم وأخلاقهم ، فمن شهد لهم نبيهم بأنهم على ما جاء به وما أمر الناس بالعمل به فهم ناجون ، ومن تبرأ منهم أنبياؤهم لمخالفة أعمالهم وعقائدهم لما جاءوا به فأولئك هم الخاسرون وإن ادعوا اتباعهم والانتماء إليهم .

وقوله : وجئنا بك على هؤلاء شهيدا ، يراد به شهادة محمد صلى الله عليه وسلم خاتم المرسلين على أمته كما قال تعالى :

« وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا » أى إن هذه الأمة بحسن سيرتها تكون شهيدة على الأمم السالفة وحجة عليها فى انحرافها عن هدى المرسلين ، والرسول صلى الله عليه وسلم بسيرته

وأخلاقه العالية وسننه المرضية يكون حجة على من تركها وتساهل فى اتباعها ، وعلى من تغالى فيها وابتدع البدع المحدثة من بعده .

روى البخارى والترمذى والنسائى وغيرهم من حديث ابن مسعود أنه قال : قال لى رسول الله صلى الله عليه وسلم « اقرأ علىّ . قلت : يارسول الله أقرأ عليك ، وعليك أنزل ؟ قال نعم أحب أن أسمعه من غيرى فقرأت سورة النساء حتى أتيت إلى هذه الآية (فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد) الخ فقال (حسبك الآن) فإذا عيناه تذرفان » .

فانظر كيف اعتبر بهذه الشهادة الشهيد الأعظم صلى الله عليه وسلم فبكى لتذكر هذا اليوم ، وهل نعتبر كما اعتبر ونستعد لهول ذلك اليوم باتباع سنته ونجتهد فى اجتناب البدع والتقاليد التى لم تكن فى عهده ، وبذا نكون أمة وسطا لا تفريط عندها فى الدين ولا إفراط لا فى الشؤون الجسمية ولا فى الشؤون الروحية ، أو نظل فى غوايتنا تقليدا للآباء فنكون كما قال الكافرون « إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مقتدون » .

(يومئذ يود الذين كفروا وعصوا الرسول لو تسوى بهم الأرض) أى إذا جاء ذلك اليوم الذى نأتى فيه بشهيد على كل أمة ، يتمنى الذين كفروا وعصوا الرسول فلم يتبعوا ما جاء ، أن يصيروا ترابا تسوى بهم الأرض فيكونوا وإياها سواء كما قال فى سورة النبأ « ويقول الكافر يا ليتنى كنت ترابا » .

(ولا يكتمون الله حديثا) أى إنهم يودون لو يكونون ترابا فتسوى بهم الأرض ولا يكونون قد كتموا الله وكذبوا أمامه على أنفسهم بإنكار شركهم وضلالهم كما قال تعالى « ويوم نحشرهم جميعا ثم نقول للذين أشركوا أين شركاؤكم الذين كنتم تزعمون ، ثم لم تكن فتنتهم إلا أن قالوا والله ربنا ما كنا مشركين ، انظر كيف كذبوا على أنفسهم وضل عنهم ما كانوا يفترون » أى فهم حينئذ يكذبون وينكرون شركهم إما اعتقادا منهم أنّ ما كانوا عليه ليس بشرك وإنما هو استشفاع وتوسل ،

وإما مكابرة وظنا أن ذلك يجديهم ويدفع عنهم العذاب ، فيشهد عليهم الأنبياء المرسلون أنهم لم يكونوا متبعين لهم فيما أحدثوا من شركهم ، بل كانوا مبتدعين ذلك من عند أنفسهم ، فقد قاسوا ربهم على ملوكهم الظالمين وأمرائهم المستبدين الذين يتركون عقاب بعض المسيئين بشفاعة المقربين فإذا شهدوا عليهم تمنوا لو كانوا قد سويت بهم الأرض وما افتروا ذلك الكذب .

يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَقْرَبُوا الصَّلاَةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ وَلاَ جُنُبًا إِلاَّ عَابِرِى سَبِيلٍ حَتَّى تَغْتَسِلُوا ، وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْضَى أَوْ عَلَى سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الْغَائِطِ أَوْ لاَمَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ ، إِنَّ اللهَ كَانَ عَفُوًّا غَفُورًا (٤٣)

شرح المفردات

الغائط المنخفض من الأرض كالوادى ، وأهل البادية والقرى الصغيرة يقصدونه عند قضاء الحاجة للستر والاستخفاء عن الناس ، وملامسة النساء الإفضاء إليهن ، تيمموا اقصدوا ، والصعيد وجه الأرض ، والطيب الطاهر ، العفو ذو العفو ، والعفو عن الذنب محوه وجعله كأن لم يكن ، والغفور ذو المغفرة ، والمغفرة ستر الذنوب بعدم الحساب عليها .

المعنى الجملى

بعد أن وصف سبحانه الوقوف بين يديه يوم العرض والأهوال التى تؤدى إلى تمنى الكافر العدم فيقول: ياليتنى كنت ترابا ، والتى تجعله لايستطيع أن يكتم

الله حديثا ، وذكر أنه لا ينجو فى ذلك اليوم إلا من كان طاهر القلب والجوارح بالإيمان به والطاعة لرسوله ـ وصف فى هذه الآية الوقوف بين يديه فى مقام الأنس وحضرة القدس ، المنجى من هول الوقوف فى ذلك اليوم ، وطلب فيه استكمال القوى العقلية وتوجيهها إلى جانب العلى الأعلى بألا تكون مشغولة بذكرى غيره ، طاهرة عن الأنجاس والأخباث ، لتكون على أتم العدة للوقوف فى ذلك الموقف الرهيب مستشعرة تلك العظمة والجلال والكبرياء . فقال :

الإيضاح

(يأيها الذين آمنوا لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى حتى تعلموا ما تقولون) أى لاتصلوا حال السكر حتى تعلموا قبل الشروع فيها ماستقرءونه وماستعملونه ، ذاك أن حال السكر لايتأتى معها الخشوع والخضوع والحضور مع الله بمناجاته بكتابه وذكره ودعائه.

وهذا الخطاب موجه إلى المسلمين قبل السكر بأن يجتنبوه إذا ظنوا أنهم سيصلون ليحتاطوا فيجتنبوه فى أكثر الأوقات ، وقد كان هذا تمهيدا لتحريم السكر تحريما باتا لاهوادة فيه إذ من يتقى أن يجىء عليه وقت الصلاة وهو سكران يترك الشرب عامة النهار وأول الليل لتفرّق الصلوات الخمس فى هذه المدة ، فلم يبق للسكر إلا وقت النوم من بعد العشاء إلى السحر فيقل الشراب لمزاحمة النوم له ، وأول النهار من صلاة الفجر إلى وقت الظهيرة وقت الكسب والعمل لأكثر الناس ، ويقل أن يسكر فيه إلا أصحاب البطالة والكسل .

وقد ورد أنهم كانوا بعد نزولها يشربون بعد العشاء فلا يصبحون إلا وقد زال السكر وصاروا يعلمون ما يقولون .

روى أبو داود والترمذى عن على كرم الله وجهه قال « صنع لنا عبد الرحمن بن عوف طعاما فدعانا وسقانا من الخمر فأخذت منا وحضرت الصلاة فقدمونى فقرأت قل يأيها الكافرون لا أعبد ماتعبدون ونحن نعبد ماتعبدون فنزلت الآية » .

وروى ابن جرير عن علىّ أن الإمام كان يومئذ عبد الرحمن وأن الصلاة صلاة المغرب - وكان ذلك قبل أن تحرم الخمر .

ويفترق المعنى بين الأسلوبين (لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى) ولا تقربوا الصلاة سكارى إذ الأول يتضمن النهى عن السكر الذى يخشى أن يمتد إلى وقت الصلاة فيفضى إلى أدائها فى أثنائه ؛ وخلاصة المعنى عليه احذروا أن يكون السكر وصفا لكم عند حضور الصلاة فتصلوا وأنتم سكارى ، فامتثال هذا النهى إنما يكون بترك السكر فى وقت الصلاة وفيما يقرب منها ، وأن الثانى يتضمن النهى عن الصلاة حال السكر فحسب .

وأما نهيهم عن الصلاة جنبا فلا يتضمن نهيهم عن الجنابة قبل الصلاة ، لأنها من سنن الفطرة وإنما ينهاهم عن الصلاة فى أثنائها حتى يغتسلوا ولهذا قال جنبا ولم يقل وأنتم جنب .

(ولا جنبا إلا عابرى سبيل) أى لا تقربوا الصلاة جنبا فى أى حال إلا حال كونكم عابرى سبيل أى مجتازين الطريق ، وقد روى أن رجالا من الأنصار كانت أبوابهم فى المسجد وكان يصيبهم الجنابة ولا يجدون ممرا إلا فيه فرخص لهم فى ذلك ولم يأمر النبى صلى الله عليه وسلم بسد تلك الأبواب والكوى إلا فى آخر عمره الشريف ولم يستثن إلا خوخة أبى بكر رضى الله عنه (الخوخة الكوة والباب الصغير) .

(حتى تغتسلوا) أى لا تقربوا الصلاة جنبا إلى أن تغتسلوا ، إلا ما رخص لكم فيه من عبور السبيل فى المسجد .

وحكمة الاغتسال من الجنابة أن الجنابة تحدث تهيجا فى الأعصاب فيتأثر البدن كله ويحدث فتور وضعف فيه يزيله الاغتسال بالماء ، ومن ثم ورد فى الحديث « إنما الماء من الماء » رواه مسلم .

والخلاصة — أن الدين طلب الصلاة حال العلم والفهم وتدبر القرآن والذكر وذلك يتوقف على الصحو وترك السكر ، كما طلب أن يكون الجسم نظيفا نشيطا وذلك

لا يكون إلا بإزالة الجنابة ، ولما كانت الصلاة فريضة موقوتة لا هوادة فيها ، لأنها تذكر المرء ربه وتعده للتقوى وكان الاغتسال من الجنابة يتعسر فى بعض الحالات ويتعذر فى بعضها الآخر ، رخص الله لنا فى ترك استعمال الماء والاستعاضة عنه بالتيمم ، فقال :

(وإن كنتم مرضى أو على سفر أو جاء أحد منكم من الغائط أو لامستم النساء فلم تجدوا ماء فتيمموا صعيدا طيبا فامسحوا بوجوهكم وأيديكم) المراد بالمرض المرض الذى يخاف زيادته باستعمال الماء كبعض الأمراض الجلدية والقروح كالحصبة والجدرى أونحو ذلك، والسفر يشمل الطويل والقصير، والمراد بالمجىء من الغائط الحدث الأصغر بخروج شىء من أحد السبيلين (القبل والدبر) وملامسة النساء غشيانهن .

ففى هذه الحالات (المرض . السفر . فقد الماء عقب الحدث الأصغر الموجب للوضوء والحدث الأكبر الموجب للغسل) اقصدوا وتحروا صعيدا طيبا أى وجها طاهرا من الأرض لا قذارة فيه ولا أوساخ ، فامسحوا بوجوهكم وأيديكم منه ثم صلوا .

والخلاصة — أن حكم المريض والمسافر إذا أرادا الصلاة كحكم المحدث حدثا أصغر أو ملامس النساء ولم يجد الماء فعلى كل هؤلاء التيمم فقط قاله الأستاذ الإمام .

لكن المعروف فى المذاهب الأربعة أن شرط التيمم فى السفر فقد الماء فلا يجوز مع وجوده وهذا بخلاف ظاهر الآية .

ومن تأمل فى رخص السفر التى منها قصر الصلاة وإباحة الفطر فى رمضان لا يستنكر أن يرخص للمسافر فى ترك الغسل والوضوء مع وجود الماء وهما دون الصلاة والصيام فى نظر الدين ، فالمشاهد أن الوضوء والغسل يشقان على المسافر الواجد الماء فى هذا الزمان الذى سهلت فيه وسائل السفر فى السكك الحديدية والبواخر فكيف تكون المشقة للمسافرين على ظهور الإبل فى مفاوز الحجاز وجبالها ، فأشق ما يشق فى السفر الغسل والوضوء وإن كان الماء حاضرا مستغنى عنه ، ففى البواخر يوجد الماء وتوجد الحمامات للاغتسال بالماء الساخن والماء البارد ولكنها خاصة بالأغنياء الذين

يركبون فى الدرجة الأولى والثانية ، وهؤلاء الأغنياء منهم من يصيبه دوار شديد يتعذر معه الاغتسال ، أو خفيف يشق معه الاغتسال ولا يتعذر ، فإذا كانت هذه السفن التى يوجد فيها الماء على هذه الحال يتعسر فيها الاغتسال أو يتعذر فكيف يكون الاغتسال فى قطر السكك الحديدية أو فى قوافل الجمال والبغال .

روى أن هذه الآية نزلت فى بعض أسفار النبى صلى الله عليه وسلم وقد انقطع عقد لعائشة ، فأقام النبى صلى الله عليه وسلم يلتمسه والناس معه وليسوا على ماء وليس معهم ماء ، فلما نزلت وصلّوا بالتيمم جاء أسيد بن الحضير إلى مضرب عائشة فجعل يقول : ما أكثر بركتكم يا آل أبى بكر ، وفى رواية : يرحمك الله ياعائشة مانزل بك أمر تكرهينه إلا جعل الله تعالى فيه للمسلمين فرجا .

(إن الله كان عفوًّا غفورا) العفو هنا التيسير والسهولة ، ومنه قوله تعالى « خُذِ الْعَفْوَ » وقوله صلى الله عليه وسلم « قد عفوت عن صدقة الخيل والرقيق » أى أسقطتها تيسيرا عليكم ، ومن عفوه وتسهيله أن أسقط فى حال المرض والسفر وجوب الوضوء والغسل .

وقد جاءت هذه الجملة مبينة لمنشأ الرخصة واليسر الذى فيها ـ وهو عفو الله تعالى، وفى ذلك إيماء إلى أن ما كان من الخطأ فى صلاة السكارى كقولهم قل يأيها الكافرون أعبد ما تعبدون ونحن نعبد ما تعبدون ـ مغفور لهم لا يؤاخذون عليه .

قال السيد حسن صديق خان فى شرحه لـ[الروضة الندية] : قد كثر الاختباط فى تفسير هذه الآية: وإن كنتم مرضى أو على سفر الخ والحق أن قيد عدم وجود الماء راجع إلى قوله (أو جاء أحد منكم من الغائط أو لامستم النساء) فتكون الأعذار ثلاثة : السفر والمرض وعدم وجود الماء فى الحضر ، وهذا ظاهر على قول من يقول إن القيد إذا وقع بعد جمل متصلة كان قيدا لآخرها ، وأما على قول من يقول إنه يكون قيدا للجميع إلا أن يمنع مانع فكذلك أيضا لأنه قد وجد المانع هنا من تقييد السفر

والمرض بعدم وجود الماء – وهو أن كل واحد منهما عذر مستقل فى غير هذا الباب كالصوم ، ويؤيد هذا أحاديث التيمم التى وردت مطلقة وغير مقيدة بالحضر اهـ .

ومنه تعلم أن رأيه كرأى الأستاذ الإمام من أن السفر وحده عذر كاف فى التيمم وجد الماء أو لم يوجد .

أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيباً مِنَ الْكِتَابِ يَشْتَرُونَ الضَّلَالَةَ وَيُرِيدُونَ أَنْ تَضِلُّوا السَّبِيلَ (٤٤) وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِأَعْدَائِكُمْ ، وَكَفَى بِاللَّهِ وَلِيًّا وَكَفَى بِاللَّهِ نَصِيرًا (٤٥) مِنَ الَّذِينَ هَادُوا يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَاسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ وَرَاعِنَا لَيًّا بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْنًا فِي الدِّينِ ، وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَاسْمَعْ وَانْظُرْنَا لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَأَقْوَمَ ، وَلَكِنْ لَعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا (٤٦)

شرح المفردات

ألم تر أى ألم تنظر ، نصيبا حظا ، السبيل الطريق القويم ، وليا أى يتولى شؤونكم ، نصيرا معينا يدفع شرهم عنكم ، من الذين هادوا هم اليهود ، غير مسمع ، يحتمل أن يكون المعنى غير مسمع مكروها ، وأن يكون غير مقبول منك ولا مجاب إلى ما تدعو إليه ، وراعنا إما بمعنى ارقبنا وانظرنا نكلمك ، وإما بمعنى كلمة عبرانية كانوا يتسابون بها وهى (راعينا) وليًّا بألسنتهم أى فتلا بها وتحريفا ، طعنا فى الدين قدحا فيه ، أقوم أعدل وأسد ، إلا قليلا أى إلا قليلا من الإيمان لا يعبأ به .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر الله سبحانه فى سابق الآيات كثيرا من الأحكام الشرعية ووعد فاعلها بجزيل الثواب وأوعد تاركها بشديد العقاب انتقل هنا إلى ذكر حال بعض

الأمم الذين تركوا أحكام دينهم وحرفوا كتابهم واشتروا الضلالة بالهدى لينبه الذين خوطبوا بالأحكام المتقدمة إلى أن الله مهيمن عليهم كما هيمن على من قبلهم ، فإذا هم قصروا أخذهم بالعقاب الذى رتبه على ترك أحكام دينه فى الدنيا والآخرة ، والمؤمنون بالله حقا بعد أن سمعوا الوعد والوعيد المتقدمين لابد أن يأخذوا بهذه الأحكام على الوجه الموصل إلى إصلاح الأنفس وذلك هو الأثر المطلوب منها ، ولن يكون ذلك إلا إذا أخذت بصورها ومعانيها لا بأخذها بصورها الظاهرة فحسب .

ولكن قد اكتفى بعض الأمم من الدين ببعض رسومه الظاهرة فقط كبعض اليهود الذين كانوا يكتفون ببعض القرابين وأحكام الدين الظاهرة وهذا لا يكفى فى اتباع الدين والقيام به على الوجه المصلح للنفوس كما أراده الله .

فأرشدنا سبحانه إلى أن عمل الرسوم الظاهرة فى الدين كالغسل والتيمم لا يغنى عنهم شيئا إذا لم يطهروا القلوب حتى ينالوا مرضاته ويكونوا أهلا لكرامته ولا يكون حالهم كحال بعض من سبقهم من الأمم .

الإيضاح

(ألم تر إلى الذين أوتوا نصيبا من الكتاب يشترون الضلالة ويريدون أن تضلوا السبيل) أى ألم تنظر إلى هؤلاء الذين أعطوا طائفة من الكتاب الإلهى ، كيف حرموا هدايته واستبدلوا بها ضدها ، فهم يختارون الضلالة لأنفسهم ويريدون أن تضلوا أيها المؤمنون طريق الحق القويم كما ضلوا هم ، فهم دائبون على الكيد لكم ليردوكم عن دينكم إن استطاعوا .

والتعبير بالشراء دون الاختيار للايماء إلى أنهم كانوا فرحين بما عملوا ظانين أن الخير كل الخير فيما صنعوا ، والتعبير بالنصيب يدل على أنهم لم يحفظوا كتابهم كله إذ هم لم يستظهروه زمن التنزيل كما حفظ القرآن ولم يكتبوا منه نسخا متعددة فى العصر الأول كما فعلنا حتى إذا ما فقد بعضها قام مقامه بعض آخر ، بل كان عند اليهود نسخة

من التوراة هى التى كتبها موسى عليه السلام ففقدت ، ويؤيد هذا قوله تعالى « فَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ » .

والخلاصة — إنهم لم يأخذوا الكتاب كله بل تركوا كثيرا من أحكامه لم يعملوا بها وزادوا عليها ، والزيادة فيه كالنقص منه ، فالتوراة تنهاهم عن الكذب وإيذاء الناس وأكل الربا وكانوا يفعلون ذلك ، وزاد لهم علماؤهم ورؤساؤهم كثيرا من الأحكام والرسوم الدينية فتمسكوا بها وهى ليست من التوراة ولا مما يعرفونه عن موسى عليه السلام .

فالذى لم يعملوا به من التوراة قسمان : أحدهما ما أضاعوه ونسوه ، وثانيهما ما حفظوا حكمه وتركوا العمل به وهو كثير أيضا .

(والله أعلم بأعدائكم) أى والله أعلم منكم بمن هم أعداؤكم فأنتم تظنون فى المنافقين أنهم منكم وماهم منكم فهم يكيدون لكم فى الخفاء ويغشونكم فى الجهر فيبرزون الخديعة فى معرض النصيحة ويظهرون لكم الولاء والرغبة والنصرة والله أعلم بما فى قلوبهم من العداوة والبغضاء .

(وكفى بالله وليا وكفى بالله نصيرا) فهو الذى يرشدكم إلى مافيه خيركم وفلاحكم ، وهو الذى ينصركم على أعدائكم بتوفيقكم لصالح العمل والهداية لأسباب النصر من الاجتماع والتعاون وسائر الوسائل التى تؤدى إلى القوة ، فلا تطلبوا الولاية من غيره ولا النصرة من سواه ، وعليكم باتباع السنن التى وضعها فى هذه الحياة ، ومنها عدم الاستعانة بالأعداء الذين لايعملون إلا لمصالحهم الخاصة كاليهود وغيرهم .

(من الذين هادوا) هذا بيان المراد من الذين أوتوا الكتاب بأنهم يهود ونصارى ، وقوله (والله أعلم) وقوله (وكفى بالله) جملتان معترضتان بين البيان والمبين .

(يحرفون الكلم عن مواضعه) جاءت هذه الجملة لتبيين المراد من اشترائهم الضلالة بالهدى ، والتحريف يطلق على معنيين : أحدهما تأويل القول بحمله على غير معناه الذى وضع له ، كما يؤولون البشارات التى وردت فى النبى صلى الله عليه وسلم

ويؤولون ما ورد فى المسيح ويحملونه على شخص آخر ولا يزالون ينتظرونه إلى اليوم .
وثانيهما أخذ كلمة أو طائفة من الكلم من موضع من الكتاب ووضعها فى موضع آخر ، وقد حصل هذا فى كتب اليهود ، خلطوا ما يؤثر عن موسى بما كتب بعده بزمن طويل ، وكذلك ما وقع فى كلام غيره من أنبيائهم ، واعترف بهذا بعض العلماء من أهل الكتاب ، وقد كانوا يقصدون بهذا التحريف الاصلاح فى زعمهم ، وسبب هذا النوع من التحريف أنه وجدت عندهم قراطيس متفرقة من التوراة بعد فقد النسخة التى كتبها موسى عليه السلام وأرادوا أن يؤلفوا بينها فجاء فيها ذلك الخلط بالزيادة والتكرار ، كما أثبت ذلك بعض الباحثين من المسلمين كالشيخ رحمة الله الهندى فى كتابه [إظهار الحق] وأورد له من الشواهد مالا يحصى .

(ويقولون سمعنا وعصينا واسمع غير مسمع وراعنا) أى ويقول هؤلاء اليهود للنبى صلى الله عليه وسلم سمعنا قولك وعصينا أمرك ، وقد روى عن مجاهد أنهم قالوا للنبى صلى الله عليه وسلم ، سمعنا قولك ولكن لا نطيعك ، وكذلك هم كانوا يقولون له (اسمع غير مسمع) يدعون عليه ، على معنى لا أسمعك الله ، فى الموضع الذى يقول فيه المتأدبون للمخاطبين « لا سمعت أذى أو لا سمعت مكروها » .

وكذلك كانوا يقولون له راعنا ، وقد روى أن اليهود كانوا يتسابون بكلمة (راعينا) العبرانية فسمعوا بعض المؤمنين يقولون للنبى صلى الله عليه وسلم راعنا من المراعاة فافترصوها وصاروا يلوون ألسنتهم بالكلمة ويصرفونها إلى المعنى الآخر .

(ليا بألسنتهم وطعنا فى الدين) أى هم يلوون ألسنتهم فيجعلونها فى الظاهر راعنا وبلىّ اللسان وإمالته (راعينا) قصدا منهم للسباب والشتم والسخرية ، أو جعله راعيا من رعاة الغنم أو من الرعونة ، ومن تحريف اللسان وليه خطابهم للنبى صلى الله عليه وسلم وتحيته بقولهم (السام ــ الموت ــ عليكم) يوهمون بفتل اللسان وجمجمته أنهم يقولون له (السلام عليكم) وقد ثبت هذا فى صحيح الأحاديث ، كما ثبت أن النبى صلى الله عليه وسلم بعد أن علم عنهم ذلك كان يحييهم بقوله (وعليكم) أى كل أحد يموت .

(ولو أنهم قالوا سمعنا وأطعنا واسمع وانظرنا لكان خيرا لهم وأقوم) أى ولو أنهم قالوا سمعنا قولك وأطعنا أمرك لعلمهم بصدقك ولوجود الأدلة والبينات المتظاهرة على ذلك ، وكذلك لو قالوا اسمع منا مانقول وانظرنا أى أمهلنا وانتظرنا ولا تعجل علينا حتى نتفهم عنك ما تقول ، لكان ذلك خيرا لهم وأصوب مما قالوه لما فيه من الأدب والفائدة وحسن العاقبة .

(ولكن لعنهم الله بكفرهم) أى ولكن خذلهم الله وأبعدهم عن الطاعة بسبب كفرهم ، إذ قد مضت سنة الله فى البشر بأن الكفر والعناد يمنع صاحبه من التفكر والتروّى والأدب فى الخطاب ويجعله بعيدا من الخير والرحمة فلا يمتّ إليهما بسبب ولا يصل إليهما برحم ولا نسب .

(فلا يؤمنون إلا قليلا) أى هم لا يؤمنون إلا إيمانا قليلا لا يعتدّ به ، فهو لا يصلح عملا ولا يطهر نفسا ولا يرق عقلا ، ولو كان إيمانهم بنبيهم وكتابهم إيمانا كاملا لهداهم إلى التصديق بمن جاء مصدقا لما معهم من الكتاب ، وبينّ لهم مانسوا منه وما حرفوا فيه ، كما جاءهم بمكارم الأخلاق والنظم الكاملة فى الاجتماع والتشريع ، وبما إن اتبعوه كانوا على الهدى والرشاد وعلى الحق والسداد .

يَاأَيُّهَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ آمِنُوا بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَطْمِسَ وُجُوهًا فَنَرُدَّهَا عَلَى أَدْبَارِهَا أَوْ نَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعَنَّا أَصْحَابَ السَّبْتِ وَكَانَ أَمْرُ اللهِ مَفْعُولاً (٤٧)

شرح المفردات

الكتاب التوراة ، الطمس إزالة الأثر بمحوه أو إخفائه كما تطمس آثار الدار وأعلام الطرق إما بنقل حجارتها، وإما أن تسفوها الرياح ، ومنه الطمس على الأموال فى قوله «رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَى أَمْوَالِهِمْ» أى أزلها وأهلكها، والطمس على الأعين فى قوله

« وَلَوْ نَشَاءُ لَطَمَسْنَا عَلَى أَعْيُنِهِمْ » إما إزالة نورها وإما محو حدقتها ، والوجه تارة يراد به الوجه المعروف ، وتارة وجه النفس وهو ما تتوجه إليه من المقاصد كما قال تعالى « أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ » وقال « وَمَنْ يُسْلِمْ وَجْهَهُ إِلَى اللَّهِ » وقال « فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً » والأدبار واحدها دبر وهو الخلف والقفا ، والارتداد هو الرجوع إلى الوراء إما فى الحسيات وإما فى المعانى ، ومن الأول الارتداد والفرار فى القتال ، ومن الثانى قوله « إِنَّ الَّذِينَ ارْتَدُّوا عَلَى أَدْبَارِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَى الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَى لَهُمْ » ونلعنهم نهلكهم ، كما لعنا أصحاب السبت ، أى كما أهلكنا أصحاب السبت ، وقيل مسخهم الله وجعلهم قردة وخنازير كما أخرجه ابن جرير عن الحسن .

المعنى الجملى

بعد أن نعى على أهل الكتاب فى الآية السالفة اشتراءهم الضلالة بالهدى بتحريفهم بعض الكتاب وإضاعة بعضه الآخر ــ ألزمهم هنا بالعمل بما عرفوا وحفظوا بأن يؤمنوا بالقرآن ، ذلك أن إيمانهم بالتوراة يستدعى الإيمان بما يصدّقها ، وحذرهم من مخالفة ذلك وتوعدهم بالويل والثبور وعظائم الأمور .

الإيضاح

(يأيها الذين أوتوا الكتاب آمنوا بما نزلنا مصدقا لما معكم) أى آمنوا بالكتاب الذى جاء مصدقا لما معكم من تقرير التوحيد والابتعاد عن الشرك ، وما يقوّى ذلك الإيمان من ترك الفواحش ما ظهر منها وما بطن ، وتلك هى أصول الدين وأركانه والمقصد الأسمى من إرسال جميع الرسل ، ولا خلاف بينهم فى ذلك وإنما الخلاف فى التفاصيل وطرق حمل الناس عليها وهدايتهم بها وترقيتهم فى معارج الفلاح على حسب السنن التى وضعها الله فى ارتقاء البشر ، بتعاقب الأجيال واختلاف الأزمان ،

انظر إلى الحكومات المختلفة المتعاقبة تجد أن رائدها العدل ، ولكن الوسائل الموصلة إليه تختلف باختلاف الأمم والبيئة والزمان والمكان ، فتغيير الحاكم الجديد لبعض ما كان عليه مَن قبله ليس ببدع ولا مستنكر إذا كان مقصده إقامة ميزان العدل فيما بين الناس ، وحينئذ يسمى مصدقا لما قبله لا مكذبا ولا مخالفا .

والقرآن قرر نبوة داود وسليمان وموسى وعيسى عليهم الصلاة والسلام فيما جاءوا به ، ووبخ المدعين اتباعهم على إضاعتهم بعض ما جاءوا به وتحريف بعضه الآخر ، وعلى عدم الاهتداء والعمل بما هو محفوظ عندهم ، حتى إن أكثرهم هدموا الأسس التى جاءت بها الأنبياء ومن أعظمها التوحيد فاتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله والمسيح بن مريم وما أمروا إلا ليعبدوا إلها واحداً .

(من قبل أن نطمس وجوها فنردها على أدبارها) أى آمنوا قبل أن يحل بكم العقاب من طمس الوجوه والرد على الأدبار أى من قبل أن نطمس وجوه مقاصدكم التى توجهتم إليها من كيد الإسلام ونردها خاسرة إلى الوراء بإظهار الإسلام ونصره عليكم ، وقد كان لهم عند نزول الآية شىء من المكانة والقوة والعلم والمعرفة .

وجعل بعضهم الرد على الأدبار حسيا فقال نردهم على أدبارهم بالجلاء إلى فلسطين والشام وهى بلادهم التى جاءوا منها .

وخلاصة المعنى — آمنوا قبل أن نعمى عليكم السبيل بما نبصر المؤمنين بشؤونكم ونغريهم بكم فتردوا على أدباركم بأن يكون سعيكم إلى غير الخير لكم .

(أو نلعنهم كما لعنا أصحاب السبت) أى آمنوا قبل أن تقعوا فى الخيبة والخذلان وذهاب العزة باستيلاء المؤمنين عليكم وإجلائكم من دياركم كما حدث لطائفة منكم ، أو بالهلاك كما وقع بقتل طائفة أخرى وهلاكها .

(وكان أمر الله مفعولا) المراد من الأمر الأمر التكوينى المعبر عنه بقوله عز من قائل « إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئاً أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ » أى إنما أمره بإيقاع شىء ما نافذ لا محالة ، ومن هذا ما أوعدتم به ، قال ابن عباس يريد لاراد لحكمه ولا ناقض

لأمره فلا يتعذرعليه شيء يريد أن يفعله كما تقول فى الشيء الذى لاشك فى حصوله : هذا الأمر مفعول وإن لم يفعل بعد .

والخلاصة — أنه يقول لهم أنتم تعلمون أن وعيد الله للأمم السالفة قد وقع ولا محالة فاحترسوا وكونوا على حذر من وعيده لكم .

إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ ، وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدِ افْتَرَى إِثْمًا عَظِيمًا (٤٨) أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنْفُسَهُمْ بَلِ اللَّهُ يُزَكِّي مَنْ يَشَاءُ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا (٤٩) انْظُرْ كَيْفَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَكَفَى بِهِ إِثْمًا مُبِينًا (٥٠)

شرح المفردات

يقال افترى فلان الكذب إذا اعتمله واختلقه ، وأصله من الفرى بمعنى القطع ، وتزكية النفس مدحها قال تعالى « فَلَا تُزَكُّوا أَنْفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى » والظلم النقص ، والفتيل ما يكون فى شق نواة التمر مثل الخيط ، وبه يضرب المثل فى الشيء الحقير كما يضرب بمثقال الذرة ، قال الراغب : الإثم والآثام اسم للأفعال المبطئة عن الثواب أى عن الخيرات التى يثاب المرء عليها ، وقد يطلق الإثم على ما كان ضارًّا .

المعنى الجملى

بعد أن هدد سبحانه اليهود على الكفر وتوعدهم عليه بأشد الوعيد كطمس الوجوه والرد على الأدبار ، ثم بين أن ذلك الوعيد واقع لامحالة بقوله : وكان أمر الله مفعولا .

ذكر أن هذا الوعيد وشديد التهديد إنما هو لجريمة الكفر ، فأما سائر الذنوب سواه فالله قد يغفرها ويتجاوز عن زلاتها .

أخرج ابن المنذر عن أبي مجلز قال : لما نزل قوله تعالى « قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللهِ إِنَّ اللهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ » قام النبي صلى الله عليه وسلم على المنبر فتلاها على الناس ، فقام إليه رجل فقال والشرك بالله ، فسكت ، ثم قام إليه فقال يارسول الله والشرك بالله تعالى فسكت مرتين أو ثلاثا فنزلت هذه الآية .

الإيضاح

(إن الله لا يغفر أن يشرك به) الشرك بالله ضربان :

١) شرك فى الألوهية ، وهو الشعور بسلطة وراء الأسباب والسنن الكونية لغير الله تعالى .

٢) شرك فى الربوبية ، وهوالأخذ بشيء من أحكام الدين بالتحليل والتحريم عن بعض البشر دون الوحى ، وهذا ما أشار إليه الكتاب الكريم بقوله « اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَاباً مِنْ دُونِ اللهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ » وقد فسر النبي صلى الله عليه وسلم اتخاذهم أرباباً بطاعتهم واتباعهم فى أحكام الحلال والحرام .

وقد سرى الشرك فى الألوهية والربوبية إلى بعض المسلمين منذ قرون كثيرة .

وفى الآية إيماء إلى تسمية أهل الكتاب بالمشركين ، وكأنه يقول لهم : لا يغرنكم انتماؤكم إلى الكتب والأنبياء ، وقد هدمتم أساس الدين بالشرك الذى لا يغفره الله بحال .

والحكمة فى عدم مغفرة الشرك أن الدين إنما شرع لتزكية النفوس وتطهير الأرواح وترقية العقول ، والشرك ينافى كل هذا ، لأنه منتهى ما تهبط إليه العقول ، ومنه تتولد سائر الرذائل التى تفسد الأفراد والجماعات ، فبه يرفعون من دونهم أو من هم مثلهم إلى مرتبة التقديس والخضوع لهم باعتبار أن السلطة العليا بأيديهم ، وأن إرضاءهم وطاعتهم هو إرضاء لله وطاعة له .

وبالتوحيد يعتق المرء من رق العبودية لأحد من البشر أو لشىء من الأشياء السماوية أو الأرضية ، ويكون حرا كريما لايخضع إلا لمن خضعت لسننه الكائنات بما أقامه من ربط الأسباب بالمسببات .

والخلاصة — أن أرواح الموحدين تكون راقية لا تهبط بها الذنوب إلى الحضيض الذى تهوى إليه أرواح المشركين ، إذ مهما عمل المشرك من الطيبات ، فإن روحه تبقى مظلمة بالعبودية والخضوع لغير الله ، ومهما أذنب الموحدون ، فإن ذنوبهم لا تحيط بأرواحهم ، إذ خيرهم يغلب شرهم ، ولا يبعد بهم الأمد وهم فى غفلة عن ربهم كما قال تعالى « إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ » فهم يسرعون إلى التوبة ويتبعون السيئة بالحسنة حتى يذهب أثرها من النفس ، وذلك هو غفرانها .

(ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء) أى ويغفر ما دون الشرك لمن يشاء من عباده الذين أذنبوا ، ومشيئة الله تعالى تكون وفق حكمته ، وعلى مقتضى سنته فى خليقته وقد جرت سنته بألا يغفر الذنوب التى لا يتوب صاحبها ، ولا يتبعها بالحسنات التى تزيل آثارها من نفس أصحابها .

وقصارى ذلك — أن الشرك لإفساده للنفوس يترتب عليه العقاب حتما فى الدنيا والآخرة ، وما عداه لا يصل إلى درجته فى إفساد النفوس ، فمغفرته ممكنة تتعلق بها المشيئة الإلهية ، فمنه ما يكون تأثيره السىء فى النفوس قويا ، ومنه ما يكون ضعيفا يغفر بالتأثير بصالح العمل .

(ومن يشرك بالله فقد افترى إثما عظيما) أى ومن يجعل لغير الله شركة مع الله قيوم السموات والأرض ـ سواء أكانت الشركة بالإيجاد أو بالتحليل والتحريم ـ فقد اخترع ذنبا عظيم الضرر ، تستصغر فى جنب عظمته جميع الذنوب والآثام ، فهو جدير بألا يغفر ، وما دونه قد يمحى بالغفران .

(ألم تر إلى الذين يزكون) أى انظر واعجب من الذين يدّعون أنهم أزكياء

بررة عند الله ، مع ما هم عليه من الكفر وعظيم الذنب ، زعما منهم أن الله يكفر لهم ذنوبهم التي عملوها ، والله لا يغفر لكافر شيئا من كفره ومعاصيه .

وتزكية النفس تارة تكون بالعمل الذي يجعلها زاكية طاهرة كثيرة الخير والبركة بتنمية فضائلها وكمالاتها ، ولا يكون ذلك إلا بابتعادها عن الشرور والآثام التي تعوقها عن الخير ، وهذه التزكية محمودة وهي التي عناها الله سبحانه بقوله : « قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا » .

وتارة تكون بالقول بادعاء الكمال والزكاة ، وقد اتفق العقلاء على استهجان تزكية المرء نفسه بالقول ولو حقا ، ومصدر هذه التزكية الجهل والغرور ، ومن آثاره السيئة الاستكبار عن قبول الحق ، والانتفاع بالنصح .

روى ابن جرير عن الحسن أن الآية نزلت في اليهود والنصارى حيث قالوا « نَحْنُ أَبْنَاءُ اللهِ وَأَحِبَّاؤُهُ » وقالوا « لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلاَّ مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَى » وقالت اليهود « لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلاَّ أَيَّاماً مَعْدُودَةً » وروى عن السدى أنه قال : نزلت في اليهود حيث قالوا : إنا نعلّم أبناءنا التوراة صغارا فلا تكون لهم ذنوب ، وذنوبنا مثل ذنوب أبنائنا ، ما عملنا بالنهار كفر عنا بالليل .

وقد رد الله عليهم دعواهم الزكاة والطهارة فقال :

(بل الله يزكى من يشاء) أى لا عبرة بتزكيتكم أنفسكم بأن تقولوا نحن أبناء الله وأحباؤه ، وبأنكم لا تعذبون في النار ، لأنكم شعب الله المختار ، وتتفاخروا بنسبكم وبدينكم ، بل الله يزكى من يشاء من عباده ، من أى شعب كان ، ومن أى قبيلة كانت ، فيهديهم إلى صحيح العقائد ، وفاضل الآداب ، وصالح الأعمال .

(ولا يظلمون فتيلا) أى ولا ينقص الله هؤلاء الذين يزكون أنفسهم شيئا من الجزاء على أعمالهم ،

فخذلانهم في الدنيا بالعبودية لغيرهم ، وفي الآخرة بالعذاب والحرمان من النعيم والثواب ، ما كان بظلم من الله عز اسمه ، بل كان بنقصان درجات أعمالهم ، وعجزها

عن الصعود بأرواحهم إلى مستوى الرفعة والكرامة ، لتزكيتهم إياها بالقول الباطل دون الفعل ، فلم تصل بهم نفوسهم إلى مراتب الفوز والفلاح .

وفى الآية موضعان من العبرة :

١) أن الله يجزى عامل الخير بعمله ولو مشركا ، لأن لعمله أثرا فى نفسه يكون مناط الجزاء ، فيخفف عذابه عن عذاب غيره كما ورد فى الأحاديث ، أن بعض المشركين يخفف عنهم العذاب بعمل لهم ، فحاتم الطائى بكرمه ، وأبو طالب بكفالته النبي صلى الله عليه وسلم ونصره إياه ، وأبو لهب لعتقه جاريته ثويبة حين بشرته بمولد النبي صلى الله عليه وسلم .

٢) أن يحذر المسلمون الغرور بدينهم كما كان أهل الكتاب فى عصر التنزيل وما قبله ، وأن يبتعدوا عن تزكية أنفسهم بالقول ، واحتقار من عداهم من المشركين، وأن يعلموا أن الله لا يحابى فى نظم الخليقة أحدا لا مسلما ولا يهوديا ولا نصرانيا ، ألا ترى أن خاتم النبيين قد شج رأسه ، وكسرت سنه ، ورُدّى فى حفرة من جرّاء تقصير عسكره فيما يجب من اتباع أمر القائد وعدم مخالفته ، وأن يهتدوا بكتاب الله وبسنته فى الأمم ، وأن يتركوا وساوس الدجالين الذين يصرفونهم عن الاهتداء بهدى كتابهم ، ويشغلونهم بما لم ينزل الله به عليهم سلطانا ، فإنه ما زال ملكهم وما ذهب عزهم إلا بتركهم لهدى دينهم ، واتباعهم لأولئك الدجالين والمشعوذين .

ثم أكد التعجيب من حالهم الذى فهم من الآية السابقة فقال :

(انظر كيف يفترون على الله الكذب) أى انظر كيف يكذبون على الله بتزكية أنفسهم وزعمهم أن الله يعاملهم معاملة خاصة بهم ، لا كما يعامل سائر عباده .

(وكفى به إثما مبينا) أى إن تزكية النفس والغرور بالدين والجنس مما يبطئ عن نافع العمل الذى يثاب عليه الناس ، وكفى بهذا إثما ظاهرا ، لأنه لا أثر له من حق ، ولا سمة عليه من صواب ، فالله لا يعامل شعبا معاملة خاصة تغاير سننه التى وضعها فى الخليقة وما مصدر هذه الدعوى إلا الغرور والجهل ، وكفى بذلك شرا مستطيرا .

أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيباً مِنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ ، وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَؤُلاَءِ أَهْدَى مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلاً (٥١) أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللهُ ، وَمَنْ يَلْعَنِ اللهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ نَصِيرًا (٥٢) أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِنَ الْمُلْكِ فَإِذًا لاَ يُؤْتُونَ النَّاسَ نَقِيرًا (٥٣) أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا آتَاهُمُ اللهُ مِنْ فَضْلِهِ ، فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ ، وَآتَيْنَاهُمْ مُلْكاً عَظِيماً (٥٤) فَمِنْهُمْ مَنْ آمَنَ بِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ صَدَّ عَنْهُ ، وَكَفَى بِجَهَنَّمَ سَعِيرًا (٥٥)

شرح المفردات

الجبت أصله الجبس وهو الردىء الذى لا خير فيه ، ويراد به هنا الأوهام والخرافات والدجل ، والطاغوت ما تكون عبادته والإيمان به سببا للطغيان والخروج من الحق من مخلوق يعبد ، ورئيس يقلد ، وهوى يتبع ، وروى عن عمر ومجاهد أنه الشيطان ، والنقير النقرة التى فى ظهر النواة ، ومنها تنبت النخلة يضرب بها المثل فى الشىء الحقير التافه ، كما يضرب المثل بالقطمير وهو القشرة الرقيقة التى على النواة بينها وبين التمرة ، والحسد تمنى زوال النعمة عن صاحبها المستحق لها ، والناس هنا محمد صلى الله عليه وسلم ومن آمن معه ، والفضل النبوة والكرامة فى الدين والدنيا ، والكتاب العلم بظاهر الشريعة ، والحكمة العلم بالأسرار المودعة فيها ، والملك العظيم ما كان لأنبياء بنى إسرائيل كداود وسليمان عليهما السلام ، وصد عن الشىء أعرض عنه ، ونار مسعرة موقدة ، ويقال أوقدت النار وأسعرتها .

المعنى الجملى

أخرج ابن إسحاق عن ابن عباس قال : كان الذين حزبوا الأحزاب من قريش وغطفان وبنى قريظة ، هم حُيَىُّ بن أخطب ، وسلاّم بن أبى الحقيق ، وأبو عمارة ، وهَوْذة بن قيس ، وباقيهم من بنى النّضير ، فلما قدموا على قريش قالوا هؤلاء أحبار اليهود وأهل العلم بالكتب الأولى ، فاسألوهم أدينكم خير أم دين محمد ؟ فسألوهم فقالوا دينكم خير من دينه ، وأنتم أهدى منه وممن اتبعه ، فأنزل الله (ألم تر إلى الذين أوتوا نصيبا من الكتاب — إلى قوله ملكا عظيما) قاله السيوطى فى لباب النقول .

وقد تكون هذه الآيات نزلت بعد غزوة الأحزاب أو فى أثنائها ، إذ نقض اليهود عهد النبى صلى الله عليه وسلم واتفقوا مع المشركين على استئصال شأفة المسلمين حتى لايظهروا عليهم ، ومن ثم فضلوهم على المؤمنين ، كما أن هذا التفضيل ربما كان عند النداء بالنفير للحرب .

الإيضاح

(ألم تر إلى الذين أوتوا نصيبا من الكتاب يؤمنون بالجبت والطاغوت ؟) أى ألم تنظر إلى حال هؤلاء الذين أوتوا نصيبا من الكتاب كيف حرموا هدايته وهداية العقل والفطرة ، وآمنوا بالدجْل والخرافات ، وصدقوا بالأصنام والأوثان ، ونصروا أهلها من المشركين على المؤمنين المصدقين بنبوة أنبيائهم والمعترفين بحقية كتبهم؟

(ويقولون للذين كفروا هؤلاء أهدى من الذين آمنوا سبيلا) أى ويقولون إن المشركين أرشد طريقة فى الدين من المؤمنين الذين اتبعوا محمدا صلى الله عليه وسلم .

قال ابن جرير : إن الله وصف الذين أوتوا نصيبا من الكتاب من اليهود بتعظيمهم غير الله بالعبادة ، والإذعان له بالطاعة فى الكفر بالله ورسوله ومعصيتهما ، وأنهم قالوا إن أهل الكفر بالله أولى بالحق من أهل الإيمان به ، وأن دين أهل التكذيب لله ورسوله أعدل وأصوب من دين أهل التصديق لله ورسوله اه .

وروى عن عكرمة أن كعب بن الأشرف انطلق إلى المشركين من كفار قريش فاستجاشهم على النبي صلى الله عليه وسلم ، وأمرهم أن يغزوه ، وقال إنا معكم نقاتله ، فقالوا إنكم أهل كتاب وهو صاحب كتاب ، ولا نأمن أن يكون هذا مكرا منكم ، فإن أردت أن تخرج معنا فاسجد لهذين الصنمين وآمن بهما ففعل ، ثم قالوا نحن أهدى أم محمد ؟ فنحن ننحر الكوماء (الناقة الضخمة السنام) ونسقى اللبن على الماء ونصل الرحم ونقرى الضيف ، ونطوف بهذا البيت ، ومحمد قطع رحمه وخرج من بلده ، فقال بل أنتم خير وأهدى .

(أولئك الذين لعنهم الله) أى أولئك الذين اقتضت سنن الله فى خلقه أن يكونوا بعيدين عن رحمته مطرودين من فضله وجوده .

(ومن يلعن الله فلن تجد له نصيرا) أى ومن يبعده الله من رحمته فلن ينصره أحد من دونه ، إذ لاسبيل لأحد إلى تغيير سننه تعالى فى خليقته ، وهو قد جعل الخذلان نصيب من يؤمنون بالجبت والطاغوت ، إذ هم قد تجاوزوا سنن الفطرة واتبعوا الخرافات والأوهام ، لأنه إنما ينصر المؤمنين باجتنابهم ذلك « وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ » .

ثم انتقل من توبيخهم على الإيمان بالجبت والطاغوت ، وتفضيلهم المشركين على المؤمنين ، إلى توبيخهم على البخل والأثرة ، وطمعهم فى أن يعود إليهم الملك فى آخر الزمان وأنه سيخرج منهم من يجدد ملكهم ودولتهم ويدعو إلى دينهم فقال :

(أم لهم نصيب من الملك) أى إنهم لاحظ لهم من الملك إذ هم فقدوه بظلمهم وطغيانهم ، وإيمانهم بالجبت والطاغوت .

(فإذا لا يؤتون الناس نقيراً) أى إنه لو كان لهم نصيب من الملك لاتبعوا طريق البخل والأثرة وحصروا منافعه فى أنفسهم فلا يعطون الناس منه نقيرا .

والخلاصة — أن اليهود ذوو أثرة وشح يشق عليهم أن ينتفع منهم غير اليهودى فإذا صار لهم ملك حرصوا على منع الناس أدنى النفع وأحقره ، ومن كانت هذه حاله

حرص أشد الحرص على ألاّ يظهر نبى من العرب يكون لأصحابه ملك يخضع لهم فيه بنو إسرائيل ، ولا تزال هذه حالهم إلى اليوم ، فإن تم لهم ما يسعون إليه من إعادة ملكهم إلى بيت المقدس وما حوله فإنهم يطردون المسلمين والنصارى من تلك الأرض المقدسة ولا يعطونهم منها نقيرا .

ولكن هل يعود الملك كما يريدون ؟ ليس فى الآية ما يثبت ذلك ولا ما ينفيه ، وإنما الذى فيها بيان طباعهم فيه لو حصل .

ثم انتقل من توبيخهم بالبخل إلى توبيخهم بالحسد فقال : (أم يحسدون الناس على ما آتاهم الله من فضله) أى إن هؤلاء يريدون أن يضيق فضل الله بعباده ، ولا يحبون أن يكون لأمة فضل أكثر مما لهم أو مثله لما استحوذ عليهم من الغرور بنسبهم وتقاليدهم مع سوء حالهم .

وهم قد رأوا أن محمدا صلى الله عليه وسلم بعد أن أعطى النبوة جعله الله كل يوم أقوى دولة وأعظم شوكة وأكثر أعوانا وأنصارا من أجل هذا حسدوه حسدا عظيما .

وبعد أن ذكر أن كثرة نعمه عليه صارت سببا لحسد هؤلاء اليهود بين ما يدفع ذلك الحسد فقال :

(فقد آتينا آل إبراهيم الكتاب والحكمة وآتيناهم ملكا عظيما) أى إن يحسدوا محمدا على ما أوتى فقد أخطئوا إذ ليس هذا ببدع منا لأنا قد آتينا مثل هذا من قبل لآل إبراهيم والعرب منهم فإنهم من ذرية ولده إسماعيل ، فلم تعجبوا مما آتى آل إبراهيم وتعجبون مما آتى محمدا صلى الله عليه وسلم ؟ ولم لا يكون مستبعدا فى حق هؤلاء ومستبعدا فى حق محمد صلى الله عليه وسلم ؟ وفى الآية رمز إلى أنه سيكون للمسلمين ملك عظيم يتبع النبوة والحكمة ، وقد ظهرت تباشيره عند نزول الآيات بالمدينة فقد قويت شوكتهم وأخذ أمرهم يعظم رويدا رويدا .

والخلاصة — أن اليهود إما مغرورون مخدوعون يظنون أن فضل الله لا يعدوهم ورحمته تضيق بغيرهم ، وإما حاسبون أن ملك الكون فى أيديهم فهم لا يعطون

أحدا منه ولو حقيرا كالنقير ، و إما حاسدون للعرب على ما أعطاهم الله من الكتاب والحكمة والملك الذى ظهرت مبادئه ومقدماته .

(فمنهم من آمن به ومنهم من صدّ عنه) قوله به أى بمن تقدم من الأنبياء كابراهيم وآله ، أى إن أولئك الأنبياء مع ما اختصوا به من النبوة والملك لم تؤمن أممهم جميعا بهم بل منهم من آمن بهم ومنهم من بقى على كفره ، فلا تعجب أيها الرسول مما عليه قومك ، فإن هذه حال جميع الأمم مع أنبيائهم .

وفى هذا تسلية للنبى صلى الله عليه وسلم ليكون أشد صبرا على مايناله من قبلهم من الأذى والجحود والإنكار « فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ عَلَى آثَارِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفاً » .

(وكفى بجهنم سعيرا) أى إن انصرف عنهم بعض العذاب فى الدنيا فكفاهم ما أعد لهم من سعير جهنم فى العقبى ، لأنهم آثروا اتباع الباطل والعمل بما يزينه لهم على اتباع الحق، ولا يزال ذلك دأبهم حتى يرديهم فى دار الشقاء والنكال وهى جهنم وبئس القرار .

إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ ، إِنَّ اللهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيماً (٥٦) وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ، لَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ، وَنُدْخِلُهُمْ ظِلاًّ ظَلِيلاً (٥٧)

تفسير المفردات

نصليهم نشويهم بالنار ، يقال شاة مصلية، أى مشوية ونضجت احترقت وتهرأت وتلاشت من قولهم نضج الثمر واللحم نضجا إذا أدرك ، ليذوقوا العذاب أى ليدوم لهم

ذوقه ولا ينقطع كما تقول للعزيز : أعزك الله أى أدام لك العز وزادك فيه ، العزيز القادر الغالب على أمره ، والحكيم هو المدبر للأشياء وفق الحكمة والصواب ، ومطهرة أى من العيوب والأدناس الحسية والمعنوية ، وقوله ظلا ظليلا كقولهم ليل أليل وصف للمبالغة والتأكيد فى المعنى أى ظل وارف لا يصيب صاحبه حر ولا سموم ودائم لا تنسخه الشمس ، وقد يعبر بالظل عن العزة والمتعة والرفاهية فيقال «السلطان ظل الله فى أرضه» ، ولما كانت بلاد العرب غاية فى الحرارة كان الظل عندهم أعظم أسباب الراحة ، وكان ذلك عندهم رمزا للنعيم المقيم ، والآيات الأدلة التى ترشد إلى أن هذا الدين حق ، ومن أجلّها القرآن لأنه أول الدلائل وأظهر الآيات وأوضحها ، والكفر بها يعم إنكارها والغفلة عن النظر فيها وإلقاء الشبهات والشكوك مع العلم بصحتها عنادا وحسداً ، والخلود الدوام وقد أكده بقوله أبدا ، ومطهرة أى بريئات من المعايب الجسمانية والطباع الردية .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر عز اسمه فى الآية السالفة أن ممن دعوا إلى التصديق بالأنبياء فريقا نأى وأعرض عن اتباع الحق ، ثم توعد من أعرض بسعير جهنم .

فصل هنا الوعيد بذكر أحوال الفريقين وما يلاقيه كل منهم من الجزاء يوم القيامة فقال :

الإيضاح

(إن الذين كفروا بآياتنا سوف نصليهم نارا) أى إن الله تعالى قد أعد لمن جحد بآياته التى أنزلها على أنبيائه نارا مسعرة تشويهم وتحرق أجسامهم حتى تفقدها الحس والإدراك .

(كلما نضجت جلودهم بدلناهم جلودا غيرها) أى كلما فقدت التماسك الحيوى وبعدت عن الحس والحياة بدلها جلودا أخرى حية تشعر بالألم وتحس بالعذاب .

قال الدكتور عبد العزيز إسماعيل باشا عليه سحائب الرحمة فى كتابه [الإسلام والطب الحديث] والحكمة فى تبديل جلود الكفار ، أن أعصاب الألم هى فى الطبقة الجلدية ، وأما الأنسجة والعضلات والأعضاء الداخلية فالإحساس فيها ضعيف ، ولذلك يعلم الطبيب أن الحرق البسيط الذى لايتجاوز الجلد يحدث ألما شديدا ، بخلاف الحرق الشديد الذى يتجاوز الجلد إلى الأنسجة ، لأنه مع شدته وخطره لا يحدث ألما كثيرا ، فالله يقول لنا إن النار كلما أكلت الجلد الذى فيه الأعصاب تجدده كى يستمر الألم بلا انقطاع ، ويذوقوا العذاب الأليم ، وهنا تظهر حكمة الله قبل أن يعرفها الإنسان ، وكان الله عزيزا حكيما اهـ .

(ليذوقوا العذاب) ليدوم لهم ذوق العذاب ، لأن الإحساس يصل إلى النفس بواسطة الحياة فى الجلد ، وفى هـذا إزالة لوهم ربما يعرض لبعض الناس قياسا على ما يعهدون فى أنفسهم فى الدنيا من أن الذى يتعود الألم يقل شعوره به ويصير عاديا عنده ، كما يشاهد فى كثير من الآلام والأمراض التى يطول أمدها ، وفى قوله ليذوقوا إيماء إلى أن إحساسهم بذلك العذاب يكون كاحساس الذائق المذوق لايدخل فيه نقصان ولا زوال بسبب ذلك الاحتراق .

(إن الله كان عزيزا حكيما) أى إنه تعالى عزيز قادر لا يمتنع عليه شىء مما توعد به أو وعد ، حكيم يعاقب من يعاقبه وفق الحكمة ، ومن حكمته أن ربط الأسباب بالمسبباب فلا يستطيع أحد أن يغلبه على أمره فيبطل اطرادها ، فهو كما جعل الكفر والمعاصى سببا للعذاب كما تقدم فى الآية ، جعل الإيمان والعمل الصالح سببا للنعيم وذلك ما بينه تعالى بقوله :

(والذين آمنوا وعملوا الصالحات سندخلهم جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها أبدا) أى إن الذين آمنوا بالله وصدقوا برسوله سيدخلون جنات يتمتعون بنعيمها العظيم كفاء ما أخبتوا إلى ربهم وقدموا من عمل صالح لأن الإيمان وحده

لا يكفى لتزكية النفس وإعدادها لهذا الجزاء ، بل لا بد معه من عمل صالح يشعر به المرء بالقرب من ربه والشعور بهيبته وجلال سلطانه .

(لهم فيها أزواج مطهرة) أى لهم أزواج مبرآت من العيوب الجسمانية والعيوب الخلقية ، فليس فيهن ما يوحشهم منهن ولا ما يكدر صفوهم ، وبذا تكمل سعادتهم ، ويتم سرورهم فى تلك الحياة التى لا نعرف كنهها ، وإنما نفهمها على طريق التمثيل وقياس الغائب على الشاهد .

(وندخلهم ظلا ظليلا) أى ونجعلهم فى مكان لا حر فيه ولا قر ، وفى ذلك إيماء إلى تمام النعمة والتمتع برغد العيش وكمال الرفاهية .

إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا ، وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ ، إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ ، إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا (٥٨) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ ، فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ، ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا (٥٩)

شرح المفردات

الأمانة الشىء الذى يحفظ ليؤدى إلى صاحبه ، ويسمى من يحفظها ويؤديها حفيظا وأمينا ووفيا ، ومن لا يحفظها ولا يؤديها خائنا ، والعدل إيصال الحق إلى صاحبه من أقرب الطرق إليه ، والتأويل بيان المآل والعاقبة .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر الله تعالى فى الآية السابقة الأجر العظيم للذين آمنوا وعملوا الصالحات وكان من أجلّ تلك الأعمال أداء الأمانات والحكم بالعدل بين الناس ـ لا جرم أمر بهما فى هذه الآية .

روى عن ابن عباس قال: «لما فتح رسول الله صلى الله عليه وسلم مكة دعا عثمان ابن طلحة ، فلما أتاه قال أرنى المفتاح (مفتاح الكعبة) فلما بسط يده إليه قام العباس فقال يارسول الله بأبى أنت وأمى اجمعه لى مع السقاية ، فكف عثمان يده فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم هات المفتاح ياعثمان ، فقال هاك أمانة الله ، فقام ففتح الكعبة ثم خرج فطاف بالبيت ثم نزل عليه جبريل برد المفتاح فدعا عثمان بن طلحة فأعطاه المفتاح ثم قال (إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها) حتى فرغ من الآية».

الإيضاح

(إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها) الأمانة على أنواع :

(١) أمانة العبد مع ربه ، وهى ما عهد إليه حفظه من الائتمار بما أمره به والانتهاء عما نهاه عنه ، واستعمال مشاعره وجوارحه فيما ينفعه ويقربه من ربه ، وقد ورد فى الأثر : إن المعاصى كلها خيانة لله عز وجل .

(٢) أمانة العبد مع الناس ، ومن ذلك رد الودائع إلى أربابها وعدم الغش وحفظ السر ونحو ذلك مما يجب للأهل والأقربين وعامة الناس والحكام .

ويدخل فى ذلك عدل الأمراء مع الرعية وعدل العلماء مع العوام بأن يرشدوهم إلى اعتقادات وأعمال تنفعهم فى دنياهم وأخراهم من أمور التربية الحسنة وكسب الحلال ، ومن المواعظ والأحكام التى تقوى إيمانهم وتنقذهم من الشرور والآثام وترغبهم فى الخير والإحسان ، وعدل الرجل مع زوجه بألا يفشى أحد الزوجين سرا للآخر ولا سيما السر الذى يختص بهما ولا يطلع عليه عادة سواهما .

(٣) أمانة الإنسان مع نفسه ، بألا يختار لنفسه إلا ماهو الأصلح والأنفع له فى الدين والدنيا ، وألا يقدم على عمل يضره فى آخرته أو دنياه ، ويتوقى أسباب الأمراض والأوبئة بقدر معرفته وما يعرف من الأطباء ، وذلك يحتاج إلى معرفة علم الصحة ولا سيما فى أوقات انتشار الأمراض والأوبئة .

(وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل) أمر الله بالعدل فى آيات كثيرة منها هـذه الآية ، ومنها « اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى » وقوله « كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ » والحكم بين الناس له طرق: منها الولاية العامة والقضاء وتحكيم المتخاصمين لشخص فى قضية خاصة . والحكم بالعدل يحتاج إلى أمور :

(١) فهم الدعوى من المدعى والجواب من المدعى عليه ليعرف موضوع التنازع والتخاصم بأدلته من الخصمين .

(٢) خلو الحاكم من التحيز والميل إلى أحد الخصمين .

(٣) معرفة الحاكم الحكم الذى شرعه الله ليفصل بين الناس على مثاله من الكتاب أو السنة أو إجماع الأمة وقد ورد الأمر بالعدل فى كثير من الآيات والأحاديث كقوله تعالى « إِنَّ اللهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ » وقوله « فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ » .

(٤) تولية القادرين على القيام بأعباء الأحكام .

وقد أمر المسلمون بالعدل فى الأحكام والأقوال والأفعال والأخلاق، قال تعالى « وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى » .

(إن الله نعما يعظكم به) أى نعم الشىء الذى يعظكم به : أداء الأمانات والحكم بالعدل بين الناس ، إذ لايعظكم إلا بما فيه صلاحكم وفلاحكم وسعادتكم فى الدارين .

(إن الله كان سميعا بصيرا) أى عليكم أن تعملوا بأمر الله ووعظه فإنه أعلم بالمسموعات والمبصرات ، فإذا حكمتم بالعدل فهو سميع لذلك الحكم ، وإن أديتم الأمانة فهو بصير بذلك .

وفى هذا وعد عظيم للمطيع ، ووعيد شديد للعاصى ، وإلى ذلك الإشارة بقوله عليه السلام « اعبد الله كأنك تراه ، فإن لم تكن تراه فإنه يراك » وفيه أيضا إيماء إلى الاهتمام بحكم القضاة والولاة لأنه قد فوض إليهم النظر فى مصالح العباد .

وبعد أن أمر سبحانه برد الأمانات إلى أهلها ، وبالحكم بين الناس بالعدل مخاطبا بذلك جمهور الأمة ، أمر بطاعة الله والرسول وطاعة أولى الأمر إذ لا تقوم المصالح العامة إلا بذلك ، فقال :

(يأيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم) أى أطيعوا الله واعملوا بكتابه وأطيعوا الرسول لأنه يبين للناس مانزل إليهم ، فقد جرت سنة الله بأن يبلغ عنه شرعه رسل منهم تكفل بعصمتهم وأوجب علينا طاعتهم .

وأطيعوا أولى الأمر وهم الأمراء والحكام والعلماء ورؤساء الجند وسائر الرؤساء والزعماء الذين يرجع إليهم الناس فى الحاجات والمصالح العامة ، فهؤلاء إذا اتفقوا على أمر أو حكم وجب أن يطاعوا فيه بشرط أن يكونوا أمناء وألا يخالفوا أمر الله ولا سنة رسوله التى عرفت بالتواتر ، وأن يكونوا مختارين فى بحثهم فى الأمر واتفاقهم عليه .

وأما العبادات وما كان من قبيل الاعتقاد الدينى فلا يتعلق به أمر أهل الحل والعقد ، بل إنما يؤخذ عن الله ورسوله فحسب ، وليس لأحد رأى فيه إلا ما يكون فى فهمه .

فأهل الحل والعقد من المؤمنين إذا أجمعوا على أمر من مصالح الأمة ليس فيه نص عن الشارع وكانوا مختارين فى ذلك غير مكرهين بقوة أحد ولا نفوذه فطاعتهم واجبة كما فعل عمر حين استشار أهل الرأى من الصحابة فى الديوان الذى أنشأه وفى غيره من المصالح التى أحدثها برأى أولى الأمر من الصحابة ولم تكن فى زمن النبى صلى الله عليه وسلم ولم يعترض عليه أحد من علمائهم فى ذلك .

(فإن تنازعتم فى شىء فردوه إلى الله والرسول) أى فإذا لم يوجد نص على الحكم فى الكتاب ولا فى السنة ينظر أولو الأمر فيه لأنهم هم الذين يوثق بهم فإذا اتفقوا وأجمعوا وجب العمل بما أجمعوا عليه ، وإن اختلفوا وتنازعوا وجب عرض ذلك على الكتاب والسنة وما فيهما من القواعد العامة ، فما كان موافقا لهما علم أنه صالح لنا ووجب الأخذ به ، وما كان مخالفا لهما علم أنه غير صالح ووجب تركه ،

وبذا يزول التنازع وتجتمع الـكلمة ، وهذا الرد واستنباط الفصل فى الخلاف من القواعد هو الذى يعبر عنه بالقياس ، والأول هو الاجماع الذى يعتد به .

ومما تقدم تعلم أن الآية مبينة لأصول الدين فى الحكومة الإسلامية ، وهى :

(١) الأصل الأول القرآن الـكريم ، والعمل به هو طاعة الله تعالى.

(٢) الأصل الثانى سنة رسوله صلى الله عليه وسلم ، والعمل به طاعة الرسول صلى الله عليه وسلم .

(٣) الأصل الثالث إجماع أولى الأمر وهم أهل الحل والعقد الذين تثق بهم الأمة من العلماء والرؤساء فى الجيش والمصالح العامة كالتجار والصناع والزراع ، ورؤساء العمال والأحزاب ومديرى الصحف ورؤساء تحريرها ـ وطاعتهم حينئذ هى طاعة أولى الأمر .

(٤) الأصل الرابع عرض المسائل المتنازع فيها على القواعد والأحكام العامة المعلومة فى الـكتاب والسنة ، وذلك قوله: فإن تنازعتم فى شىء فردوه إلى الله والرسول .

فهذه الأربعة الأصول هى مصادر الشريعة ، ولا بد من وجود جماعة يقومون بعرض المسائل المتنازع فيها على الـكتاب والسنة ممن يختارهم أولو الأمر من علماء هذا الشأن .

ويجب على الحكام الحكم بما يقرّونه ، وبذلك تكون الدولة الإسلامية مؤلفة من جماعتين ، الأولى الجماعة المبينة للأحكام الذين يسمون الآن (الهيئة التشريعية) والجماعة الثانية جماعة الحاكمين والمنفذين وهم الذين يسمون (الهيئة التنفيذية) .

وعلى الأمة أن تقبل هذه الأحكام وتخضع لها سرا وجهرا ، وهى بذلك لا تكون خاضعة لأحد من البشر ، لأنها لم تعمل إلا بحكم الله تعالى أو حكم رسوله صلى الله عليه وسلم بإذنه ، أو حكم نفسها الذى استنبطه لها جماعة أهل الحل والعقد والعلم والخبرة من أفرادها الذين وثقت بإخلاصهم وعدم اتفاقهم إلا على ما هو الأصلح لها .

(إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر) أى ردوا الشئ المتنازع فيه إلى الله ورسوله بعرضه على الكتاب والسنة إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ، فإن المؤمن لا يقدم شيئا على حكم الله ، كما أنه يهتم باليوم الآخر أشد من اهتمامه بحظوظ الدنيا.

وفى هذا دليل على أن من لا يقدم اتباع الكتاب والسنة على أهوائه وحظوظه فإنه لا يكون مؤمنا حقا .

(ذلك خير وأحسن تأويلا) أى ذلك الرد للشئ المتنازع فيه إلى الله ورسوله خير لكم، لأنه أقوى الأسس فى حكومتكم ، والله أعلم منكم بما هو الخير لكم ، ومن ثم لم يشرع لكم فى كتابه وعلى لسان رسوله إلا ما فيه مصالحكم ومنافعكم وما هو أحسن عاقبة لما فيه من قطع عرق التنازع وسد ذرائع الفتن .

أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ ، وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا (٦٠) وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنْكَ صُدُودًا (٦١) فَكَيْفَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَاءُوكَ يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا إِحْسَانًا وَتَوْفِيقًا (٦٢) أُولَئِكَ الَّذِينَ يَعْلَمُ اللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُلْ لَهُمْ فِي أَنْفُسِهِمْ قَوْلًا بَلِيغًا (٦٣)

شرح المفردات

الزعم فى أصل اللغة القول حقا كان أو باطلا ثم كثر استعماله فى الكذب ، قال الراغب : الزعم حكاية قول يكون مظنة للكذب ، وقد جاء فى القرآن فى كل موضع

ذم القائلين به كقوله «زَعَمَ الذِينَ كَفَرُوا أَنْ لَنْ يُبْعَثُوا قُلْ بَلَى وَرَبِّى لَتُبْعَثُنَّ» وقوله « قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِهِ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنْكُمْ وَلَا تَحْوِيلاً » والطاغوت بمعنى الطغيان الكثير ، ضلالا بعيدا أى بعيدا صاحبه عن الحق إذ هو لا يهتدى إلى الطريق الموصلة إليه ، صدودا أى إعراضا متعمدا عن قبول حكمك ، إحسانا أى فى المعاملة بين الخصوم ، وتوفيقا بينهم و بين خصومهم بالصلح ، فأعرض عنهم أى اصرف وجهك عنهم ، وعظهم أى ذكرهم بالخير على الوجه الذى ترقّ له قلوبهم ، قولا بليغا أى يبلغ من نفوسهم الأثر الذى تريد أن تحدثه فيها .

المعنى الجملى

بعد أن أوجب الله تعالى فى الآية السالفة على جميع المؤمنين طاعة الله وطاعة الرسول ذكر فى هذه الآية أن المنافقين والذين فى قلوبهم مرض لا يطيعون الرسول ولا يرضون بحكمه بل يريدون حكم غيره . أخرج الطبرانى عن ابن عباس قال « كان أبو برزة الأسلمى كاهنا يقضى بين اليهود فيما يتنافرون فيه فتنافر إليه ناس من المسلمين فأنزل الله تعالى : ألم تر إلى الذين يزعمون أنهم آمنوا ـ إلى قوله ـ إلا إحسانا وتوفيقا » .

وأخرج ابن جرير عن الشعبى قال : كان بين رجل من اليهود ورجل من المنافقين خصومة فقال اليهودى أحاكمك إلى أهل دينك أو قال إلى النبى لأنه قد علم أنه لا يأخذ الرشوة فى الحكم فاختلفا ثم اتفقا على أن يأتيا كاهنا فى جهينة فنزلت .

الإيضاح

(ألم تر إلى الذين يزعمون أنهم آمنوا بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك يريدون أن يتحاكموا إلى الطاغوت وقد أمروا أن يكفروا به) أى انظر إلى عجيب أمر هؤلاء الذين يزعمون أنهم آمنوا بك وآمنوا بمن قبلك من الأنبياء ويأتون بما ينافى الإيمان ، إذ الإيمان الصحيح بكتب الله ورسله يقتضى العمل بما شرعه الله على ألسنة أولئك

الرسل ، وترك العمل مع الاستطاعة دليل على أن الإيمان غير راسخ فى نفس مدعيه ، فكيف إذا عمل بضد ما شرعه الله ، فهؤلاء المنافقون إذ هربوا من التحاكم إليك وقبلوا التحاكم إلى مصدر الطغيان والضلال من أولئك الكهنة والمشعوذين - سواء أكان أبابرزة الأسلمى أم كعب بن الأشرف - دليل على أن الإيمان ليس له أثر فى نفوسهم بل هى كلمات يقولونها بأفواههم لا تعبر عما تلجلج فى صدورهم ، وكيف يزعمون الإيمان بك وكتابك المنزل عليك يأمرهم بالكفر بالجبت والطاغوت فى نحو قوله « وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولاً أَنِ اعْبُدُوا اللهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ » وقوله « فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى » وهم يتحاكمون إليه ؟ فألسنتهم تدعى الإيمان بالله وبما أنزله على رسله وتدل أفعالهم على كفرهم بالله وإيمانهم بالطاغوت وإيثارهم لحكمه .

ويدخل فى هؤلاء كل من يتحاكم إلى الدجالين كالعرافين وأصحاب المندل والرمل ومدعى الكشف والولاية، وفى الآية إيماء إلى أن من رد شيئا من أوامر الله أو أوامر الرسول صلى الله عليه وسلم فهو خارج من الإسلام ، سواء رده من جهة الشك أو من جهة التمرد ، ومن أجل هذا حكم الصحابة بردة الذين منعوا الزكاة وقتلهم وسبى ذراريهم .

(ويريد الشيطان أن يضلهم ضلالا بعيدا) أى يريد الشيطان أن يجعل بينهم وبين الحق مسافة بعيدة، فهم لشدة بعدهم عن الحق لا يهتدون إلى الطريق الموصلة إليه .

والخلاصة — أن الواجب على المسلمين ألا يقبلوا قول أحد ولا يعملوا برأيه فى شىء له حكم فى كتاب الله أو سنة رسوله ، وما لا حكم له فيهما فالعمل فيه برأى أولى الأمر ، لأنه أقرب إلى المصلحة .

(وإذا قيل لهم تعالوا إلى ما أنزل الله وإلى الرسول رأيت المنافقين يصدون عنك صدودا) أى وإذا قيل لأولئك الزاعمين للايمان الذين يريدون التحاكم إلى الطاغوت تعالوا إلى ما أنزل الله فى القرآن لنعمل به ونحكمه فيما بيننا ، وإلى الرسول ليحكم بيننا

بما أراه الله ، رأيتهم يعرضون عنك ويرغبون عن حكمك إعراضا متعمدا منهم ، وهذه الآية مؤكدة لما دلت عليه الآية التى قبلها من نفاق هؤلاء الذين يرغبون عن حكم الله وحكم رسوله إلى حكم الطاغوت من أصحاب الأهواء ، لأن حكم الرسول لا يكون إلا حقا متى بينت الدعوى على وجهها ؛ وأما حكم غيره بشريعته فقد يقع فيه الخطأ بجهل القاضى بالحكم ، أو بجهل تطبيقه على الدعوى .

وهى أيضا دالة على أن من أعرض عن حكم الله متعمدا ، ولاسيما بعد دعوته إليه وتذكيره به ، فإنه يكون منافقا لايعتقد ما يزعمه من الإيمان ، ولا ما يدعيه من الإسلام .

(فكيف إذا أصابتهم مصيبة بما قدمت أيديهم ثم جاءوك يحلفون بالله إن أردنا إلا إحسانا وتوفيقا) أى فكيف يفعلون إذا أطلعك الله على شأنهم فى إعراضهم عن حكم الله وعن التحاكم إليك ، وتبين أن عملهم يكذب دعواهم ، وأن تلك الحال التى اختاروا فيها التحاكم إلى غير الرسول لاتدوم لهم ، وأنه يوشك أن يقعوا فى مصاب بسبب ما قدمت أيديهم من هــذه الأعمال وأمثالها ثم اضطروا إلى الرجوع إليك لتكشفه عنهم واعتذروا عن صدودهم بأنهم ما كانوا يريدون بالتحاكم إلى غير الرسول إلا إحسانا فى المعاملة وتوفيقا بينهم وبين خصومهم بالصلح أو بالجمع بين منفعة الخصمين ويحلفون بالله على ذلك وهم مخادعون .

وفى الآية وعيد شديد لهم على ما فعلوا وأنهم سيندمون حين لاينفعهم الندم ويعتذرون ولا يغنى عنهم الاعتذار .

(أولئك الذين يعلم الله ما فى قلوبهم) هذا أسلوب يستعمل فيما يعظم من خير أو شر، مسرة أو حزن ، فيقول الرجل لمن يحبه ويحفظ وده : الله يعلم مافى نفسى لك ، أى إنه لكثرته وقوته لايقدر على معرفته إلا الله تعالى، ويقول فى العدو الماكر المخادع: الله يعلم ما فى قلبه ، أى إن ما فى قلبه من الخبث والخديعة بلغ حدا كبيرا لايعلمه إلا علام الغيوب .

أى إن ما فى قلوبهم من الكفر والحقد والكيد وتربص الدوائر بالمؤمنين بلغ من الفظاعة مقداراً لايحيط به إلا من يعلم السر وأخفى .

(فأعرض عنهم وعظهم وقل لهم فى أنفسهم قولا بليغا) طلب إليه سبحانه أن يعاملهم بثلاثة أشياء .

(١) الإعراض عنهم وعدم الإقبال عليهم بالبشاشة والتكريم ، إذ هذا يحدث فى نفوسهم الهواجس والخوف من سوء العاقبة ، وهم لم يكونوا على يقين من أسباب كفرهم ونفاقهم وكانوا يحذرون أن تنزل عليه سورة تنبئهم بما فى قلوبهم ، وإذا استمر هـذا الإعراض عنهم ظنوا الظنون وقالوا لعله عرف ما فى نفوسنا ، لعله يريد أن يؤاخذنا بما فى بواطننا .

(٢) النصح والتذكير بالخير على وجه ترق له قلوبهم ويبعثهم على التأمل فيما يلقى إليهم من العظات والزواجر .

(٣) القول البليغ المؤثر فى النفس الذى يغتمون به ويستشعرون منه الخوف بأن يتوعدهم بالقتل والاستئصال إن نجم منهم النفاق ، ويخبرهم بأن ما فى نفوسهم من مكنونات الشر والنفاق غير خاف على العليم بالسر والنجوى ، وأنه لافرق بينهم وبين الكفار ، وإنما رفع الله عنهم السيف لأنهم أظهروا الإيمان وأسروا الكفر وأضمروه ، فإن فعلوا ما ينكشف به غطاؤهم لم يبق إلا السيف ، وفى الآية شهادة للنبى صلى الله عليه وسلم بالقدرة على بليغ الكلام وتفويض أمر الوعظ والقول البليغ إليه ، لأن لكل مقام مقالا والكلام يختلف تأثيره باختلاف أفهام المخاطبين ، كما أن فيها شهادة له بالحكمة ووضع الكلام فى مواضعه ، وهذا نحو ما وصف الله به نبيه داود « وَآتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ وَفَصْلَ الْخِطَابِ » .

قال القاضى عياض فى كتابه [الشفاء] فى وصف بلاغته صلى الله عليه وسلم :

وأما فصاحة اللسان وبلاغة القول فقد كان صلى الله عليه وسلم من ذلك بالمحل الأرفع ، والموضع الذى لايجهل ، قد أوتى جوامع الكلم وخص ببدائع الحكم ، وعلم

ألسنة العرب ، يخاطب كل أمة بلسانها ، ويحاورها بلغتها ... حتى كان كثير من أصحابه يسألونه فى غير موضع عن شرح كلامه وتفسير قوله ... وليس كلامه مع قريش والأنصار وأهل الحجاز ونجد ككلامه مع ذى المشار الهمدانى وطهفة النّهدى والأشعث بن قيس ووائل بن حجَر الكندى وغيرهم من أقيال حضرموت وملوك اليمن .

وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلاَّ لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللهِ ، وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللهَ تَوَّابًا رَحِيماً (٦٤) فَلاَ وَرَبِّكَ لاَيُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيماَ شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لاَيَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيماً (٦٥)

شرح المفردات

إذن الله إعلامه الذى نطق به وحيه وطرق آذانكم ـ كقوله: أطيعوا الله وأطيعوا الرسول ـ استغفروا الله أى طلبوا مغفرته وندموا على ما فعلوا ، واستغفر لهم الرسول أى دعا الله أن يغفر لهم ؛ يحكموك يجعلوك حكما و يفوضوا الأمر إليك ، وشجر اختلف واختلط الأمر فيه ، مأخوذ من التفاف الشجر ، فإن الشجر تتداخل بعض أغصانه فى بعض ، حرجا ضيقا ، قضيت حكمت ، التسليم الانقياد والإذعان .

المعنى الجملى

بعد أن أوجب سبحانه فيما سلف طاعة الله وطاعة الرسول وشنع على من رغب عن التحاكم إلى الرسول وآثر عليه التحاكم إلى الطاغوت ـ ذكر هنا ما هو كالدليل على استحقاق الرسول للطاعة ، وعلى استحقاق المنافقين الذين لم يقبلوا التحاكم للمقت والخذلان ، لأنهم لم يرضوا بحكم الرسول صلى الله عليه وسلم .

الإيضاح

(وما أرسلنا من رسول إلا ليطاع بإذن الله) أى إن سنتنا فى هـذا الرسول كسنتنا فى الرسل قبله ، فما نرسلهم إلا ليطاعوا بإذن الله ، فمن خرج عن طاعتهم أو رغب عن حكمهم خرج عن حكمنا وسنتنا وارتكب أكبر الآثام .

وجىء بقوله : بإذن الله ، لبيان أن الطاعة الذاتية لا تكون إلا لله رب العالمين لـكنه قد أمر أن تطاع رسله فطاعتهم واجبة بإذنه وإيجابه .

(ولو أنهم إذ ظلموا أنفسهم جاءوك فاستغفروا الله واستغفر لهم الرسول لوجدوا الله توابا رحيما) أى ولو أن أولئك القوم حين ظلموا أنفسهم ورغبوا عن حكمك إلى حكم الطاغوت ـ جاءوك فاستغفروا الله من ذنبهم وندموا على ما فرط منهم وتابوا توبة نصوحا ودعا لهم الرسول بالمغفرة لتقبل الله توبتهم وغمرهم بإحسانه ، فرحمته وسعت كل شىء .

وإنما قرن استغفار الرسول باستغفار الله ، لأن ذنبهم لم يكن ظلما لأنفسهم فحسب ، بل تعدى إلى إيذاء الرسول من حيث إنهم أعرضوا عن حكمه وهو صاحب الحق فى الحـكم وحده ، فكان لابد فى توبتهم وندمهم على ما فرط منهم أن يظهروا ذلك للرسول ليصفح عنهم لأنهم اعتدوا على حقه ، وليدعو لهم بالمغفرة إذ أعرضوا عن حكمه .

وفى الآية إيماء إلى أن التوبة الصحيحة تقبل حتما إذا استكملت شرائطها ، ومنها أن تكون عقب الذنب مباشرة ، وقد سمى الله ترك طاعة الرسول ظلما للأنفس ، أى إفساداً لها لأن الرسول هو الهادى إلى مصالح الناس فى الدنيا والأخرى ، وهذا الظلم شامل للاعتداء والبغى والتحاكم إلى الطاغوت وغير ذلك .

والاستغفار لا يكون مقبولا إلا إذا ناجى العبد ربه عازما على اجتناب الذنب وعدم العودة إليه مع الصدق والإخلاص لله فى ذلك ـ أما الاستغفار باللسان عقب

الذنب دون أن يوجد هذا التوجه بالقلب فلا يكون استغفارا معتدًّا به عند الله، إذ لابد أن يشعر القلب أوّلا بألم المعصية وسوء مغبتها، وبالحاجة إلى التزكى من دنسها، مع العزم القوىّ على اجتناب هذا الدنس، ومتى أخلص الداعى أجاب الله دعاءه بإعطائه ما طلب أو بغيره من الأجر والثواب.

(فلا وربك لايؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لايجدوا فى أنفسهم حرجا مما قضيت ويسلموا تسليما) أقسم الله تعالى بأن أولئك الذين رغبوا عن التحاكم إلى الرسول صلى الله عليه وسلم ومن ماثلهم من المنافقين، لايؤمنون إيمانا حقا وهو إيمان الإذعان والانقياد إلا إذا كملت لهم ثلاث خصال:

(١) أن يحكّموا الرسول فى القضايا التى يختصمون فيها ويشتجرون ولا يتبين لهم وجه الحق فيها.

(٢) ألا يجدوا حرجا وضيقا فيما يحكم به أى أن تذعن نفوسهم لقضائه وحكمه فيما شجر بينهم بلا امتعاض من قبوله والعمل به، إذ المؤمن الكامل ينشرح صدره لحكم الرسول لأول وهلة لأنه الحق وأن الخير والسعادة فى الإذعان له.

(٣) الانقياد والتسليم لذلك الحكم، فكثيرا ما يعرف الشخص أن الحكم حق لكنه يتمرد عن قبوله عنادا أو يتردد فى ذلك.

وفى هذه الآية إشارة إلى شيئين:

(١) عصمة النبى صلى الله عليه وسلم بمعنى أنه لايحكم إلا بالحق المطابق لصورة الدعوى وظاهرها لابحسب الواقع فى نفسه، إذ الحكم فى شريعته على الظاهر، والله يتولى السرائر، وقد قال صلى الله عليه وسلم «إنما أنا بشر وإنكم تختصمون إلىّ فلعل بعضكم أن يكون ألحن بحجته من بعض، فمن قضيت له بحق مسلم فإنما هى قطعة من النار فليأخذها أو ليتركها» رواه البخارى ومسلم وأصحاب السنن، ومن ثم كانوا يسألونه

إذا أمر بأمر لم يظهر لهم أنه الرأى ، أعن وحى هو أم عن رأى ، فإن كان عن وحى أطاعوا وسلموا ، وإن كان عن رأى ذكروا ما عندهم وربما يرجع إليهم كما حدث يوم بدر .

(٢) أنهم لا يكونون مؤمنين إيمانا صحيحا مستحقا للفوز بالثواب والنجاة من العقاب إلا إذا كانوا موقنين بقلوبهم مذعنين فى بواطنهم بصدق الرسول فى كل ما جاء به الدين .

ومن أمارة ذلك أن يحكموه فيما شجر بينهم من خلاف ، وألا يجدوا ضيقا وحرجا فى حكمه ، إذ الضيق إنما يلازم قلب من لم يخضع ، وأن ينقادوا انقيادا كاملا بلا تمرد ولا عناد فى قبوله .

وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ اقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ أَوِ اخْرُجُوا مِنْ دِيَارِكُمْ مَا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِنْهُمْ ، وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا (٦٦) وَإِذًا لَآتَيْنَاهُمْ مِنْ لَدُنَّا أَجْرًا عَظِيمًا (٦٧) وَلَهَدَيْنَاهُمْ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا (٦٨)

شرح المفردات

كتبنا أى فرضنا ، ما يوعظون به : أى من الأوامر والنواهى المقرونة بذكر حكمها وأحكامها والوعد لمن عمل بها والوعيد لمن صدّ عنها ، والتثبت التقوية وجعل الشيء ثابتا راسخا .

المعنى الجملى

بعد أن بين عز اسمه فيما سلف أن الإيمان لا يتم إلا بتحكيم الرسول فيما شجر بينهم من خلاف مع التسليم والانقياد لحكمه ـ ذكر هنا قصور كثير من الناس فى ذلك لوهن إسلامهم وضعف إيمانهم .

الإيضاح

(ولو أنا كتبنا عليهم أن اقتلوا أنفسكم أو اخرجوا من دياركم ما فعلوه إلا قليل منهم) أن اقتلوا أنفسكم أى اقتلوها ، ببخع النفس (الانتحار) - كما أمر بنو إسرائيل بذلك ليتوبوا من عبادة العجل ، وقوله أو اخرجوا من دياركم بالهجرة إلى بلاد أخرى، وقوله ما فعلوه أى المأمور به من القتل والهجرة من الوطن .

بين الله لنا فى هذه الآية أن صادق الإيمان هو الذى يطيع الله فى كل ما يأمر به فى السهل والصعب والمحبوب والمكروه ، ولو كان ذلك بقتل النفس والخروج من الديار (الجسم دار الروح والوطن دار الجسم) أما المنافق فيعبد الله على ما يوافق هواه وشهواته ، فإن أصابه خير اطمأن به ورضى ، وإن ناله أذى انقلب على وجهه وارتد على عقبه وباء بالخسران فى الدنيا والآخرة .

(ولو أنهم فعلوا ما يوعظون به لكان خيرا لهم وأشد تثبيتا) أى ولو أنهم فعلوا ما أمروا به وتركوا مانهوا عنه لكان ذلك خيرا لهم فى مصالحهم وأشد تثبيتا لهم فى إيمانهم إذ الأعمال هى التى تطبع الأخلاق والفضائل فى نفس العامل وتبدد الأوهام والمخاوف من نفسه ، فبذل المال مثلا آية من آيات الإيمان وقربة من أعظم القرب ، فمن فعله كان مؤمنا إيمانا صادقا ، ومن آمن بذلك ولم يفعله كان علمه بمنافعه ومزاياه له وللأمة والدين علما ناقصا ، فكلما دعا الداعى إلى البذل طاف به طائف البخل والإمساك ، وعرض له شبح الفقر والإملاق، أو نقصان المال عن مال بعض الأقران ، لكنه إذا اعتدل البذل صار السخاء خلقا له وسجية ، وقلما امتنع عن فعله حين تدعو الحاجة إليه ، إذ الطاعة تدعو إلى مثلها ، فالمرء يطلب الخير أولا حتى إذا حصّله طلب أن يكون الحاصل ثابتا قويا .

(وإذا لآتيناهم من لدنا أجرا عظيما، ولهديناهم صراطا مستقيما) أى لو أنهم فعلوا هذا الخير العظيم وامتثلوا ما أمروا به وأخلصوا العمل لأعطيناهم الثواب العظيم من

عندنا ، وكيف لا يكون عظيما وقد وصفه النبى صلى الله عليه وسلم بقوله « فيها مالاعين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر » ولهديناهم إلى طريق العمل الصالح على الوجه المرضى الموصل إلى الفوز بالسعادة فى الدنيا والآخرة ، وهو صراط الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصدّيقين .

وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقاً (٦٩) ذَلِكَ الْفَضْلُ مِنَ اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ عَلِيماً (٧٠)

شرح المفردات

الصدّيق من غلب عليه الصدق ، وقيل من صدق فى قوله واعتقاده كما قال (واذكر فى الكتاب إدريس إنه كان صديقا نبيا) والشهيد هو الذى يشهد بصحة الدين تارة بالحجة والبرهان ، وأخرى بالسيف والسنان ، والصالح من صلحت نفسه وصلح عمله وغلبت حسناته سيئاته .

المعنى الجملى

بعد أن أمر سبحانه بطاعته وطاعة الرسول ، ثم شنع على الذين تحاكموا إلى الطاغوت ، وصدوا عن الرسول ثم رغب فى تلك الطاعة بقوله : لكان خيرا لهم وأشد تثبيتا ــ حث على الطاعة وشوق إليها بذكر مزاياها و بيان حسن عواقبها وأنها منتهى ما تصل إليه الهمم ، وأرفع ما تشرئب إليه الأعناق .

الإيضاح

(ومن يطع الله والرسول فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين) أى إن كل من يطع الله ورسوله على الوجه المبين فى الآيات

السالفة ويفعل الأوامر ويترك النواهى يكون يوم القيامة مرافقا لأقرب عباد الله وأرفعهم درجات عنه ، وهم الأصناف الأربعة الذين ذكروا فى الآية وهم صفوة الله من عباده وقد وجدوا فى كل أمة ، ومن أطاع الله ورسوله من هذه الأمة كان منهم وحشر يوم القيامة معهم .

(وحسن أولئك رفيقا) أى إن الأنبياء والصديقين والشهداء والصالحين يكونون كالرفقاء له من شدة محبتهم إياه وسرورهم برؤيته .

روى الطبرانى وابن مردويه عن عائشة قالت « جاء رجل إلى النبى صلى الله عليه وسلم فقال يا رسول الله إنك لأحب إلىّ من نفسى ، وإنك لأحب إلىّ من ولدى ، وإنى لأكون فى البيت فأذكرك فما أصبر حتى آتى فانظر إليك ، وإذا ذكرت موتى وموتك عرفت أنك إذا دخلت الجنة رفعت مع النبيين ، وإنى إذا دخلت الجنة خشيت ألا أراك ، فلم يرد النبى صلى الله عليه وسلم شيئا حتى نزل جبريل بهذه الآية (ومن يطع الله والرسول) الآية » .

وأخرج ابن أبى حاتم عن مسروق أن سبب نزولها قول الصحابة : يارسول الله ما ينبغى لنا أن نفارقك فى الدنيا فإنك إذا فارقتنا رفعت فوقنا ولم نرك . وقال الكلبى إن ثوبان مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم كان شديد الحب له قليل الصبر عنه، وقد نحل جسمه وتغير لونه ، خوف عدم رؤيته صلى الله عليه وسلم بعد الموت فذكر ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأنزل الله تعالى هذه الآية .

ويؤيد هذه الروايات ما رواه الطبرانى مرفوعا « من أحب قوما حشره الله معهم » وما أخرجه الشيخان عن أنس « المرء مع من أحب » وآية المحبة الطاعة كما قال تعالى « قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ » .

(ذلك الفضل من الله) أى إن هـــذا الذى ذكر من الجزاء لمن يطيع الله والرسول ــ هو الفضل الذى لا يعلوه فضل ، فإن السموّ إلى إحدى تلك المنازل

فى الدنيا ومرافقة أهلها فى الآخرة هو منتهى ما يأمله المرء من السعادة ، وبه يتفاضل الناس فيفضل بعضهم بعضا .

(وكفى بالله عليما) أى كفى به سبحانه عليما بالعصاة والمطيعين والمنافقين والمخلصين ومن يصلح لمرافقة هؤلاء ومن لا يصلح ، فهو لا يعزب عن علمه مثقال ذرة فى الأرض ولا فى السماء .

وليحذر المنافقون المراءون لعلهم يتذكرون فيتوبوا ، وليطمئن المؤمنون الصادقون لعلهم ينشطون ويزدادون فى الطاعة ويبتعدون عن التقصير .

يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا خُذُوا حِذْرَكُمْ فَانفِرُوا ثُبَاتٍ أَوِ انفِرُوا جَمِيعاً (٧١) وَإِنَّ مِنْكُمْ لَمَنْ لَيُبَطِّئَنَّ ، فَإِنْ أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ قَالَ قَدْ أَنْعَمَ اللهُ عَلَيَّ إِذْ لَمْ أَكُنْ مَعَهُمْ شَهِيدا (٧٢) وَلَئِنْ أَصَابَكُمْ فَضْلٌ مِنَ اللهِ لَيَقُولَنَّ كَأَنْ لَمْ تَكُنْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُ مَوَدَّةٌ : يَا لَيْتَنِي كُنْتُ مَعَهُمْ فَأَفُوزَ فَوْزًا عَظِيماً (٧٣)

شرح المفردات

حذركم ، الحِذر والحَذَر كالمِثل والمَثل : الاحتراس والاستعداد لاتقاء شر العدو ، النفر : الانزعاج عن الشىء وإلى الشىء كالنزوع عن الشىء وإلى الشىء ، ومن الأول « وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِيَذَّكَّرُوا وَمَا يَزِيدُهُمْ إِلاَّ نُفُورًا » ومن الثانى النفر إلى الحرب ، والثبات واحدها ثبة : وهى الجماعة المنفردة ، والتبطؤ : يطلق على الإبطاء وعلى الحمل على البطء ، والبطء التأخر عن الانبعاث فى السير ، مصيبة كقتل وهزيمة ، شهيدا أى حاضرا معهم ، فضل كفتح وغنيمة .

المعنى الجملى

بعد أن بين الله لنا فى هذه السورة كثيرا من الأمور الدينية من عبادة الله وعدم الشرك ، والمدنية كمعاملة ذوى القربى والجيران واليتامى والمساكين ، والشخصية كأحكام الزواج والمصاهرة والمواريث ، بين لنا فى هـذه الآيات بعض الأحكام الحربية والسياسية ، ورسم لنا الطريق التى نسير عليها فى حفظ ملتنا وحكومتنا المبنية على تلك الأصول من الأعداء .

الإيضاح

(يأيها الذين آمنوا خذوا حذركم)أى احترسوا واستعدوا لاتقاء شر العدوّ، بأن تعرفوا حاله ومبلغ استعداده وقوته، وإذا كان لكم أعداء كثيرون فاعرفوا ما بينهم من وفاق وخلاف ، واعرفوا الوسائل لمقاومتهم إذا هجموا ، واعملوا بتلك الوسائل ، ويدخل فى ذلك معرفة حال العدو ومعرفة أرضـه و بلاده وأسلحته واستعمالها وما يتوقف على ذلك من معرفة الهندسة والكيمياء وجر الأثقال ، وعلى الجملة اتخاذ أهبة الحرب المستعملة فيه من طيارات وقنابل ودبابات و بوارج مدرعة ومدافع مضادة للطائرات إلى نحو ذلك حتى لا يهاجمكم على غرة أو يهددكم فى دياركم ، وحتى لا يعارضكم فى إقامة دينكم أو دعوتكم إليه .

وقد كان النبى صلى الله عليه وسلم والصحابة على علم بأرض عدوهم ، كما كان لهم عيون وجواسيس يأتونهم بالأخبار (قلم مخابرات) ولما أخبروه بنقض قريش للعهد (إخلالهم بشروط المعاهدة فى صلح الحديبية) استعد لفتح مكة ولم يفلح أبو سفيان فى تجديد العهد مرة أخرى ، وقد كان يظن أن المسلمين لم يعلموا بنكثهم له .

وقد قال أبو بكر لخالد بن الوليد فى حرب اليمامة حاربهم بمثل ما يحاربونك به ، السيف بالسيف والرمح بالرمح .

وما رواه الحاكم عن عائشة « لا يغنى حذر من قدر » لا يناقض أخذ الحذر ، لأن الأمر بالحذر داخل فى القدر فالأمر به لندفع عنا شر الأعداء لا لندفع القدر ونبطله ، إذ القدر هو جريان الأمور بنظام تأتى فيه الأسباب على قدر المسببات والحذر من جملة الأسباب فهو عمل بمقتضى القدر لا بما يضاده .

(فانفروا ثبات أو انفروا جميعا) أى انفروا جماعة إثر جماعة بأن تكونوا فصائل وفرقا ــ إذا كان الجيش كبيرا أو موقع العدو يستدعى ذلك ــ أو تنفر الأمة كلها جميعا إذا اقتضت الحال ذلك على حسب قوة العدو .

والخلاصة — إنكم إما أن تنفروا جماعات جماعات ، و إما أن ينفر جميع المؤمنين على الإطلاق على حسب حال العدو .

وامتثال هــذا الأمر يقتضى أن تكون الأمة على استعداد دائم للجهاد بأن يتعلم كل فرد من أفرادها فنون الحرب و يتمرن عليها ، وأن تقتنى السلاح الذى تحتاج إليه فى هذا النضال ، وتعلم كيفية استعماله فى كل زمان بما يناسبه .

ومن هذا تعلم أن الحكومة الإسلامية يجب عليها أن تقيم هذا الواجب بنفسها لا أن تبقى عالة على غيرها ، وعلى الأمة أن تساعدها عليه ، بل تلزمها إياه إذا قصرت فيه ، بعكس ما نراه الآن من تراخى الأمم الإســلامية وضعفها وتوانيها فى ذلك ، حتى طمعت فيها كل الدول التى تجاورها واجتاحتها من أطرافها واجتثت كثيرا من كورها وأقاليمها .

وقد شدد الدين أيما تشديد فى هذا الأمر فجاء مثل هذا فى قوله تعالى « وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِباطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللهِ وَعَدُوَّكُمْ » وجاءت أحاديث كثيرة بهذا المعنى .

(و إن منكم لَمَنْ ليبطئن) أى ليتثاقلن و يتأخرَنَّ عن الجهاد ، والخطاب لجماعة المؤمنين على حسب الظاهر ومنهم المنافقون وضعفة الإيمان والجبناء ، فالمنافقون يرغبون عن الحرب لأنهم لا يحبون أن يبقى الإسلام وأهله ولا أن يدافعوا عنه و يحموا بيضته

فهم يبطئون عن القتال و يبطئون غيرهم عن النفر إليه ، والجبناء وضعفة الإيمان يبطئون بأنفسهم عن القتال خورا وخوفا من صليل السيوف ومن الـكر والفر ومقابلة العدو وهو شاكى السلاح ، ثم فصل الله أحوال هؤلاء الضعفاء فقال :

(فإن أصابتكم مصيبة قال قد أنعم الله علىّ إذ لم أكن معهم شهيدا) أى قال ذلك المبطىء فرحا بما فعل حامدا رأيه شاكرا ربه ، إذا أصابتكم المصيبة من قتل أو هزيمة - إن الله قد أنعم علىّ بالقعود فلم أكن حاضرا معهم فيصيبنى مثل ما أصابهم من البلاء والشدة .

(ولئن أصابكم فضل من الله ليقولن كأن لم تكن بينكم و بينه مودة ياليتنى كنت معهم فأفوز فوزا عظيما) أى ولئن منّ الله عليكم بالظفر وفتح البلاد فغنمتم وأخذتم السبايا والأسرى ليقولن قول من ليس منكم ومن لم تجمعه مودة بكم - ليتنى كنت معهم فأفوز كما فازوا ، فهو قد نسى ما يجب عليه من مدّ يد المعونة إليكم و بذل كل ما يمكنه من نفس أو مال ليتم ذلك الظفر .

ولـكن ضعف إيمانه أو جبنه منعه عن هذا ، إذ هذا التمنى بعد فوات الفرصة دليل على ضعف العقل وكونه ممن يشرى الحياة الدنيا بالآخرة وفى قوله كأن لم تكن بينكم و بينه مودة تقريع وتوبيخ بألطف القول وأرق العبارة ، إذ أن قليلا من المودة كان ينبغى أن يمنع مثل هـذا التمنى وأن يعد هذا الإحجام نعمة ، فهذا يشعر بأن صاحبه لا يرى نعمة الله على المؤمنين نعمة وفضلا عليه ولا ما يصيبهم من جهد و بلاء كأنه يصيبه هو ، مع أن القرآن يصرح بأن المؤمنين إخوة والحديث يدل على أنهم كأعضاء الجسم الواحد وكالبنيان يشد بعضه بعضا .

ومن فوائد هذا الأسلوب أنه يؤثر فى نفس سامعه تأثيرا لا يدنو من مثله الطعن بهُجر القول ، إذ يدعو صاحبه إلى التأمل والتفكر فى حقيقة حاله ومعاتبة نفسه ، والتوبة إلى ربه والرجوع إلى أوامر دينه .

فَلْيُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللهِ الَّذِينَ يَشْرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالآخِرَةِ ، وَمَنْ يُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيماً (٧٤) وَمَا لَكُمْ لاَتُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا ، وَاجْعَلْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا وَاجْعَلْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ نَصِيرًا (٧٥) الَّذِينَ آمَنُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ ، فَقَاتِلُوا أَوْلِيَاءَ الشَّيْطَانِ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفاً (٧٦)

شرح المفردات

سبيل الله : هى تأييد الحق والانتصار له بإعلاء كلمة الدين ونشر دعوته ودفاع الأعداء إذا هددوا أمتنا أو أغاروا على أرضنا أو نهبوا أموالنا أو صدونا عن استعمال حقوقنا مع الناس ، ويشرون يبيعون كما جاء فى قوله « وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ » وقوله « وَلَبِئْسَمَا شَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ » وقوله « وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْرِى نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاةِ اللهِ » والطاغوت : من الطغيان وهو مجاوزة حقوق الحق والعدل والخير إلى الباطل والظلم والشر ، والكيد : السعى فى الفساد على وجه الحيلة .

المعنى الجملى

بعد أن بين الله عز اسمه حال ضعفاء الإيمان الذين يبطئون عن القتال فى سبيله — دلهم بهذه الآية على طريق تطهير نفوسهم من ذلك الذنب العظيم ذنب القعود عن القتال وأمر به إيثارا لما عند الله من الأجر والثواب على ما فى الدنيا من نعيم زائل وعرض يفنى .

الإيضاح

(فليقاتل فى سبيل الله الذين يشرون الحياة الدنيا بالآخرة) أى فليقاتل فى سبيل الله من أراد أن يبيع الحياة الدنيا و يبذلها ويجعل الآخرة ثمنا لها وعوضا منها ، لأنه يكون قد أعز دين الله وجعل كلمته هى العليا وكلمة الذين كفروا هى السفلى والله عزيز ذو انتقام .

(ومن يقاتل فى سبيل الله فيقتل أو يغلب فسوف نؤتيه أجراً عظيما) أى ومن يقاتل فى سبيله فيظفر به عدوه أو يظفر هو بعدوه فإن الله سيؤتيه أجرا عظيما من عنده خالدا أبدا فى دار الجزاء ، وفى الآية إيماء إلى شرف الجهاد لأنه إنما كان فى سبيل الحق والعدل والخير لا فى سبيل الهوى والطمع ، كما أن فيها إيماء إلى أنه ينبغى للمقاتل أن يوطن نفسه على أحد الأمرين إما أن يقتله العدو ويكرم نفسه بالشهادة و إما أن يظفر به فيعز كلمة الحق والدين ولا يحدث نفسه بالهرب بحال ، لأنه إن فعل ذلك فما أسرع ما يقع فى ذلك الفخ الذى نصبه لنفسه .

(وما لكم لا تقاتلون فى سبيل الله) أى أىُّ عذر لكم يمنعكم أن تقاتلوا فى سبيل الله لتقيموا التوحيد مقام الشرك وتحلوا الخير محل الشر وتضعوا العدل والرحمة موضع الظلم والقسوة ، وفى هذا حث شديد على القتال لكونه فى سبيل الحق .

(والمستضعفين من الرجال والنساء والولدان) أى وفى سبيل المستضعفين إخوانكم فى الدين الذين استذلهم أهل مكة الأقوياء الجبابرة وآذوهم أشد الإيذاء ليمنعوهم من الهجرة و يفتنوهم عن دينهم و يردوهم فى ملتهم .

وقد جعل الله لهؤلاء سبيلا لإثارة النخوة وهز الأريحية و إيقاظ شعور الرحمة والأنفة .

وقد وصفهم الله بما يجعل نفس الحر تشتعل حماسة وغيرة على إنقاذهم والسعى فى رفع الظلم عنهم فقال :

(الذين يقولون ربنا أخرجنا من هذه القرية الظالم أهلها واجعل لنا من لدنك وليا واجعل لنا من لدنك نصيرا) أى إن هؤلاء المستضعفين فقدوا النصير والمعين وتقطعت بهم أسباب الرجاء فاستغاثوا بربهم ودعوه ليفرج كربهم ويخرجهم من تلك القرية (مكة) لظلم أهلها لهم ويسخر لهم بعنايته من يتولى أمرهم وينصرهم على من ظلمهم فيتمكنوا بذلك من الهجرة إليكم ويرتبطوا بكم أقوى الروابط وهى رابطة الإيمان فهى أقوى من رابطة الأنساب والأوطان ، وما كل أحد من المسلمين قدر على الهجرة فقد كانوا يصدونهم عنها ويعذبون مريديها عذابا شديدا ، وما شرع القتال إلا لعدم حرية الدين وظلم المشركين المسلمين ، فالقتال قبيح ولا يجيزه العقل السليم إلا لإزالة قبيح أشد منه ضررا والأمور بمقاصدها وغاياتها كما قال :

(الذين آمنوا يقاتلون فى سبيل الله والذين كفروا يقاتلون فى سبيل الطاغوت) أى إن المؤمنين إنما يقاتلون لأجل إعلاء كلمة الحق والكافرين إنما يقاتلون اتباعا لوسوسة الشيطان وتزيينا للكفر ، فلو ترك المؤمنون القتال لغلب الطغيان وعم الفساد « وَلَوْلَا دَفْعُ اللهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ » .

(فقاتلوا أولياء الشيطان إن كيد الشيطان كان ضعيفا) أى فقاتلوا أيها المؤمنون أولياء الرحمن ــ أولياء الشيطان الذين زين لهم الشيطان بوسوسته وخداعه أن فى الظلم وإهلاك الحرث والنسل شرفا لهم أيما شرف .

وقد جرت سنة الله أن الحق يعلو والباطل يسفل ، وأن الذى يبقى هو الأصلح والأمثل ، فالذين يقاتلون فى سبيل الله يطلبون ما تقتضيه سنة العُمران ، والذين يقاتلون فى سبيل الشيطان يطلبون الانتقام والاستعلاء فى الأرض بغير الحق ، وتسخير الناس لأغراضهم وشهواتهم ، وسنن العمران تأبى ذلك فلا يكون لذلك قوة ولا بقاء ، إلا لنومة أهل الحق عن حقهم ، فإذا هم أفاقوا من غفوتهم تغلب الحق على الباطل ورده خاسئا محسورا .

إلى أن الذين يقاتلون فى تأييد الحق تتوجه هممهم إلى إتمام الاستعداد ويكونون أجدر بالثبات والصبر ، وفى ذلك من القوة ما ليس فى كثرة العَدد والعُدد .

وهذا فى الحروب الدينية التى قد تركها المسلمون منذ أزمان طويلة ، ولو وجدت فى الأرض حكومة إسلامية تقيم القرآن وتحوط الدين وأهله بما أوجبه من إعداد العدة للحرب لاتخذها أهل المدنية قدوة لهم وإماما فى أعمالهم .

أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ ، فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً ، وَقَالُوا رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا الْقِتَالَ ، لَوْلَا أَخَّرْتَنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ ، قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ ، وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِمَنِ اتَّقَى وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا (٧٧) أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِكْكُمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُشَيَّدَةٍ ، وَإِنْ تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِ اللهِ ، وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِكَ ، قُلْ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ اللهِ ، فَمَا لِهَؤُلَاءِ الْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا (٧٨) مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللهِ وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنْ نَفْسِكَ ، وَأَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا وَكَفَى بِاللهِ شَهِيدًا (٧٩)

شرح المفردات

كفوا أيديكم أى عن القتال ، كتب عليهم أى أمروا به ، يخشون الناس أى يخافون أن يقتلهم المشركون ، كخشية الله أى كما يخافون أن ينزل الله عليهم بأسه

وعذابه ، لولا أخرتنا إلى أجل قريب أى هلا تركتنا حتى نموت حتف أنوفنا بآجالنا القريبة ، متاع الدنيا ما يستمتعون به من لذاتها ، قليل أى سريع الزوال ، أينما تكونوا يدرككم الموت أى فى أى مكان كنتم يلحقكم الموت ، البروج المشيدة القصور العالية المطلية بالشيد وهو الجص ، أو الحصون والقلاع المتينة التى تعتصم فيها حامية الجند. حسنة أى شئ يحسن عند صاحبه كالرضاء والخصب والظفر بالغنيمة ، سيئة هى ما تسوء صاحبها كالشدة والبأساء والضراء والهزيمة والجرح والقتل ، يفقهون حديثا يفهمون كلاما يوعظون به .

المعنى الجملى

بعد أن أمر الله تعالى بأخذ الحذر والاستعداد للقتال والنفر له وذكر حال المبطئين الذين ضعفت قلوبهم وأمرهم بالقتال فى سبيله وفى سبيل إنقاذ المستضعفين .

ذكر هنا أن الإسلام كلفهم ترك ما كانوا عليه فى الجاهلية من تخاصم وتلاحم وحروب مستمرة ولا سيما بين قبيلتى الأوس والخزرج فإن الحروب بينهم لم تنقطع إلا بمجىء الإسلام ، وأمرهم بكف أيديهم عن القتال والعدوان على غيرهم ، وطلب إليهم إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة لما فيهما من تهذيب النفوس والعطف والرحمة حتى خمدت من نفوس كثير منهم حمية الجاهلية وحل محلها شريف العواطف الإنسانية ، إلى أن اشتدت الحاجة الى القتال للذود عن بيضة الإسلام ودفع العدوان من أولئك المشركين الذين آذوا المسلمين وأحبوا فتنتهم فى دينهم وردهم إلى ما كانوا عليه ، ففرضه عليهم فكرهه المنافقون والضعفاء فنعى الله عليهم ذلك ووبخهم أشد التوبيخ .

الإيضاح

(ألم تر إلى الذين قيل لهم كفوا أيديكم وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة فلما كتب عليهم القتال إذا فريق منهم يخشون الناس كخشية الله أو أشد خشية) الخطاب لجماعة

المسلمين وفيهم المنافقون والضعفاء ، أى ألم تر إلى أولئك الذين أمرهم الله بحقن الدماء وكف الأيدى من الاعتداء ، وإقامة الصلاة والخشوع والعبودية لله ، وإيتاء الزكاة التى تمكن الإيمان فى القلوب وتشد أواصر التراحم بين الخلق ، وقد كانوا من قبل ذوى إحن وأحقاد وتخاصم وتلاحم وحروب مستمرة ، فلما جاء الإسلام أحبوا أن يكتب عليهم القتال ليسيروا على ما تعودوه ، ولكن حين كتب عليهم كرهه الضعفاء منهم وخافوا أن يقاتلهم الكفار وينزلوا بهم النكال والوبال ، كما خافوا أن ينزل الله بهم بأسه وعقابه ، بل رجح خوفهم من الناس على خوفهم من الله .

(وقالوا ربنا لم كتبت علينا القتال لولا أخرتنا إلى أجل قريب) أى وقالوا ربنا لماذا كتبت علينا القتال فى هذا الوقت ، هلا نموت حتف أنوفنا موتا طبيعيا ، وربما لا يكونون قد قصدوا وقتا معينا بل قصدوا من ذلك الهرب والتفصى عن القتال كما تقول لمن يرهقك عسرا فى أمره أمهلنى قليلا ، أنظرنى إلى أجل ، وقد أمر الله رسوله أن يرد عليهم شبهتهم فقال :

(قل متاع الدنيا قليل والآخرة خير لمن اتقى) أى إن طلبكم للانظار إنما هو خشية الموت والرغبة فى متاع الدنيا ولذاتها ، مع أن كل ما يتمتع به فى الدنيا فهو قليل بالنسبة إلى متاع الآخرة لأنه محدود فان ، ومتاع الآخرة كثير باق ولا يناله إلا من اتقى الله وابتعد عن الأسباب التى تدنس النفس بالشرك وبالأخلاق الذميمة ، فحاسبوا أنفسكم واعلموا أنكم ستجزون بأعمالكم إن خيرا فخير وإن شرا فشر .

(ولا تظلمون فتيلا) أى ولا تنقصون من الجزاء على أعمالكم مقدار فتيل — والفتيل ما يكون فى شق نواة التمر مثل الخيط وبه يضرب المثل فى القلة والحقارة — .

(أينما تكونوا يدرككم الموت ولو كنتم فى بروج مشيدة) أى إن الموت أمر محتم لا مهرب منه ، فهو لابد أن يدرككم فى أى مكان ولو تحصنتم فى شواهق القصور التى يسكنها ذوو الثراء والنعمة أو فى القلاع والحصون التى تقطنها حامية الجند ، وإذا كان الموت لا مفر منه وكان المرء قد يقتحم غمار الوغى ولا يصاب بالأذى ،

وقد يموت المعتصم فى البروج والحصون وهو فى غضارة العيش فلا عذر لكم أيها المثبطون المبطئون ، ولماذا تختارون لأنفسكم الحقير على العظيم ؟ ولماذا لا تدافعون عن الحق وتمنعون الشر أن يفشو حتى تستحقوا مرضاة الله وسعادة الآخرة ؟ ولماذا تكرهون القتال وتجبنون وتخافون الناس وتتمنون البقاء ، أليس هذا بضعف فى الدين وركة فى العقل وخور فى العزيمة تؤاخذون بها وتقوم عليكم بها الحجة ، ثم ذكر سبحانه شأنا آخر من شئونهم أشد دلالة على الحمق وضعف العقل ومرض القلب فقال (و إن تصبهم حسنة يقولوا هذه من عند الله ، و إن تصبهم سيئة يقولوا هذه من عندك، قل كل من عند الله) أى إن أصابهم رخاء ونعمة قالوا إن الله أكرمهم بها عناية بهم وليس لهداية الرسول أثر فى ذلك ، و إن أصابهم شدة وجهد قالوا هذا من شؤم محمد علينا ، وهذه مقالة اليهود والمنافقين حين قدم النبى صلى الله عليه وسلم المدينة وأصابهم القحط والجدب ، وهذا زعم باطل منهم ، فكل من النعمة والبلية من عند الله خلقا و إيجادا يقع فى ملكه على حسب السنن التى وضعها والأسباب والمسببات التى أوجدها.

(فما لهؤلاء القوم لايكادون يفقهون حديثا) أى ماذا أصاب هؤلاء القوم وماذا دهاهم فى عقولهم ، فهم لايعقلون حقيقة مايلقونه من الحديث ولا مايلقى إليهم ، و إنما يأخذون بما يطفو من المعنى بادىء الرأى دون تمحيص ولا تحقيق و إذا كانوا قدحرموا هذا الفقه من كل حديث ، فما أحراهم أن يحرموه من حديث يبلغه الرسول عن ربه فى الإخبار عن نظم الاجتماع وارتباط الأسباب بالمسببات ، وعما أحاط الله به المصطفين الأخيار من وافر الفضل وخصهم به جميل الرعاية ، فتلك الحكم العالية لاتنال إلا بفضل الروية وطول الأناة والتدبير ، ومن وصل إلى هذا القدر من الفهم لا يقول إن السيئة لاتقع بشؤم أحد ، بل ينسب كل شىء إلى سببه .

وفى الآيه إيماء إلى أن حصيف الرأى يجب أن يطلب فقه القول دون الأخذ بالجُمَل والظواهر إذ من قنع بذلك بقى فى عماية و يظل طوال دهره غِرًّا جاهلا بما يحيط به من نظم هذا العالم .

(ما أصابك من حسنة فمن الله وما أصابك من سيئة فمن نفسك) هذا خطاب لرسول الله صلى الله عليه وسلم والمقصود منه من أرسل إليهم .

أى إن كل حسنة تصيبك أيها المؤمن فهى من فضل الله وجوده ، فهو الذى سخر لك المنافع التى تتمتع بها وتحسن لديك ، فقد سخر لك الهواء الذى يحفظ الحياة ، والماء العذب الذى يمد كل الأحياء ، وأزواج النبات والحيوان وغيرهما من موادّ الغذاء ، وأنعم عليك بوسائل الراحة والهناء ؛ وكل سيئة تصيبك فهى من نفسك فإنك بما أوتيت من قدرة على العمل واختيار فى درء المفاسد وجلب المنافع وترجيح لبعض المقاصد على بعض قد تخطئ فى معرفة ما يسوء وما ينفع ، لأنك لاتضبط إرادتك وهواك ولا تحيط علما بالسنن والأسباب ، فأنت ترجح بعضا على بعض إما بالهوى أو قبل أن تحيط خُبْرًا بمعرفة النافع والضار فتقع فيما يسوء .

والخلاصة — أن هاهنا شيئين لابد من معرفتهما :

(١) أن كل شىء من عند الله على معنى أنه خالق الأشياء وواضع النظم والسنن للوصول إلى هذه الأشياء بسعى الإنسان وكسبه ، وكل شىء حسن بهذا الاعتبار لأنه مظهر الإبداع والنظام .

(٢) أن الإنسان لايقع فيما يسوءه إلا بتقصير منه فى معرفة السنن والأسباب ، فالسوء إنما ينسب إلى الأشياء بتصرف الإنسان باعتبار أنها تسوءه وليس بذاتى لها ومن ثم ينسب ذلك إلى الإنسان ، فالمرض مثلا يسوءه ، وهو إنما يكون بتقصيره فى السير على نهج الفطرة فى التغذية ، فقد يكون من تخمة قادته إليها شهوته أو من إفراط فى تعب أو راحة أو من تعرض للبرد القارس أو للحر الشديد أو نحو أولئك من الأسباب التى ترجع كلها إلى سوء الاختيار ، كما أن الأمراض الموروثة هى من جناية الإنسان على الإنسان فهى من نفسه أيضا لا من أصل الفطرة والطبيعة التى هى محض خلق الله دون اختيار الإنسان لنفسه ، فالولدان قد يجنيان على

المرء بتعريض أنفسهما للمرض الذى انتقل إلى نسلهما بالوراثة ، كما يجنيان عليه فى صغره بعدم وقايته من أسبابه حين يكون اختيارهما له تاما قائما مقام اختياره لنفسه .

وكذلك أحيانا تسند الأشياء جميعها إلى الله ويقال إنها من عنده بمعنى أنه هو الخالق لها والواضع لسنن الأسباب والمسببات فيها .

ويسند إلى الإنسان منها كل ماله فيه كسب وعمل اختيارى سواء كان من الحسنات والسيئات ، وقد مضى بهذا كلام الناس وأيدته نصوص الكتاب والسنة كقوله تعالى « مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلَهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ » .

وبهذا الاعتبار يقال إصابة الحسنة من فضل الله تعالى مطلقا وإصابة السيئة من نفس الإنسان مطلقا ولكل من الاطلاقين مقام يقال فيه ، والمقام الذى سيقت له الآية فى بيان نفى الشؤم والتطير وإبطالها ليعلم الناس أن مايصيبهم من السيئات لايكون بشؤم أحد وكانوا يتشاءمون ويتطيرون فى الجاهلية ، وقد أبطل ذلك الإسلام لكنه لايزال فاشيا إلى الآن .

وينبغى للإنسان حينما تصيبه سيئة أن يبحث عن سببها من نفسه ، لأنها إنما تصيبه لجهله بالسنن التى وضعها الله من التماس المنافع من أسبابها واتقاء المضار بالبعد عن أسبابها بترجيحه فعل ماينفع على فعل ما يضر .

وقد تضافرت الآثار على أن طاعة الله من أسباب النعم وأن عصيانه مما يجلب النقم ، وطاعته إنما تكون باتباع سننه وصرف ما وهب من الوسائل فيما وهب لأجله ، وهذه الآية أصل من أصول الاجتماع وعلم النفس وفيها شفاء للناس من خرافات الوثنية ، وارتفاع وتكريم للنفس الإنسانية .

(وأرسلناك للناس رسولا) والرسول ليس عليه إلا البلاغ وليس له دخل فيما يصيب الناس من الحسنات والسيئات ، لأنه لم يرسل إلا للتبليغ والهداية للتصرف فى نظم الكون وتحويل سنن الاجتماع أو تبديلها ، فما زعمه أولئك الجاهلون من أن السيئة

تصيبهم بشؤمه ، محض خرافة لامستند لها من عقل أو نقل ومخالف لما بينه الله تعالى من وظيفة الرسل .

(وكفى بالله شهيدا) أنك أرسلت للناس كافة بشيرا ونذيرا لامسيطرا ولا جبارا ولا مغيِّرا لنظم الكون وتحويل سنن الاجتماع أو تبديلها « فَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللهِ تَبْدِيلاً ، وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللهِ تَحْوِيلاً » .

مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللهَ ، وَمَنْ تَوَلَّى فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظاً (٨٠) وَيَقُولُونَ طَاعَةٌ فَإِذَا بَرَزُوا مِنْ عِنْدِكَ بَيَّتَ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ غَيْرَ الَّذِى تَقُولُ ، وَاللهُ يَكْتُبُ مَا يُبَيِّتُونَ ، فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ ، وَكَفَى بِاللهِ وَكِيلاً (٨١) أَفَلاَ يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ ، وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلاَفاً كَثِيرًا (٨٢)

المعنى الجملى

بعد أن أمر فيما تقدم بطاعة الله وطاعة الرسول و بين جزاء المطيع وأحوال الناس فى هذه الطاعة على حسب قوة الإيمان وضعفه ، ثم أمر بالقتال و بين مراتب الناس فى الامتثال له ، أعاد هنا الأمر بالطاعة و بين أنها أولا و بالذات لله ولغيره بالتبع ، و بين ضروب مراوغة الضعفاء والمنافقين .

الإيضاح

(من يطع الرسول فقد أطاع الله) أى إن من أطاع الرسول فقد أطاع الله لأنه الآمر والناهى فى الحقيقة ، والرسول إنما هو مبلغ للأمر والنهى فليست الطاعة له

بالذات و إنما هى لمن بلغ عنه ، إذ قد جرت سنته سبحانه ألا يأمر الناس ولا ينهاهم إلا بواسطة رسل منهم يفهمون عنهم مايوحيه إليهم ليبلغوه عنه .

أما مايقوله الرسول من تلقاء نفسه وما يأمر به مما يستحسنه باجتهاده ورأيه من أمور المعيشة كتأبير النخل (تلقيحه بطلع الذكر) ونحوه مما يسميه العلماء أمر إرشاد ، فطاعته فيه ليست من الفرائض التى فرضها الله لأنه ليس دينا ولا شرعا عنه تعالى فقد أمر النبى صلى الله عليه وسلم بكيل الطعام كالقمح وغيره من الحبوب عند طحنه وعند عجنه وهو من التدبير والاقتصاد فى البيوت ، وأكثر المسلمين أهملوه إلا من تعود منهم التدبير وحسن التقدير فى المنازل ، وكذلك أمر بأكل الزيت والادّهان به .

وقد كان الصحابة رضوان الله عليهم إذا شكوا فى الأمر أمن عند الله هو أم من رأى الرسول واجتهاده ؟ وكان لهم فى ذلك رأى آخر سألوه ، فإن أجابهم بأنه من الله أطاعوه بلا تردّد ، و إن قال إنه من رأيه ذكروا رأيهم وربما رجع النبى صلى الله عليه وسلم عن رأيه إلى رأيهم كما فعل فى بدر وأحد .

روى مقاتل أن النبى صلى الله عليه وسلم كان يقول «من أحبنى فقد أحب الله ومن أطاعنى فقد أطاع الله ، فقال المنافقون ألا تسمعون إلى ما يقول هذا الرجل ؟ لقد قارف الشرك ، قد نهى أن نعبد غير الله و يريد أن نتخذه ربا كما اتخذت النصارى عيسى ، فأنزل الله هذه الآية » .

فالمؤمن حقا لا يكون خاضعا إلا لخالقه وحده دون أحد من خلقه ، والخروج عن ذلك شرك ، وهو نوعان :

(١) أن ترى لبعض المخلوقات سلطة غيبية وراء الأسباب العادية ، ومن ثم ترجو نفعها وتخاف ضرها وتدعوها وتذل لها ، وذلك هو الشرك فى الألوهية .

(٢) أن ترى لبعض المخلوقين حق التشريع والتحليل والتحريم ، كما فسر النبى صلى الله عليه وسلم قوله تعالى « اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللهِ » بطاعتهم فيما يحللون و يحرمون ، وذلك هو الشرك فى الربوبية .

ذاك أن المؤمن يحب أن يكون أعز الناس نفسا وأعظمهم كرامة ، فلا يرضى أن يستعبده سلطان ظالم ولا حاكم مستعبد إذ هو يعلم علم اليقين أن الكل عبيد مسخرون لله تعالى يخضعون لأمره وأن ذلك منتهى سعادتهم فى الدارين .

(ومن تولى فما أرسلناك عليهم حفيظاً) أى ومن أعرض عن طاعتك التى هى طاعة الله فليس لك أن تكرهه عليها ، لأنك ما أرسلت إلا مبشرا ونذيرا ولم ترسل مسيطرا أو رقيبا تحفظ على الناس أفعالهم وأقوالهم ، فالإيمان والطاعة إنما يكونان بالاختيار بعد الإقناع والاختبار .

(ويقولون طاعة) أى ويقول ذلك الفريق الذين أخبر الله عنهم أنهم يخشون الناس كخشية الله أو أشد خشية ، إذا أمرهم النبى صلى الله عليه وسلم بأمر : أمرك طاعة – أى أمرك مطاع ، إظهارا لكمال الانقياد والخضوع .

(فإذا برزوا من عندك بيت طائفة منهم غير الذى تقول) البراز – بفتح الباء – الأرض الفضاء والتبييت ما يدبر فى الليل من رأى ونية وعزم على عمل ومنه تبييت العدو للايقاع به ليلا أى إذا خرجوا من المكان الذى يكونون معك فيه إلى البراز وهم منصرفون إلى بيوتهم ، دبر جماعة منهم ليلا غير الذى قالوا لك وأظهروه من الطاعة نهارا .

روى ابن جرير عن ابن عباس أنه قال هم ناس يقولون عند رسول الله صلى الله عليه وسلم آمنا بالله ورسوله ليأمنوا على دمائهم وأموالهم ، وإذا برزوا من عند رسول الله صلى الله عليه وسلم خالفوا إلى غير ما قالوا عنده فعابهم الله على ذلك .

(والله يكتب ما يبيتون) أى يبينه لك فى كتابه ويفضحهم بمثل هذه الآيات ، وفى هذا من التهديد الشىء الكثير .

(فأعرض عنهم) ولا تهتمّ بما يبيتون ولا تؤاخذهم بما أسروا ولم يعلنوا .

(وتوكل على الله) أى فوض الأمر إليه وثق به فى جميع أمورك ، فإن الله يكفيك شرهم وينتقم منهم .

(وكفى بالله وكيلا) لمن توكل عليه ، فهو قادر على إيقاع الجزاء بهم ، وعليم بمقدار ما يستحقون منه ، لا يعجزه منه شيء .

(أفلا يتدبرون القرآن) أصل التدبر التأمل فى أدبار الأمور وعواقبها ، ثم استعمل فى كل تأمل سواء كان نظرا فى حقيقة الشيء وأجزائه ، أو سوابقه وأسبابه ، أو لواحقه وأعقابه ، وتدبر الكلام هو النظر والتفكر فى غاياته ومقاصده التى يرمى إليها ، وعاقبة من يعمل به ومن يخالفه .

أى أجهل هؤلاء القوم حقيقة الرسالة وكنه هذه الهداية فلا يتدبرون القرآن الذى يدل على حقيقتها ؟ ولو تدبروه لعرفوا أنه الحق من ربهم وأن ما وعد به المتقين الصادقين وما أنذر به الكافرين والمنافقين واقع لا محالة ، فهو إذ صدق فى الإخبار عما يبيتون فى أنفسهم من القول يصدق كذلك فيما أخبر عن سوء مصيرهم والوبال والنكال فى عاقبتهم .

(ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا) أى ولو كان من عندك لا من عند الله الذى أرسله به لوجدوا فيه اختلافا كثيرا لأسباب كثيرة :

(١) أن أى مخلوق لا يستطيع تصوير الحقائق كما صورها القرآن بلا اختلاف ولا تفاوت فى شيء منها .

(٢) أنه حكى عن الماضى الذى لم يشاهده محمد صلى الله عليه وسلم ولم يقف على تاريخه ، وعن الآتى فوقع كما أنبأ به ، وعن الحاضر فأخبر عن خبايا الأنفس ومكنونات الضمائر كما أخبر عما بيتته هذه الطائفة مخالفا لما تقول للرسول أو ما يقوله لها فتقبله فى حضرته وترفضه فى غيبته .

(٣) أن أحدا لا يستطيع أن يأتى بمثله فى بيان أصول العقائد وقواعد الشرائع وسياسة الشعوب والقبائل مع عدم الاختلاف والتفاوت فى شيء من ذلك .

(٤) أن أحدا لا يستطيع أن يأتى بمثله فى سنن الاجتماع ونواميس العمران وطبائع الملل والأقوام مع إيراد الشواهد وضرب الأمثال وتكرار القصة الواحدة

بالعبارات البليغة تنويعا للعبرة وتلوينا للموعظة ، واتفاق كل ذلك وتواطئه على الصدق، وبراءته من الاختلاف والتناقض .

(٥) أن أحدا لا يستطيع أن يأتى بمثله فيما جاء به من فنون القول وألوان العبر فى أنواع المخلوقات فى الأرض أو فى السموات، فقد تكلم على الخلق والتكوين ووصف جميع الكائنات كالكواكب ونظامها والرياح والبحار والحيوان والنبات وما فيها من الحكم والآيات ، وكان فى كل ذلك يؤيد بعضه بعضا لا تفاوت فيه ، ولا اختلاف بين معانيه .

(٦) أنه أخبر عن عالم الغيب والدار الآخرة وما فيها من الحساب على الأعمال والجزاء العادل ، وكان فى كل ذلك جاريا على سنة الله تعالى فى تأثير الأعمال الاختيارية فى الأرواح ، مع الالتئام بين الآيات الكثيرة وهو غاية الغايات فى ذلك عند من أوتى الحكمة وفصل الخطاب .

هذا إلى أنه نزل منجما على حسب الوقائع والأحوال ، وكان النبى صلى الله عليه وسلم عند نزول الآية أو الآيات يأمر بأن توضع فى محلها من سورة كذا وهو يحفظه حفظا ، وقد جرت العادة بأن من يأتى بكلام من عنده فى مناسبات مختلفة لا يتذكر جميع ما سبق له فى السنين الطوال ولا يستحضره حتى يجعل الآخر موافقا للأول مع أن بعض الآيات كان ينزل فى أيام المحن والكروب و بعضها عند تنازع الأقوام حين الخصام .

إلى أن كر الغداة ومر العشى لا يزيده إلا جدة ولا يزيد أحكامه إلا ثباتا ورسوخا ، وكلما اتسعت دائرة العلوم والمعارف ونمت أحوال العمران زاد إيمان الناس به إذ تتوثق روابط الصلة بين الدين والعلم وتتظاهر أحكامه مع نواميس الاجتماع وشؤون الكون .

والخلاصة — أن تدبر القرآن وتأمل ما امتاز به هو طريق الهداية القويم وصراط الحق المستقيم ، فإنه يرشد إلى كونه من عند الله وإلى وجوب الاهتداء به

وإلى أنه معقول فى نفسه موافق للفطرة ملائم للمصلحة وفيه سعادة الخلق فى الدنيا والآخرة .

ولو تدبر المسلمون القرآن واهتدوا به فى كل زمان لما فسدت أخلاقهم وآدابهم ، ولما ظلم واستبد حكامهم ، ولما زال ملكهم وسلطانهم ، ولما صاروا عالة فى معايشهم على سواهم .

وهذا التدبر لا يمنع أن يستنبط أولو الأمر الأحكام العامة فى السياسة والقضاء والإدارة ، وتتبعهم فيها سائر الأمة .

وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِنَ الْأَمْنِ أَوِ الْخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِ ، وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ ، وَإِلَى أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ ، وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَاتَّبَعْتُمُ الشَّيْطَانَ إِلَّا قَلِيلًا (٨٣)

تفسير المفردات

أذاع الشىء وأذاع به : نشره وأشاعه بين الناس ، وردّ الشىء : أرجعه وأعاده ، والاستنباط : استخراج ما كان مستترا عن الأبصار ، فضل الله : هو هدايتكم بطاعة الرسول ، إلا قليلا أى قليلا منكم ممن أوتوا صفاء الفطرة وسلامتها .

المعنى الجملى

قال ابن جرير : إن هذه الآية نزلت فى الطائفة التى كانت تبيّت غير ما يقول لها الرسول أو تقول له اهـ . ولا يبعد أن تكون فى جمهور المسلمين بلا تعيين ، لأن المشاهد فى أحوال الناس أن الإذاعة بمثل أخبار الأمن والخوف لا تكون من دأب المنافقين خاصة ، بل هى مما يلهج به الناس فى مختلف البيئات على حسب المناسبات وإن كانت

تختلف نياتهم ، فالمنافق قد يذيع ما يذيعه لأجل الضرر ، وضعيف الإيمان قد يذيع استشفاء مما فى صدره من الإحن والبغضاء ، وغيرهما قد يذيع رغبة فى كشف الأسرار وابتلاء الأخبار ، وهـذا أمر معتاد بين الناس وهو كثير الضرر إذا شغلوا به عن أعمالهم وضرره أكثر إذا أذاعوه وعلمه جواسيس العدوّ لما يكون لذلك من العواقب الوخيمة على الأمة ، ومثل ذلك سائر الأمور السياسية والشؤون العامة التى لا ينبغى أن تعدو الخاصة وتتصل إلى العامة .

الإيضاح

(وإذا جاءهم أمر من الأمن أو الخوف أذاعوا به) هذا بيان لجناية ضعفاء الإيمان إثر بيان جناية المنافقين .

أى إن هؤلاء قد بلغ من طيشهم وخفة أحلامهم أن كل خبر يصل إليهم يستفزهم ويطلق ألسنتهم بالكلام فيه وإذاعته بين الناس ، سواء أكان من ناحية الجيش الذى يغزو ويقاتل العدو ، أو من ناحية المركز العام للسلطة ، ولا ينبغى أن تشيع العامة أخبار الحرب وأسرارها ، ولا أن تخوض فى السياسة العامة للدولة لأن ذلك مضرة لها ومفسدة لشؤونها ومرافقها العامة وعلاقاتها مع غيرها من الأمم ، إلى أن فى ذلك مشغلة لهم عن شؤونهم الخاصة وضياع زمن كانوا فيه أحوج إلى العمل بما يفيدهم ويفيد الأمة .

(ولو ردوه إلى الرسول وإلى أولى الأمر منهم لعلمه الذين يستنبطونه منهم) أى ولو أن أولئك المذيعين فوضوا الكلام فى الأمور العامة إلى الرسول وهو الإمام الأعظم والقائد العام فى الحرب ، وإلى أولى الأمر من أهل الحل والعقد ورجال الشورى لوجدوا علم ذلك عندهم لأنهم هم الذين يستنبطون مثله ويستخرجون خفاياه بدقة نظرهم ، إذ لكل طائفة منهم استعداد للإحاطة ببعض المسائل المتعلقة بسياسة الأمة دون بعض ، فهذا إخصائى فى المسائل المالية ، وذاك فى الأمور القضائية ، وذاك

فى بناء القناطر والجسور ، ورابع فى شؤون الحرب ، وكل هذه المسائل يدرسها رجال الشورى [مجلس الوزراء بالاصطلاح العصرى] ويستنبطون منها ما يكون فيه المصلحة للدولة وينفذونه ، ولا ينبغى أن تذيعه العامة لما فى ذلك من الضرر بها من سائر الوجوه والاعتبارات .

(ولولا فضل الله عليكم ورحمته لاتبعتم الشيطان إلا قليلا) أى ولولا فضل الله عليكم ورحمته بكم إذ هداكم لطاعة الله والرسول ظاهرا وباطنا ، ورد الأمور العامة إلى الرسول وإلى أولى الأمر منكم ، لاتبعتم وسوسة الشيطان كما اتبعته تلك الطائفة التى تقول للرسول طاعة لك وتبيت غير ذلك والتى تذيع أمر الأمن والخوف وتفسد على الأمة سياستها به وأخذتم بآراء المنافقين فيما تأتون وما تذرون ولم تهتدوا إلى الصواب، إلا قليلا منكم ممن استنارت عقولهم بنور الإيمان وعرفوا الأحكام بالاقتباس من مشكاة النبوة كأبى بكر وعلى ، فهى كقوله تعالى « وَلَوْلاَ فَضْلُ اللهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَازَكَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ أَبَدًا » .

فَقَاتِلْ فِى سَبِيلِ اللهِ لاَ تُكَلَّفُ إلاَّ نَفْسَكَ ، وَحَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ ، عَسَى اللهُ أَنْ يَكُفَّ بَأْسَ الَّذِينَ كَفَرُوا ، وَاللهُ أَشَدُّ بَأْساً وَأَشَدُّ تَنْكِيلاً (٨٤)

تفسير المفردات

التحريض : الحث على الشىء بتزيينه وتسهيل الأمر فيه ، والبأس : القوة وكان بأس الكافرين متجها إلى إذلال المؤمنين لإيمانهم ، والتنكيل : معاقبة المجرم بما يكون فيه عبرة ونكال لغيره بحيث يمنعه أن يفعل مثل فعله .

المعنى الجملى

بعد أن أمر سبحانه بالجهاد ورغب فيه أشد الترغيب ، وذكر قلة رغبة المنافقين فيه وسعيهم فى تثبيط المسلمين عنه ، عاد هنا إلى الأمر به مرة أخرى .

الإيضاح

(فقاتل فى سبيل الله لا تكلف إلا نفسك وحرّض المؤمنين) أى وإذا أردت الفوز والظفر على الأعداء فقاتل فى سبيل الله امتثالا لأمره ، وأنت لاتكلف إلا أفعال نفسك دون أفعال الذين قالوا : لم كتبت علينا القتال ؟ والذين يقولون لك طاعة ويبيتون غير ذلك ، فمن أطاع الله لا يضيره عصيان من عصاه ، وعليك أن تحث غيرك على القتال وتحرضه عليه ، لا أن تلزمه ذلك بالقهر والجبروت .

وفى الآية إيماء إلى أنه صلى الله عليه وسلم كُلف قتال الكافرين الذين قاوموا دعوته بقوتهم وبأسهم وإن كان وحده ، كما أنها تدل على أنه صلى الله عليه وسلم أعطى من الشجاعة ما لم يعط أحد من العالمين ، وفى سيرته الشريفة أصدق الأدلة على ذلك فقد تصدى لمقاومة الناس جميعا بدعوتهم إلى ترك ما هم عليه من الضلال ، وحين قاتلوه قاتلهم وقد انهزم عنه أصحابه فى أُحد فبقى ثابتا كالجبل لا يتزلزل .

(عسى الله أن يكف بأس الذين كفروا) عسى هنا للتهيئة والإعداد فهى بمعنى الخبر والوعد ، وخبره تعالى حق فإنه لا يخلف الميعاد .

والمعنى — إن تحريض النبى للمؤمنين على القتال معه هو الذى يحملهم بباعث الإيمان والإذعان النفسى على الاستعداد له وتوطين النفس عليه ، بينما هو يعد الكافرين لترك الاعتداء على المؤمنين وكف بأسهم عنهم ، إذ لاشىء أدعى إلى ترك القتال من الاستعداد للقتال كما قال أبو تمام :

وأخافكم كى تغمدوا أسيافكم إن الدم المغبرّ يحرسه الدم

وعلى هذا النحو جرى عمل الممالك الكبيرة فى هذا العصر ، فكل دولة منها تبذل منتهى ما فى وسعها من اتخاذ العُدة والعتاد فى البر والبحر وتنظيم الجيوش لتكون القوى بينها متوازنة ولا تطمع القوية فى الضعيفة إذ يغريها ضعفها بالإقدام على حربها

(والله أشد بأسا وأشد تنكيلا) أى لا تخافوا بأس هؤلاء الكافرين وشدتهم ولا يصدنكم ذلك عن طاعة الرسول والعمل بتحريضه ، فإن الله الذى وعد الرسول بالنصر أشد منهم بأسا وأشد منهم تنكيلا ، وقد جرت سنته أن تكون العاقبة للمتقين ما استمسكوا بأوامره وتركوا نواهيه وأعدوا العدة مع الصبر والثبات والتباعد عن أسباب الخذلان والفشل .

مَنْ يَشْفَعْ شَفَاعَةً حَسَنَةً يَكُنْ لَهُ نَصِيبٌ مِنْهَا ، وَمَنْ يَشْفَعْ شَفَاعَةً سَيِّئَةً يَكُنْ لَهُ كِفْلٌ مِنْهَا ، وَكَانَ اللهُ عَلَى كُلِّ شَىْءٍ مُقِيتاً (٨٥) وَإِذَا حُيِّيتُمْ بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا ، إِنَّ اللهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَىْءٍ حَسِيباً (٨٦) اللهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لاَ رَيْبَ فِيهِ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللهِ حَدِيثاً (٨٧)

تفسير المفردات

قال الراغب : الشفع ضم الشيء إلى مثله ، والشفاعة : الانضمام إلى آخر ناصرا له وسائلا عنه ، نصيب : حظ ، كفل : نصيب ، مقيتا أى مقتدرا أو حافظا أو شاهدا . قال الراغب : وحقيقته قائما عليه يحفظه ويعينه فهو مأخوذ من القوت وهو ما يمسك الرمق من الرزق وتحفظ به الحياة ، يقال قاته يقوته إذا أطعمه قوته ، وأقاته يقيته إذا جعل له مايقوته ، والتحية : مصدر حياه إذا قال له حياك الله ، وهى فى الأصل الدعاء بالحياة ثم صار اسما لكل دعاء وثناء كقولهم : أنعم صباحا وأنعم مساء وعم صباحا

وعم مساء ، وجعل الشارع تحية المسلمين (السلام عليكم) إشارة إلى أن الدين دين سلام وأمان ، الحسيب : المحاسب على العمل كالجليس بمعنى المجالس وقد يراد به المكافئ والكافى من قولهم حسبك كذا إذا كان يكفيك .

المعنى الجملى

بعد أن أمر الله تعالى نبيه أن يحرض المؤمنين على الجهاد وذكر أنه ليس عليه وزر ممن تمرد وعصى — بين فى هذه الآية أنهم حين أطاعوك ولبوا دعوتك أصابهم من هذه الطاعة خير كثير ، وأن لك من هذا الخير نصيبا تستحق عليه الأجر لأنك قد بذلت الجهد فى ترغيبهم فيه بجعل نفسك شفيعا ونصيرا لهم فى الوصول إلى تحصيل هذه الأغراض الشريفة .

الإيضاح

(من يشفع شفاعة حسنة يكن له نصيب منها) أى من يجعل نفسه شفعا لك ويناصرك فى القتال ـ وقد أمرت به وحدك ـ يكن له من شفاعته نصيب بما يناله من الفوز والشرف والغنيمة فى الدنيا عند ما ينتصر الحق على الباطل ، وبما يناله من الثواب فى الآخرة فى جميع الحالات سواء أدرك النصر فى الدنيا أم لم يدركه ، ووصف الشفاعة بالحسنة لأنها تأييد ونصر للحق ، ومثل هذا كل من يعاون فاعل الخير ويساعده .

(ومن يشفع شفاعة سيئة يكن له كفل منها) أى ومن ينضم إلى عدوك فيقاتل معه أو يخذل المؤمنين عن قتاله يكن له نصيب من سوء العاقبة بما يناله من الخذلان فى الدنيا والعقاب فى الآخرة ، وهذه هى الشفاعة السيئة لأنها إعانة على السيئات ، وسمى هذا النصيب كفلا لأنه نصيب مكفول للشافع إذ هو أثر عمله ، أو محدود لأنه على قدره .

والخلاصة ــ أن من ينضم إلى غيره معينا له فى فعل حسن يكن له منه نصيب ، ومن ينضم إلى غيره معينا له فى فعل سيئ ينله منه سوء وشدة .

ويدخل فى الآية شفاعة الناس بعضهم لبعض ، وهى قسمان : حسنة ، وسيئة ؛ فالحسنة أن يشفع الشافع لإزالة ضرر ورفع مظلمة عن مظلوم أو جر منفعة إلى مستحق ليس فى جرها إليه ضرر ولا ضرار ؛ والسيئة أن يشفع فى إسقاط حد أو هضم حق أو إعطائه لغير مستحق أو محاباة فى عمل بما يوصل إلى الخلل والزلل ، ولأجل هذا قال العلماء : الشفاعة الحسنة ما كانت فيما استحسنه الشرع ، والسيئة فيما كرهه أوحرّمه.

وفى الآية من العبرة لنا أن نتذكر أن الحاكم العادل لا تنفع الشفاعة عنده إلا بإخباره بما لم يكن يعلم من مظلمة المشفوع له أو استحقاقه لما يطلب له ، ولا يقبل الشفاعة لإرضاء الشافع فيما يخالف الحق والعدل ويخالف المصلحة العامة .

أما الحاكم الظالم فتروج عنده الشفاعات لأنه يحابى أعوانه المقربين منه ليكونوا شركاء له فى استبداده ليثبتوا على خدمته وإخلاصهم له ، والحكومات التى تروج فيها الشفاعات وتعتمد عليها الرعية فى كل ما تطلب تضيع فيها الحقوق ويحل الظلم محل العدل ويسرى من الدولة إلى الأمة فيعم فيها الفساد ويختل نظام الأعمال .

(وكان الله على كل شىء مقيتا) أى وكان الله مقتدرا على كل شىء فهو لا يعجزه أن يعطى الشافع نصيبا وكفلا من شفاعته على قدرها فى النفع والضر ، ويجازى كلاًّ بما يستحق ، لأن سننه قد قضت بأن يربط الجزاء بالعمل .

وبعد أن علّم الله المؤمنين طريق الشفاعة الحسنة والسيئة وهى من أسباب التواصل بين الناس ، علمهم سنة التحية بينهم وبين إخوانهم ليؤدبهم بأدب دينه ويزكيهم ويطهر نفوسهم من الغل والحسد فقال :

(وإذا حييتم بتحية فحيوا بأحسن منها أو ردوها) أى إذا حياكم أحد بتحية فردوها بتحية مثلها ، أو بتحية أحسن منها ، فقولوا لمن قال : السلام عليكم — وعليكم السلام ، أو وعليكم السلام ورحمة الله ، وإذا قال هذا فى تحيته فالأحسن أن تقولوا : وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته ، وهكذا يزيد المجيب على المبتدئ كلمة أو أكثر .

وقد يكون حسن الجواب بمعناه أو كيفية أدائه وإن كان بمثل لفظ المبتدئ بالتحية أو مساويه فى الألفاظ أو أخصر منه ، فمن قال لك السلام عليكم بصوت خافت يشعر بقلة العناية فقلت له وعليكم السلام بصوت أرفع وباقبال يشعر بالعناية وزيادة الإقبال والتكريم كنت قد حييته بتحية أحسن من تحيته فى صفتها ، وإن كانت مثلها فى لفظها .

والخلاصة — أن الجواب عن التحية له مرتبتان : أدناهما ردها بعينها ، وأعلاهما الجواب عنها بأحسن منها ، والمجيب مخير بينهما ، وقد روى ابن جرير عن ابن عباس عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال « من سلم عليك من خلق الله فاردد عليه وإن كان مجوسيا فإن الله يقول (وإذا حييتم بتحية فحيوا بأحسن منها أو ردوها) ومن قال لخصمه السلام عليكم فقد أمّنه على نفسه وكانت العرب تقصد هذا المعنى والوفاء من شيمتها ، وبعض المسلمين الآن يكره أن يحييهم غيرهم بلفظ السلام ، كما يكرهون رد السلام على غير المسلم ، وكأنهم غفلوا عن أن الآداب الإسلامية إذا ألفت عرفوا فضل الإسلام وجذبهم ذلك إليه .

والسنة أن يسلم القادم على من يقدم عليه ، وإذا تلاقى الرجلان يبدأ الكبير فى السن أو القدر بالسلام ، وقد جاء فى الصحيحين أنه «يسلم الراكب على الماشى والماشى على القاعد والقليل على الكثير » وروى « أن النبى صلى الله عليه وسلم مرّ بصبيان فسلم عليهم» وروى الترمذى « أنه مر بنسوة فأومأ بيده بالتسليم » وقد ورد فى الصحيحين قوله صلى الله عليه وسلم « إن أفضل الإسلام وخيره إطعام الطعام وأن تقرأ السلام على من عرفت ومن لم تعرف » وروى الحاكم قوله صلى الله عليه وسلم « أفشوا السلام تسلموا » .

(إن الله كان على كل شىء حسيبا) أى إنه تعالى رقيب عليكم فى مراعاة هذه الصلة بينكم بالتحية ويحاسبكم على ذلك ، وفى هذا إشارة إلى تأكيد أمر هذه الصلة بين الناس ، ووجوب ردّ التحية على من يسلم علينا ويحيينا .

(الله لا إله إلا هو ليجمعنكم إلى يوم القيامة لا ريب فيه) جمعت هـذه الآية التوحيد والإيمان بالبعث والجزاء فى الدار الآخرة وهما الركنان الأساسيان للدين ، وقد أرسل الرسل جميعا لتبليغ الناس ما يجب عليهم من إقامتهما وتأييدهما بصالح الأعمال ، والقرآن قد يصرح بهما تارة معا ، وبالأول منهما تارة أخرى أثناء ذكر الأحكام إذ هما العون الأكبر والباعث الأقوى على العمل بها ولاسيما أحكام القتال الذى يبذل المرء فيه نفسه ونفيسه للدفاع عن حرية الدين ونشر هدايته وتأمين دعاته وأهله .

والمعنى — لا إله يعبد غيره فلا تقصروا فى عبادته والخضوع لأمره ونهيه ، فإن فى ذلك سعادتكم وارتقاء أرواحكم وعقولكم وتحريركم من رق العبودية لأمثالكم من البشر، بل من دونهم من المعبودات التى ذل لها المشركون ، وليس هذا هو كل الجزاء فإنه سيجمعكم ويحشركم إلى يوم القيامة ، وهو يوم لا ريب فيه ولا فيما يكون فيه من الجزاء على الأعمال .

(ومن أصدق من الله حديثا) أى لا أحد أصدق منه عز وجل ، إذ كلامه تعالى عن علم محيط بسائر الكائنات كما قال تعالى « لَا يَضِلُّ رَبِّى وَلَا يَنْسَى » فلا يمكن أن يكون خبره غير صادق بسبب النقص فى العلم أو الغرض أو الحاجة لأنه تعالى غنىّ عن العالمين .

أما كلام غيره فهو محتمل للصدق والكذب عن عمد وعلم أو عن سهو وجهل ، وقد دل الدليل على أن القرآن كلام الله فلم يبق عذر لمن قام عليه الدليل إذا آثر على قوله أقوال المخلوقين كما هو دأب الضالين .

فَمَا لَكُمْ فِى الْمُنَافِقِينَ فِئَتَيْنِ وَاللهُ أَرْكَسَهُمْ بِمَا كَسَبُوا أَتُرِيدُونَ أَنْ تَهْدُوا مَنْ أَضَلَّ اللهُ ، وَمَنْ يُضْلِلِ اللهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ سَبِيلاً (٨٨)

وَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا فَتَكُونُونَ سَوَاءً فَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ أَوْلِيَاءَ حَتَّى يُهَاجِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ، فَإِنْ تَوَلَّوْا فَخُذُوهُمْ وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا (٨٩) إِلَّا الَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ أَوْ جَاءُوكُمْ حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ أَنْ يُقَاتِلُوكُمْ أَوْ يُقَاتِلُوا قَوْمَهُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَسَلَّطَهُمْ عَلَيْكُمْ فَلَقَاتَلُوكُمْ ، فَإِنِ اعْتَزَلُوكُمْ فَلَمْ يُقَاتِلُوكُمْ وَأَلْقَوْا إِلَيْكُمُ السَّلَمَ فَمَا جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا (٩٠) سَتَجِدُونَ آخَرِينَ يُرِيدُونَ أَنْ يَأْمَنُوكُمْ وَيَأْمَنُوا قَوْمَهُمْ كُلَّمَا رُدُّوا إِلَى الْفِتْنَةِ أُرْكِسُوا فِيهَا ، فَإِنْ لَمْ يَعْتَزِلُوكُمْ وَيُلْقُوا إِلَيْكُمُ السَّلَمَ وَيَكُفُّوا أَيْدِيَهُمْ فَخُذُوهُمْ وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ ، وَأُولَئِكُمْ جَعَلْنَا لَكُمْ عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا مُبِينًا (٩١)

شرح المفردات

الفئة : الجماعة ، والركس بوزن النصر: إرجاع الشيء منكوسا على رأسه إن كان له رأس أو متحولا عن حال إلى أردأ منها كتحول الطعام والعلف إلى الرجيع والروث؛ والمراد به هنا تحولهم إلى الغدر والقتال بعد أن أظهروا الولاء والتحيز إلى المسلمين ، والسبيل : الطريق ، والولى : النصير والمعين ، يصلون أى يتصلون بهم ، الميثاق: العهد، حصرت : ضاقت ، السلم: الاستسلام والانقياد ، الفتنة الشرك ، ثقفتموهم وجدتموهم، السلطان المبين : الحجة الواضحة .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر سبحانه أحكام القتال وختمها ببيان أنه لا إله غيره يخشى ضره أو يرجى خيره فتترك هذه الأحكام لأجله ـ ذكر هنا أنه لا ينبغى التردد فى أمر المنافقين وتقسيمهم فئتين، مع أن دلائل كفرهم ظاهرة جلية، فيجب أن تقطعوا بكفرهم وتقاتلوهم حيثما وجدوا .

روى ابن جرير عن ابن عباس أنها نزلت فى قوم أظهروا الإسلام بمكة وكانوا يعينون المشركين على المسلمين فاختلف المسلمون فى شأنهم وتشاجروا فنزلت الآية .

الإيضاح

(فما لكم فى المنافقين فئتين) أى فما لكم صرتم فى المنافقين فئتين واختلفتم فى كفرهم مع تظاهر الأدلة عليه ، فليس لكم أن تختلفوا فى شأنهم ، بل عليكم أن تقطعوا بثبوته .

وهؤلاء فريق من المشركين كانوا يظهرون المودة للمسلمين والولاء لهم وهم كاذبون فيما يظهرون فضلهم مع أمثالهم من المشركين لكنهم يحتاطون و يظهرون الولاء للمسلمين إذا رأوا منهم القوة ، فإذا ماظهر لهم منهم ضعف انقلبوا عليهم وأظهروا لهم العداوة .

وكان المؤمنون فى أمرهم على فرقتين ، فرقة ترى أنهم يعدون من الأولياء و يستعان بهم على سائر المشركين الجاهرين لهم بالعداوة ، وفرقة ترى أن يعاملوا كما يعامل غيرهم من المشركين المعلنين العداوة .

(والله أركسهم بما كسبوا) أى كيف تفترقون فى شأنهم والله قد صرفهم عن الحق الذى أنتم عليه بما كسبوا من أعمال الشرك واجترحوا من المعاصى حتى إنهم لاينظرون إليكم نظرة المودة والإخاء، بل نظرة العداوة والبغضاء و يتربصون بكم الدوائر .

وقد جعلهم الله مركسين كأنهم قد نكسوا على رءوسهم وصاروا يمشون على وجوههم كما قال تعالى « أَفَمَنْ يَمْشِي مُكِبًّا عَلَى وَجْهِهِ أَهْدَى أَمَّنْ يَمْشِي سَوِيًّا عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ؟ » لأنهم قد فسدت فطرتهم وأحاطت بهم خطيئاتهم فأوغلوا فى الضلال و بعدوا عن الحق حتى لم يعد يجول فى أذهانهم إلا الثبات على ما هم فيه ومقاومة ماعداه .

وقد نسبه الله تعالى إليه لأنه ما كان سببا إلا بسنته فى تأثير الأعمال الاختيارية فى نفوس العاملين .

(أتريدون أن تهدوا من أضل الله ؟) أى إنه ليس فى استطاعتكم أن تبدلوا سنن الله فى نفوس الناس ، فتنالوا منها ضد ما يقتضيه ما ينطبع فيها من الأخلاق والصفات بتأثير ما كسبته طول عمرها من الأعمال .

(ومن يضلل الله فلن تجد له سبيلا) أى ومن تقضى سننه فى خلقه أن يكون ضالا عن طريق الحق فلن تجد له سبيلا يصل بسلوكها إليه، فإن للحق سبيلا واحدة هى صراط الفطرة المستقيم ، وللباطل سبل كثيرة عن يمين سبيل الحق وعن شمالها ، كل من سلك منها سبيلا بعد عن سبيل الحق بقدر إيغاله فى السبيل التى سلكها كما قال تعالى « وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيماً فَاتَّبِعُوهُ وَلاَ تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ » وقد أوضح النبى صلى الله عليه وسلم معنى الآية بالخطوط الحسية ، فخط فى الأرض خطا وجعله مثالا لسبيل الله ، وخط على جانبيه خطوطا لسبل الشيطان ، وهذه الخطوط المستقيمة لاتلتقى مع الأول بحال .

وسبيل الفطرة تقتضى أن يعرض الإنسان جميع أعماله على سنن العقل ويتبع ما يظهر له أنه الحق الذى فيه منفعته عاجلا وآجلا ، وفيه كماله الإنسانى .

وأكثر مايصده عن هذه السبيل التقليد والغرور وظنه أنه ليس هناك ماهو أكمل مما هو فيه ، وبهذا يقطع على نفسه طريق العقل والنظر والنفع والضر والحق والباطل .

وشبهته فى ترك صراط الفطرة أن عقله قاصر عن التمييز بين الحق والباطل

والخير والشر ، فعليه أن يتبع ما وجد عليه الآباء والأجداد من زعماء عصره ولو كانو لا يعقلون شيئا ولا يهتدون .

(ودوا لوتكفرون كما كفروا فتكونون سواء) أي إن هؤلاء لايقنعون بما هم عليه من الضلال والغواية بل يطمعون أن تكونوا أمثالهم وتحذوا حذوهم حتى يقضى على الإسلام الذى أنتم عليه ، وهذا منتهى ما يكون من الغلوّ والتمادى فى الكفر ، حيث لايكتفون بضلالهم بل يرجون إضلال غيرهم .

(فلا تتخذوا منهم أولياء حتى يهاجروا فى سبيل الله) أى وإذا كانت هذه حالهم فلا تتخذوا منهم أنصارا يساعدونكم على المشركين حتى يؤمنوا ويهاجروا ويتحدوا بكم فإن الصادقين فى إيمانهم لايدعون النبى صلى الله عليه وسلم ومن معه عرضة للخطر ولايتركون الهجرة إلا إذا عجزوا عنها، وإذا فتركهم لها علامة على نفاقهم الذى اختلفتم فيه.

(فإن تولوا فخذوهم واقتلوهم حيث وجدتموهم ولا تتخذوا منهم وليا ولا نصيرا) أى فإن أعرضوا عن الهجرة فى سبيل الله ولزموا مواضعهم فى خارج المدينة فخذوهم إذا قدرتم عليهم واقتلوهم أينما وجدتموهم فى الحل والحرم ، ولا تتخذوا منهم وليا يتولى شيئا من مهامّ أموركم ولا نصيرا ينصركم على أعدائكم .

وقد استثنى منهم من تؤمن غائلتهم بأحد أمرين :

(١) (إلا الذين يصلون إلى قوم بينكم وبينهم ميثاق) أى إلا الذين يتصلون بقوم معاهدين للمسلمين فيدخلون فى عهدهم ويرضون بحكمهم فيمتنع قتالهم مثلهم .

(أوجاءوكم حصرت صدورهم أن يقاتلوكم أو يقاتلوا قومهم) أى أو جاءوكم قد ضاقت صدورهم عن قتالكم وعن قتال قومهم فلا تنشرح لأحد الأمرين .

وخلاصة ذلك — أن يجيئوا المسلمين مسالمين لايقاتلونهم ولا يقاتلون قومهم معهم بل يكونون على الحياد فهم لايقاتلون المسلمين حفظا للعهد ولا يقاتلون قومهم لأنهم قومهم ، وقبول معذرة الفريقين موافق لما بنى عليه الإسلام من التسامح والسماحة وعدم الاعتداء كما قال « وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا » .

(ولو شاء الله لسلطهم عليكم فلقاتلوكم) أى إن الله تعالى رحمكم بأن كف بأس

هاتين الفئتين وصرفهم عن قتالكم وقذف الرعب فى قلوبهم ، ولو شاء لسلطهم عليكم: بأن يلهمهم من الآراء ويسوق إليهم من الأخبار مابه يرجحون ذلك فيقاتلوكم ولكنه بتوفيقه ونظامه فى الأسباب والمسببات وسننه فى الأفراد والجماعات جعل الناس فى ذلك العصر أصنافا ثلاثة :

(١) سليمو الفطرة الذين حصفت آراؤهم فسارعوا إلى الإيمان واستناروا بنور الإسلام.

(٢) المسالمون الذين رجحوا أن يكونوا على الحياد لا مع المشركين ولا مع المؤمنين

(٣) الموغلون فى الضلال والشرك والمحافظون على القديم وهم المحاربون .

(فإن اعتزلوكم فلم يقاتلوكم وألقوا إليكم السلم فما جعل الله لكم عليهم سبيلا) أى فإن اعتزلتكم إحدى هاتين الفئتين ولم تقاتلكم بل ألقت إليكم السلم وأعطتكم زمام أمرها ، فما جعل الله لكم من سبيل تسلكونها للاعتداء عليها ، إذ من قواعد ديننا ألا نعتدى إلا على من يعتدى علينا ولا نقاتل إلا من قاتلنا .

روى ابن أبى حاتم وابن مردويه عن الحسن أن سراقة بن مالك المدلجى حدثهم قال — لما ظهر رسول الله صلى الله عليه وسلم على أهل بدر وأحد وأسلم من حولهم قال سراقة بلغنى أنه عليه السلام يريد أن يبعث خالد بن الوليد إلى قومى من بنى مُدْلج فأتيته فقلت أنشدك النعمة ، فقالوا مه ، فقال دعوه ، ماتريد ؟ قلت بلغنى أنك تريد أن تبعث إلى قومى وأنا أريد أن توادعهم ، فإن أسلم قومك أسلموا ، وإن لم يسلموا لم تخش بقلوب قومك عليهم ، فأخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم بيد خالد فقال (اذهب معه فافعل مايريد) فصالحهم خالد على ألا يعينوا على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وإن أسلمت قريش أسلموا معهم ، ومن وصل إليهم من الناس كان له مثل عهدهم ، فأنزل الله تعالى (ودوا لو تكفرون — حتى بلغ — إلا الذين يصلون) فكان من وصل إليهم كانوا معهم على عهدهم .

وقال الرازى : إن النبى صلى الله عليه وسلم وادع وقت خروجه إلى مكة هلال ابن عويمر الأسلمى على ألا يعينه ولا يعين عليه ، وعلى أن كل من وصل إلى هلال ولجأ إليه فله من الجوار مثل مالهلال .

(ستجدون آخرين يريدون أن يأمنوكم ويأمنوا قومهم) هؤلاء فريق ممن لم يهتدوا بالإسلام ولم يتصدوا إلى مجالدة أهله وقتالهم فكانوا مذبذبين بين المؤمنين والكافرين ، فهم قد غلت عليهم أرواحهم ورخصت عليهم عقولهم ، يظهرون لكل من الفئتين أنهم منهم أو معهم ؛ وقد روى عن مجاهد أن ناسا كانوا يأتون النبي صلى الله عليه وسلم فيسلمون رياء ثم يرجعون إلى قريش فيرتكسون في الأوثان يبتغون بذلك أن يأمنوا هاهنا وهاهنا فأمر بقتالهم إن لم يعتزلوا ويصلحوا .

(كلما ردوا إلى الفتنة أركسوا فيها) أى كلما دعوا إلى الشرك (كما روى عن السدى) أركسوا فيه وتحولوا إليه أقبح تحول، فهم يريدون أن يأمنوا جانب المسلمين إما بإظهار الإسلام وإما بالعهد على السلم وترك القتال ثم يفتنهم المشركون أى يحملونهم على الشرك أو على مساعدتهم على قتال المسلمين فيرتكسون ويتحولون شر التحول معهم ، وهكذا يفعلون ذلك المرة بعد المرة فهم قد مردوا على النفاق .

وقد بين الله حكمهم بقوله :

(فإن لم يعتزلوكم ويلقوا إليكم السلم ويكفوا أيديهم فخذوهم واقتلوهم حيث ثقفتموهم) أى فإن لم يعتزلوكم ويتركوكم وشأنكم ويلتزموا الحياد ويلقوا إليكم السلم أى زمام المسالمة على الطريق التى ترونها نافعة لكم ، ويكفوا أيديهم عن القتال مع المشركين أو عن الدسائس ـ فخذوهم واقتلوهم حيث وجدتموهم فلا علاج لهم غير ذلك كما ثبت بالتجارب والاختبار .

(وأولئكم جعلنا لكم عليهم سلطانا مبينا) أى جعلنا لكم عليهم حجة واضحة وبرهانا ظاهرا على قتالهم.

قال الرازى : قال الأكثرون وهذا يدل على أنهم إذا اعتزلوا قتالنا وطلبوا الصلح منا وكفوا أيديهم عن قتالنا لم يجز لنا قتالهم ولا قتلهم .

ونظيره قوله « وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا » إذ خص فيها الأمر بقتال من يقاتلنا دون من لم يقاتلنا .

وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَنْ يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلاَّ خَطَأً ، وَمَنْ قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَأً فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ وَدِيَةٌ مُسَلَّمَةٌ إِلَى أَهْلِهِ إِلاَّ أَنْ يَصَّدَّقُوا ، فَإِنْ كَانَ مِنْ قَوْمٍ عَدُوٍّ لَكُمْ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ ، وَإِنْ كَانَ مِنْ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ فَدِيَةٌ مُسَلَّمَةٌ إِلَى أَهْلِهِ وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ ، فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ تَوْبَةً مِنَ اللهِ ، وَكَانَ اللهُ عَلِيماً حَكِيماً (٩٢) وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا ، وَغَضِبَ اللهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَاباً عَظِيماً (٩٣)

المعنى الجملى

بعد أن بين الله تعالى أحكام قتال المنافقين الذين يظهرون الإسلام خداعا ويسرون الكفر ويساعدون أهله على قتال المؤمنين ، والذين يعاهدون المسلمين على السلم ويحالفونهم على الولاء والنصر ، ثم يغدرون ويكونون عونا لأعدائهم عليهم — ذكر هنا قتل من لا يحل قتله من المؤمنين والمعاهدين والذميين وما يقع منهم من ذلك عمدا أو خطأ .

الإيضاح

(وما كان لمؤمن أن يقتل مؤمنا إلا خطأ) أى ليس من شأن المؤمن ولا من خُلُقه أن يقتل أحدا من المؤمنين ، إذ الإيمان وهو صاحب السلطان على النفس والحاكم على الإرادة والمصرف لها يمنعه أن يجترح هذه الكبيرة عمدا لكنه قد يفعل ذلك خطأ (والخطأ مالا يقارنه قصد إلى الفعل أو الشخص أو لا يقصد به زهوق الروح غالبا) .

ذلك أنه لا يكمل إيمان المؤمن إذا شعر بحقوق الإيمان عليه وهى حقوق لله وحقوق للعباد ، ومن الثانية القصاص لما فى ذلك من الزجر عن القتل ولما فى تركه من الاستهزاء بحقوق الدماء ، ومن استهزأ بها كان قد انتهك أكبر حقوق الأمة وهد ركنا من أركان الإيمان، يرشد إلى ذلك قوله «مَنْ قَتَلَ نَفْساً بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِى الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعاً» .

وسبب العقوبة على الفعل الخطأ كالقتل أن الخطأ لا يخلو من التهاون وعدم العناية بالاحتياط ، ومثله النسيان ، إذ من شأنهما أن يعاقب الله عليهما ، ومن ثم أمرنا الله تعالى أن ندعوه ألا يؤاخذنا عليهما بقوله « رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا » كما ثبت بنص القرآن أن آدم نسى وسميت مخالفته معصية وعوقب عليها لكن ورد فى السنة قوله صلى الله عليه وسلم « وضع الله عن هذه الأمة ثلاثا : الخطأ والنسيان والأمر يكرهون عليه » رواه ابن ماجه .

روى ابن جرير فى سبب نزول الآية عن عكرمة قال « كان الحرث بن يزيد من بنى عامر بن لؤى يعذب عياش بن أبى ربيعة مع أبى جهل ، ثم خرج الحرث مهاجراً إلى النبى صلى الله عليه وسلم فلقيه عياش بالحَرَّة (من أرباض المدينة) فعلاه بالسيف وهو يحسب أنه كافر ، ثم جاء إلى النبى صلى الله عليه وسلم فأخبره فنزلت الآية فقرأها النبى صلى الله عليه وسلم ثم قال له : قم فحرر » .

(ومن قتل مؤمنا خطأ فتحرير رقبة مؤمنة) تحرير الرقبة عتقها من الرق أى ومن قتل مؤمنا خطأ بأن أراد رمى صيد أو غرض فأصاب مؤمنا، أو ضربه بما لا يقتل عادة كأن صفعه باليد أو ضربه بعصا فمات وهو لم يكن يقصد قتله ، فعليه عتق رقبة من أهل الإيمان ، لأنه لما أعدم نفسا مؤمنة كان كفارته أن يوجد نفسا (والعتق كالإيجاد من العدم) .

(ودية مسلمة إلى أهله) الدية هى المال الواجب بالجناية على الحر فى النفس أو فيما دونها ويعطى إلى ورثة المقتول عوضا عن دمه أى وعليه من الجزاء على عتق

الرقبة دية يدفعها إلى أهل المقتول ، وقد بينتها السنة وحددتها على الوجه الذى كان مقبولا عند العرب ، وهى مائة بعير مختلفة فى السن أو قيمتها إذا حصل التراضى بين الدافع والمستحق ، ودية المرأة نصف دية الرجل لأن المنفعة التى تفوت أهل الرجل بفقده أعظم من المنفعة التى تفوت بفقدها .

وقد روى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كتب إلى أهل اليمن كتابا جاء فيه « إن من اعتبط (قتل بغير سبب شرعى) مؤمنا قتلا عن بينة فإنه قود (أى قصاص يقتل به) إلا أن يرضى أولياء المقتول – وإن فى النفس الدية مائة من الإبل – ثم قال وعلى أهل الذهب ألف دينار » وفى هـذا دليل على أن دية الابل على أهلها إذا كانت هى رأس أموالهم ، وأن الذين يتعاملون بالذهب كأهل المدن تكون من الذهب أو الفضة وعلى أن هذا أصل لاقيمة للابل .

(إلا أن يصدّقوا) أى إن الدية تجب على القاتل قتلا خطأ لأهل المقتول إلا أن يعفوا عنها و يسقطوها باختيارهم ، لأنها إنما وجبت تطييبا لقلوبهم حتى لاتقع عداوة ولا بغضاء بينهم و بين القاتل ، وتعويضا عما يفوتهم من المنفعة بقتله ، فإذا هم عفوا فقد طابت نفوسهم وانتفى المحذور وكانوا هم ذوى الفضل على القاتل ، وقد سمى الله هذا العفو تصدقا ترغيبا فيه .

(فإن كان من قوم عدو لكم وهو مؤمن فتحرير رقبة مؤمنة) أى فإن كان المقتول من أعدائكم وهو مؤمن كالحرث بن يزيد كان من قريش وهم أعداء النبى صلى الله عليه وسلم والمؤمنون فى حرب معهم ولم يعلم المسلمون إيمانه لأنه لم يهاجر وقد قتله عياش حين خروجه مهاجرا وهو لم يعلم بذلك ، ومثله كل من آمن فى دار الحرب ولم يعلم المسلمون بإيمانه حين قتله – فالواجب على قاتله عتق رقبة من أهل الإيمان فقط ، ولا تجب الدية لأهله لأنهم أعـداء يحاربون المسلمين فلا يعطون من أموالهم مايستعينون به على قتالهم والتنكيل بهم .

(وإن كان من قوم بينكم وبينهم ميثاق) وهم الذين عاهدوكم على السلم لا يقاتلونكم ولا تقاتلونهم كما هو حال الدول فى العصر الحاضر يعقد بعضهم معاهدات ومواثيق مع بعض آخر ألا يقاتلوهم ولا يساعدوا عليهم عدوا .

(فدية مسلمة إلى أهله وتحرير رقبة مؤمنة) أى فالواجب فى قتل المعاهد كالواجب فى قتل المؤمن دية إلى أهله تكون عوضا عن حقهم ، وعتق رقبة مؤمنة تكون كفارة عن حق الله الذى حرم قتل المعاهد كما حرم قتل المؤمن ، ولم يعين هذه الدية للاشارة إلى أن للعرف العام والخاص حكمه ولا سيما إذا ذكر ذلك فى عقد الميثاق الذى بينهما ، لأن هذا النص يكون أقطع لعرق النزاع وأجدر بالتراضى .

وقد اختلف الفقهاء فى دية غير المسلمين لاختلاف الرواية فى ذلك ، روى أحمد والترمذى أن النبى صلى الله عليه وسلم قال «عقل(دية) الكافر نصف دية المسلم» وروى عن أحمد « أن ديته كدية المسلم إن قتل عمدا وإلا فنصف ديته » ، وذهب الزهرى وأبو حنيفة إلى أن ديته كدية المسلم لظاهر الآية فى أهل الميثاق وهم المعاهدون وأهل الذمة ، وعلى الجملة فالروايات متعارضة ومن ثم اختلف فيها الفقهاء .

وظاهر الآية يدل على أن الدية على القاتل ولكن السنة بينت أن العاقلة (العائلة) وهم عصبته الأقربون هم الذين يدفعون الدية .

وحكمة هذا تقرير التضامن بين الأقربين ، وإذا عجزت العاقلة عن دفعها جعلت فى بيت المال (وزارة المالية) .

(فمن لم يجد فصيام شهرين متتابعين) أى فمن لم يجد رقبة يعتقها بأن لم يجد مالا يشتريها به من مالكها ليحررها من الرق ، أو لم يجد رقيقا (وهذا مقصد من مقاصد الإسلام) فعليه صيام شهرين متتابعين قمريين لا يفصل بين يومين منهما إفطار فى النهار ، فإن أفطر يوما بغير عذر شرعى استأنفه وكان ما صامه قبل كأن لم يكن.

(توبة من الله) أى قد شرعها لكم ليتوب عليكم ويطهر نفوسكم من التهاون وقلة التحرى التى تفضى إلى القتل الخطأ .

(وكان الله عليما حكيما) أى وكان الله عليما بأحوال النفوس وما يطهرها ، حكيما فيما شرعه من الأحكام والآداب التى بها هدايتكم و إرشادكم إلى ما فيه سعادتكم فى الدنيا والآخرة .

(ومن يقتل مؤمنا متعمدا فجزاؤه جهنم خالدا فيها وغضب الله عليه ولعنه وأعدّ له عذابا عظيما) خالدا فيها أى ماكثا إلى الأبد أو ماكثا مكثا طويلا ، غضب الله عليه أى انتقم منه ، لعنه أبعده عن رحمته ، أعد له أى هيأ له .

وللعلماء فى توبة قاتل المؤمن عمدا آراء ثلاثة :

(١) يرى ابن عباس وفريق من السلف أن قاتل المؤمن عمدا لا تقبل له توبة وهو خالد فى النار أبدا، ويدل على ذلك ما أخرجه أحمد والنسائى عن معاوية قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « كل ذنب عسى الله أن يغفره إلا الرجل يموت كافرا أوالرجل يقتل مؤمنا متعمدا»، وأخرج البيهقى عن ابن عمر قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «من أعان على دم امرئ مسلم بشطر كلمة كتب بين عينيه يوم القيامة آيس من رحمة الله تعالى» ، وروى عن البراء بن عازب أن النبى صلى الله عليه وسلم قال « لزوال الدنيا وما فيها أهون عند الله من قتل مؤمن، ولوأن أهل سمواته وأهل أرضه اشتركوا فى دم مؤمن لأدخلهم الله تعالى النار» ، وعن ابن عمر أنه عليه السلام قال« لوأن الثقلين اجتمعوا على قتل مؤمن لأكبهم الله تعالى على مناخرهم فى النار و إن الله تعالى حرم الجنة على القاتل والآمر به » .

وهؤلاء يرون أن التائب من الشرك وقد كان قاتلا زانيا تقبل توبته ولا تقبل توبة المؤمن الذى ارتكب القتل وحده ، إذ الأول لم يؤمن بالشريعة التى تحرم هذه الأمور فله شبه عذر إذا هو كان متبعا لهواه بالكفر وما يتبعه ولم يكن ظهر له صدق النبوة ، فلما ظهر له الدليل على أن ما كان عليه كفر وضلال وتاب وأناب وعمل صالحا كان جديرا بالعفو .

وأما المؤمن الموقن بصحة النبوة وحرمة القتل فلا عذر له ، إذ هو يعلم أن المؤمن أخ له ونصير فكيف يعمد بعد هذا إلى الاستهانة بأمر الله وحكمه وتوهين أمر دينه بهدم أركان قوته ، ومن ثم يهن المسلمون ويضعفون ويكون بأسهم بينهم شديدا .

وإنك لترى أنه ما انحلت الرابطة بين المسلمين وانفصمت عروة الوفاق بينهم إلا بعد أن أقدم بعضهم على سفك دماء بعض ورجحوا شهوة الغضب والانتقام على أمر الله تعالى ، ومن رجح شهوات نفسه الضارة على أمر الله وعلى مصلحة المؤمنين بغير شبهة فهو جدير بالخلود فى النار والغضب واللعنة ، إذ هؤلاء قد تجرءوا على حدود دينه ولم يبق للشرع حرمة فى قلوبهم .

قال فى الكشاف — هذه الآية فيها من التهديد والإيعاد والإبراق والإرعاد أمر عظيم وخطب جليل ، ومن ثم روى عن ابن عباس أن توبة قاتل المؤمن عمدا غير مقبولة ... والعجب من قوم يقرءون هـــذه الآية ويرون ما فيها ويسمعون هذه الأحاديث (الأحاديث التى تقدم ذكرها) وقول ابن عباس بمنع التوبة ثم لا تدعهم أشعبيتهم وطماعيتهم الفارغة واتباعهم هواهم وما يخيل إليهم مناهم أن يطمعوا فى العفو عن قاتل المؤمن بغير توبة (أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها) اهـ .

(٣) يرى فريق آخر أن المراد بالخلود المكث الطويل لا الدوام لتظاهر النصوص القاطعة بأن عصاة المؤمنين لا يدوم عذابهم ، ومافى الآية إخبار من الله بأن جزاءه ذلك ، لا بأنه يجزيه ذلك كما جاء فى قوله عز اسمه « وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا » فإنه لو كان المراد منها أنه سبحانه يجزى كل سيئة بمثلها لعارضه قوله جل شأنه « وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ » ومن ثم روى عن النبى صلى الله عليه وسلم مرفوعا أنه قال هو جزاؤه إن جازاه ، وبهذا قال جمع من العلماء وقالوا هو كما يقول الإنسان لمن نزجره عن أمر : إن فعلت فجزاؤك القتل والضرب ، وهو إن لم يجازه لم يكن كذابا ، وقد روى عن ابن عباس جواز المغفرة بلا توبة أيضا ، وقال فى الآية هى جزاؤه ، فإن شاء عذبه ، وإن شاء غفر له .

(٣) ويرى فريق ثالث أن حكم الآية إنما هو للقاتل المستحل ، وحكمه مما لا شك فيه ، وعكرمة وابن جريج فسرا متعمدا مستحلا فى الآية

أى : ومن يقتل مؤمنا متعمدا لقتله مستحلا له ، فجزاؤه جهنم خالدا فيها أبدا.

يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللهِ فَتَبَيَّنُوا وَلاَ تَقُولُوا لِمَنْ أَلْقَى إِلَيْكُمُ السَّلاَمَ لَسْتَ مُؤْمِناً تَبْتَغُونَ عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَعِنْدَ اللهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ ، كَذَلِكَ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلُ فَمَنَّ اللهُ عَلَيْكُمْ فَتَبَيَّنُوا إِنَّ اللهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا (٩٤)

شرح المفردات

الضرب فى الأرض : السير فيها بالسفر للتجارة أو الجهاد ، لأن المسافر يضرب الأرض برجليه وعصاه أو بقوائم راحلته ، فى سبيل الله أى لجهاد أعدائكم ، فتبينوا أى تثبتوا وتأنوا ، ألقى إليكم السلام أى انقاد واستسلم لكم فلم يقاتلكم ، عرض الحياة الدنيا أى متاعها الحاضر الذى يأخذ منه البر والفاجر ، مغانم كثيرة أى رزق وفضل كثير .

المعنى الجملى

بعد أن بين الله تعالى فى الآيات السابقة أنه ليس من شأن المؤمن أن يقتل مؤمنا إلا على سبيل الخطأ ، وأن من قتل مؤمنا متعمدا فلا جزاء له إلا جهنم خالدا فيها أبدا .

أراد هنا أن ينبه المؤمنين إلى ضرب من ضروب قتل الخطأ كان يحصل فى ذلك العهد عند السفر إلى أرض المشركين حين انتشر الإسلام ولم يبق مكان فى بلاد العرب وقبائلهم يخلو من المسلمين أو ممن يميل إلى الإسلام ويتحينون الفرص للاتصال

بأهله ، فأعلمهم ألا يحسبوا كل من يجدونه فى دار الكفر كافرا ، وأن يتبينوا من تظهر عليهم علامات الإسلام كالشهادة والسلام الذى هو تحية المؤمنين، وألا يحملوا مثل هذا على الخداع، إذ ربما يكون الإيمان قد طاف على هذه القلوب وألمّ بها إن لم يكن قد تمكن فيها ، ومن ثم أمر بالتثبت ونهى عن إنكار إسلام من يدعى الإسلام ولو بإلقاء تحيته ، فما بالك بمن ينطق بالشهادتين ، وأبان أن الذى يدعوه إلى ظن هذا الظن إنما هو ابتغاء عرض الحياة الدنيا ، وبهذا أرشد المؤمن إلى أن يتهم نفسه ويفتش عن قلبه ولا يبنى الظن على ميله وهواه ، بل عليه أن يتقبل الظاهر حتى يستبين له خلافه .

وفى سبب نزول هذه الآية روايات كثيرة : منها ما أخرجه البخارى والترمذى والحاكم وغيرهم عن ابن عباس قال « مر رجل من بنى سليم بنفر من أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم وهو يسوق غنما له فسلم عليهم ، فقالوا ما سلم علينا إلا ليتعوذ منا ، فعمدوا إليه فقتلوه وأتوا بغنمه النبى صلى الله عليه وسلم فنزلت الآية » .

وأخرج أحمد والطبرانى وغيرهما عن عبد الله بن أبى حَدْرَد الأسلمى قال : « بعثنا رسول الله صلى الله عليه وسلم فى نفر من المسلمين فيهم أبو قتادة ومُحلِّم بن جثامة ، فمر بنا عامر بن الأضبط الأشجعى فسلم علينا فحمل عليه محلم فقتله ، فلما قدمنا على النبى صلى الله عليه وسلم وأخبرناه الخبر نزل فينا القرآن (يأيها الذين آمنوا إذا ضربتم فى سبيل الله) الآية » . وأخرج البزار من وجه آخر عن ابن عباس قال : « بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم سرية فيها المقداد ، فلما أتوا القوم وجدوهم قد تفرقوا وبقى رجل له مال كثير فقال أشهد أن لا إله إلا الله ، فقتله المقداد فقال له النبى صلى الله عليه وسلم كيف لك بلا إله إلا الله غدا ؟ وأنزل الله هذه الآية » .

ولا مانع من تعدد الوقائع قبل نزول الآية وأن النبى صلى الله عليه وسلم كان يقرؤها على أصحاب كل واقعة فيرون أنهم سبب نزولها .

الإيضاح

(يأيها الذين آمنوا إذا ضربتم فى سبيل الله فتبينوا) أى يأيها الذين صدقوا الله وصدقوا رسوله واتبعوا الأوامر وتركوا النواهى ، إذا سرتم للغزو وجهاد الأعداء رفعة لدينه وإعلاء لكلمته تأنوا فى قتل من اشتبه عليكم أمره فلم تعلموا أمسلم هو أم كافر؟ ولا تعجلوا فى قتل أحد إلا إذا علمتم يقينا أنه حرب لكم ولله والرسول .

(ولا تقولوا لمن ألقى إليكم السلام لست مؤمنا تبتغون عرض الحياة الدنيا) أى ولا تقولوا لمن انقاد لكم واستسلم ولم يقاتلكم وأظهر أنه من أهل ملتكم ـ إنك لست بمؤمن حقا فتقتلوه ابتغاء متاع الدنيا وحطامها الزائل السريع التحول والانتقال فعند الله أرزاق كثيرة ونعم لا تحصى ولا تعد ، يغنمكموها فيغنيكم إذا شاء .

(كذلك كنتم من قبل فمنّ الله عليكم) أى إنكم أول مادخلتم فى الإسلام حقنت دماؤكم وأموالكم بالنطق بكلمة الشهادة من غير انتظار لمعرفة أن ما فى القلب موافق لما فى اللسان ، ومنّ الله عليكم بذلك ، فعليكم أن تعملوا مع الداخلين فى الإسلام كما عمل معكم وأن تعتبروا بظاهر القول ولا تقولوا إن إقدامهم على التكلم بهذه الكلمة إنما كان لأجل الخوف من السيف .

(فتبينوا) أى كونوا على بينة من الأمر الذى تقدمون عليه ولا تأخذوا بالظن ، بل تدبروا ليظهر لكم أن الإيمان العاصم من حقن الدماء يكفى فيه ظاهر الحال كما كفى معكم من قبل ، وفى إعادة التبيين مرة أخرى المبالغة فى التحذير من ذلك الفعل والوعيد عليه .

(إن الله كان بما تعملون خبيرا) أى إنه تعالى خبير بأعمالكم لا يخفى عليه شئ من البواعث التى حفزتكم على الفعل ، فإن كانت ابتغاء حظ الحياة الدنيا فهو يجازيكم على ذلك فلا تفعلوا بل تثبتوا وتبينوا ، وإن كان محض الدفاع عن الحق فهو مثيبكم على ذلك ، وفى هذا وعيد وتحذير شديد من الوقوع فى مثل هذا الخطأ .

وكذلك فيه إرشاد إلى ألا نحكم بتكفير من يخالفنا من أهل القبلة والعلم الصحيح والدعوة إلى كتاب الله وسنة رسوله بمجرد المخالفة لنا فى رأى أو عقيدة ، فإن مثل هذا لا يقدم عليه المسلم جزافا .

وعلينا أن ننظر بعد هذا كله إلى أن الإسلام منع قتل من يلقى السلم ومن بينه وبين المسلمين عهد وميثاق إما على النصر وإما على ترك القتال ، ورغب عن ابتغاء عرض الدنيا بالقتال ، ليكون لمحض رفع العدوان والبغى وتقرير الحق والإصلاح .

وأين هـذا مما تفعله الدول الآن من القتال للربح وجمع الأموال وهم ينقضون العهد والميثاق مع الضعفاء ولا يلتزمون حفظ المعاهدات إلا مع الأقوياء ؟.

لَا يَسْتَوِى الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِى الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِى سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ ، فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً ، وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى ، وَفَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْرًا عَظِيماً (٩٥) دَرَجَاتٍ مِنْهُ وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةً ، وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا (٩٦)

شرح المفردات

الضرر : المرض والعلل التى يعجز صاحبها معها عن الجهاد كالعمى والعرج ، المثوبة الحسنى : هى الجنة .

المعنى الجملى

بعد أن عاتب الله المؤمنين على ما صدر منهم من قتل من تكلم بالشهادة ــ ذكر فضيلة الجهاد وأن من نصب نفسه له فقد فاز فوزا عظيما فعليه أن يحترز من الوقوع فى الهفوات التى تخلّ بهذا المنصب العظيم .

روى أن الآية نزلت فى كعب بن مالك من بنى سلمة ومرارة بن الربيع من بنى عمرو بن عوف والربيع وهلال بن أمية من بنى واقف حين تخلفوا عن رسول الله فى غزوة بدر .

الإيضاح

(لا يستوى القاعدون من المؤمنين غير أولى الضرر والمجاهدون فى سبيل الله بأموالهم وأنفسهم) أى لا يكون القاعدون عن الجهاد بأموالهم بخلا بها وحرصا عليها، وبأنفسهم إيثارا للراحة والنعيم على التعب وركوب الأخطار - مساوين للمجاهدين الذين يبذلون أموالهم فى الاستعداد للجهاد بالسلاح والخيل والمئونة، ويبذلون أنفسهم بتعريضها للقتل فى سبيل الحق ومنع تعدى حزب الطاغوت، لأن المجاهدين هم الذين يحمون الأمة والبلاد، والقاعدين لا يأخذون حذرهم ولا يعدون عدتهم للدفاع ويكونون عرضة لتعدى غيرهم عليهم كما قال تعالى « وَلَوْلَا دَفْعُ اللهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ » أى بغلبة أهل الطاغوت عليها، ولكن النكوص عن الجهاد لا يكون مذمة وبخلا إلا مع القدرة، أما مع العجز والضرر كالعمى والزمانة والمرض فلا تبعة فيه حينئذ .

ثم بين ما أجمله أولا من التفاضل الذى بين الفريقين وعدم تساويهما فقال :

(فضل الله المجاهدين بأموالهم وأنفسهم على القاعدين درجة) أى إن الله تعالى رفع المجاهدين على القاعدين درجة لا يقدر قدرها ولا يدرك كنهها، وهى ما خولهم الله عاجلا فى الدنيا من الغنيمة والظفر والذكر الجميل ودفع شر الأعداء عن الأمة والبلاد

(وكلا وعد الله الحسنى) أى ووعد الله كلا ممن جاهد وقعد عن الجهاد عجزا منه مع تمنى القدرة عليه المثوبة الحسنى وهى الجنة، فكل منهما كامل الإيمان مخلص لله فى العمل .

(وفضل الله المجاهدين على القاعدين أجرا عظيما) أى وفضل الله المجاهدين بأموالهم وأنفسهم على القاعدين من غير أولى الضرر أجرا عظيما .

(درجات منه ومغفرة ورحمة) هذا بيان للأجر العظيم ، وتلك الدرجات هى ما ادخره الله لعباده من المنازل الرفيعة التى يقصر الحصر عن عدها كما قال تعالى « انْظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَلَلْآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلاً » ودرجات الآخرة مبنية على درجات الدنيا من قوة الإيمان بالله وإيثار رضاه على الراحة والنعيم وترجيح المصلحة العامة على الشهوات الخاصة .

والمغفرة المقرونة بهذه الدرجات هى المغفرة لما يفرط منهم من الذنوب التى لا تكفرها سائر الحسنات التى يأتى بها القاعدون .

والرحمة هى ما يخصهم به الرحمن زيادة على ذلك من فضله وإحسانه ، وقد صح من حديث أنس رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما رجع من غزوة تبوك ودنا من المدينة قال «إن فى المدينة لأقواما ما سرتم من مسير ولا قطعتم من واد إلا كانوا معكم فيه قالوا يارسول الله وهم بالمدينة ؟ قال نعم وهم بالمدينة حبسهم العذر» .

(وكان الله غفورا رحيما) أى وكان شأن الله وصفته الغفران لمن يستحق المغفرة والرحمة لمن يؤتيه ذلك تفضلا منه وإحسانا .

إِنَّ الذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ ؟ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ ، قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا ، فَأُولَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيرًا (٩٧) إِلَّا الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلاً (٩٨) فَأُولَئِكَ عَسَى اللهُ أَنْ يَعْفُوَ عَنْهُمْ وَكَانَ اللهُ عَفُوًّا غَفُورًا (٩٩)

وَمَنْ يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَجِدْ فِي الْأَرْضِ مُرَاغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً ، وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ، ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ ، وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا (١٠٠)

شرح المفردات

توفى الشيء : أخذه وافيا تاما، وتوفى الملائكة للناس : قبض أرواحهم حين الموت، والمأوى : المسكن ، مراغما : مكانا للهجرة ومأوى يصيب فيه الخير والسعة فيرغم بذلك أنوفهم ، وقع أجره على الله أى وجب ، والوقوع والوجوب يتواردان على معنى واحد .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر سبحانه فى الآية السالفة فضل المجاهدين فى سبيل الله على القاعدين بغير عجز - ذكر حال قوم أخلدوا إلى السكون وقعدوا عن نصرة الدين ، وعذروا أنفسهم بأنهم فى أرض الكفر حيث اضطهدهم الكافرون ومنعوهم من إقامة الحق وهم عاجزون عن مقاومتهم ، ولكنهم فى الحقيقة غير معذورين ، لأنه كان يجب عليهم الهجرة إلى المؤمنين الذين يعتزون بهم ، إذ هم بحبهم لبلادهم وإخلادهم إلى أرضهم وسكونهم إلى أهليهم ومعارفهم ضعفاء فى الحق لا مستضعفون ، وهم بضعفهم هذا قد حرموا أنفسهم بترك الهجرة من خير الدنيا مما أفاء الله به على المؤمنين ، ومن خير الآخرة بإقامة الحق وإعلاء كلمة الدين .

وظلمهم لأنفسهم : هو تركهم العمل بالحق خوفا من الأذى وفقد الكرامة عند ذوى قرابتهم من المبطلين .

وهذا الاعتذار وما أشبهه مما يعتذر به الذين سايروا أهل البدع على بدعهم فى عصرنا الحاضر بحجة دفع الأذى عن أنفسهم بمداراة المبطلين ، وذلك عذر لا يعتد

به ، إذ الواجب عليهم إقامة الحق مع احتمال الأذى فى سبيل الله، أو الهجرة إلى حيث يتمكنون من إقامة دينهم .

أخرج ابن المنذر وابن جرير عن ابن عباس قال « إن سبب نزول الآية أن قوما من أهل مكة قد أسلموا وكانوا يخفون الإسلام فأخرجهم المشركون معهم يوم بدر فأصيب بعضهم فقال المسلمون هؤلاء كانوا مسلمين فأكرهوا فاستغفروا لهم فنزلت الآية فكتبوا بها إلى من بقى بمكة منهم وأنه لاعذر لهم فخرجوا فلحق بهم المشركون ففتنوهم فرجعوا فنزلت « وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللهِ فَإِذَا أُوذِىَ فِى اللهِ جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذَابِ اللهِ » فكتب إليهم المسلمون بذلك فتحزنوا فنزلت « ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا فُتِنُوا » الآية فكتبوا إليهم بذلك فخرجوا فلحقوهم فنجا من نجا وقتل من قتل» .

الإيضاح

(إن الذين توفاهم الملائكة ظالمى أنفسهم) أى إن الذين تتوفاهم الملائكة وتقبض أرواحهم حين انتهاء آجالهم حالة كونهم ظالمى أنفسهم برضاهم بالإقامة فى دار الذل والظلم حيث لاحرية لهم فى أعمالهم الدينية ولا يتمكنون من إقامة دينهم ونصره وتأييده .

(قالوا فيم كنتم ؟) أى تقول لهم الملائكة بعد توفيها لهم فى أىّ شىء كنتم من أمر دينكم ؟ أى إنهم لم يكونوا فى شىء منه ، إذ هم قدروا على الهجرة ولم يهاجروا .

(قالوا كنا مستضعفين فى الأرض) هذا اعتذار عن تقصيرهم الذى وبخوا عليه. أى إننا لم نستطع أن نكون فى شىء يعتد به من أمر ديننا لاستضعاف الكفار لنا فعجزنا عن القيام بواجبات الدين بين أهل مكة ، وهذه حجة لم تتقبلها الملائكة ومن ثم ردوا عليهم المعذرة فقالوا لهم :

(ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها ؟) وترحلوا إلى قطر آخر من الأرض

تقدرون فيه على إقامة الدين وتحرروا أنفسكم من رق الذل الذى لايليق بالمؤمن ، ولا هو من خصاله .

(فأولئك مأواهم جهنم) أى إن أولئك الذين فصلت حالهم الفظيعة نسكنهم فى الآخرة جهنم لتركهم ما كان مفروضا عليهم؛ إذ كانت الهجرة واجبة فى صدر الإسلام .

(وساءت مصيرا) أى وقبحت جهنم مصيرا لهم لأن كل ما فيها يسوءهم ، وفى هذا إيماء إلى أن الرجل إذا كان فى بلد لايتمكن فيه من إقامة دينه كما يجب لبعض الأسباب ، أو علم أنه فى غير بلده أقوم بحق الله وأدوم على العبادة وجبت عليه الهجرة . أما المقيم فى دار الكفر ولا يمنع ولا يؤذى إذا هو عمل بدينه وأقام أحكامه بلا نكير فلا يجب عليه أن يهاجر، كما هو مشاهد من المسلمين المقيمين فى بلاد الإنكليز الآن، إلى أن الإقامة فيها ربما كانت سببا من أسباب ظهور محاسن الإسلام وإقبال الناس عليه .

(إلا المستضعفين من الرجال والنساء والولدان) أى إن أولئك الذين اعتذروا عن عدم إقامة دينهم وعدم الفرار به هجرة إلى الله ورسوله غير صادقين فى اعتذارهم . أما الاستضعاف الحقيقى فهو عذر مقبول كأولئك الشيوخ الضعفاء والعجزة كعياش ابن أبى ربيعة وسلمة بن هشام ، والنساء كأم الفضل أم عبد الله بن عباس ، والولدان كعبد الله المذكور وغيره .

(لايستطيعون حيلة ولا يهتدون سبيلا) أى إنهم قد ضاقت بهم الحيل فلم يستطيعوا ركوب واحدة منها ، وعميت عليهم الطرق فلم يهتدوا طريقا منها، إما للعجز كمرض وزمانة ، وإما للفقر ، وإما للجهل بمسالك الأرض ومضايقها بحيث لو خرجوا لهلكوا كما قالوا فى أمثالهم (قتلت أرض جاهلها) وقد أثر عن ابن عباس رضى الله عنهما أنه قال : كنت أنا وأمى من المستضعفين الذين لايستطيعون حيلة ولا يهتدون إلى الهجرة سبيلا ، والمراد بالولدان هنا المراهقون الذين قربوا من البلوغ وعقلوا مايعقل

الرجال والنساء فيلحقون بهم فى التكاليف بوجوب الهجرة معهم ، أو أن تكليفهم هو تكليف أوليائهم بإخراجهم من ديار الكفر .

(فأولئك عسى الله أن يعفو عنهم) أى إن أولئك المستضعفين الذين لم يهاجروا للعجز وتقطع الأسباب يرجى أن يعفو الله عنهم ولا يؤاخذهم بالإقامة فى دار الكفر .

وفى هذا إيماء إلى أن العفو مطموع فيه غير مجزوم به ، وإلى أن أمر الهجرة مشدد فيه ولو باستعمال الحيل والبحث عن مضايق السبل، وبذا لايخدع أحد ممن يحب وطنه نفسه فيعدّ ما ليس بمانع مانعا .

وهذا الرجاء الذى تفيده (عسى) بالنسبة إلى المخاطب ، أو أنها هنا للتهيئة والإعداد أى إنه تعالى يعدهم ويهيئهم لعفوه ، وفى هذا رمز إلى تعظيم أمرالهجرة، وإلى أن تركها جرم عظيم ، وإلى أنه ينبغى أن يترصد لها الفرصة السانحة ويعلق قلبه بها .

(وكان الله عفوّا غفورا) أى وكان شأن الله تعالى العفو عن الذنوب التى لها أعذار صحيحة بعدم المؤاخذة عليها ، ومغفرتها بسترها وعدم فضيحة صاحبها فى الآخرة .

(ومن يهاجر فى سبيل الله يجد فى الأرض مراغما كثيرا وسعة) جاء هذا للترغيب فى أمر الهجرة وتنشيط المستضعفين ، إذ العادة جرت بأن الإنسان يتهيب الأمر المخالف لما اعتاد وأنس ، ويتخيل مصاعب ومشقات لا توجد إلا فى خياله ، وأن ما يتصوره بعض الناس من عسر الهجرة لا محل له وأن عسرها إلى يسر .

أى إن من يهاجر فى سبيل الله أى لقصد رضاه وإقامة دينه كما يحب وكما يحب الله تعالى ، يجد فى الأرض سبيلا يرغم به أنوف من كانوا مستضعفين له ، ومأوى يصيب فيه الخير والسعة فوق النجاة من الاضطهاد والذل .

وفى هذا وعد للمهاجرين فى سبيله بتسهيل سبل العيش لهم وإرغامهم أعداءهم والظفر بهم .

(ومن يخرج من بيته مهاجرا إلى الله ورسوله ثم يدركه الموت فقد وقع أجره

على الله) بعد أن وعد سبحانه من يهاجر بالظفر بما يحب ، من وجدان السبل ميسورة أمامه ، ومن سعة العيش _ وعد من يموت فى الطريق قبل وصوله دار الهجرة بالأجر العظيم الذى ضمنه له عز وجل إذا كان يقصد بهجرته رضا الله ونصرة رسوله فى حياته و إقامة سننه بعد وفاته وكان مستحقا لهذا الأجر ولو مات بعد أن تجاوز عتبة الباب ولو لم يصب تعبا ولا مشقة ، فإن نية الهجرة مع الإخلاص كافية لاستحقاقه له كما فى الحديث « إنما الأعمال بالنيات و إنما لـكل امرئ ما نوى » .

وفى إبهام هذا الأجر وجعله حقا واجبا عليه تعالى إيذان بعظم قدره وتأكيد ثبوته ووجوبه ، ولله تعالى أن يوجب على نفسه ما يشاء ، وليس لغيره أن يوجب عليه شيئا ، إذ لاسلطان فوق سلطانه .

وما أعظم الفارق بين هـذا الوعد المؤكد و بين وعد تاركى الهجرة لضعف أو عجز بأنهم محل رجاء وطمع عند الله .

(وكان الله غفورا رحيما) أى وكان شأن الله الغفران أزلا وأبدا لأمثال هؤلاء المهاجرين الذين دعاهم إيمانهم لترك أوطانهم لإقامة دينه واتباع سبيله ، والرحمة الشاملة لهم بعطفه و إحسانه .

روى ابن جرير عن ابن جبير « أنها نزلت فى جُنْدُب بن ضمرة وكان بلغه قوله تعالى _ إن الذين توفاهم الملائـكة ظالمى أنفسهم _ الآية وهو بمكة حين بعث بها رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى مسلميها فقال لبنيه احملونى فإنى لست من المستضعفين و إنى لأهتدى إلى الطريق و إنى لا أبيت الليلة بمكة فحملوه على سرير وتوجهوا به إلى المدينة ، وكان شيخا كبيرا فمات بالتنعيم (موضع قرب المدينة) ولما أدركه الموت أخذ يصفق بيمينه على شماله و يقول اللهم هذه لك وهذه لرسولك صلى الله عليه وسلم أبايعك على ما بايع عليه رسولك ، ولما بلغ خبر موته الصحابة رضى الله عنهم قالوا لبنيه مات بالمدينة فنزلت » وروى غير ذلك .

وقد ذكر غير واحد من العلماء أن من سار لأمر فيه ثواب كطاب علم وحج

وكسب حلال ومات قبل الوصول إلى المقصد فله هذا الحكم ، أخرج البيهقى عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « من خرج حاجا فمات كتب له أجر الحاج إلى يوم القيامة ، ومن خرج معتمرا فمات كتب له أجر المعتمر إلى يوم القيامة، ومن خرج غازيا فى سبيل الله فمات كتب له أجر الغازى إلى يوم القيامة » .

السبب فى شرع الهجرة فى صدر الإسلام

شرعت الهجرة فى صدر الإسلام لأسباب ثلاثة تتعلق بحال الفرد وحال الجماعة:

(١) البعد عن الاضطهاد فى أمور الدين بإقامة شعائره بحيث يكون المسلم حرا فى تصرفه كما يعتقد ، فكل شخص يظن أنه ربما يفتن عن دينه أو يكون ممنوعا من إقامته ، يجب عليه أن يهاجر منه إلى مكان لا خطر فيه على نفسه ولا على دينه ، فإن لم يفعل ذلك فقد ارتكب إثما كبيرا وحمل وزرا عظيما .

(٢) تلقى الدين والتفقه فيه وقد كان ذلك فى عصر النبى صلى الله عليه وسلم حين كان إرسال الدعاة والمرشدين من قبله متعذرا لتصدى المشركين لهم وحرمانهم من أداء وظائفهم لما لهم من القوة والبطش ، وهكذا الحكم فى كل من يقيم ببلد ليس فيه علماء يقيمون أحكام الدين ، عليه أن يهاجر إلى بلد يتلقى فيه أمور دينه وأحكام شريعته .

(٣) أنه يجب على جماعة المسلمين أن تكون لهم دولة قوية تنشر دعوة الإسلام وتقيم أحكامه وحدوده وتحمى دعاته وأهله من عدوان العادين ، فإذا خيف على هذه الدولة من غارة الأعداء وجب على المسلمين أينما كانوا أن يشدوا أزرها حتى تقوى وتقوم بما يجب عليها ، مهما بعدت دارهم وشط مزارهم ، وإلا كانوا راضين بضعفها ومعينين لأعداء الإسلام على إبطال الدعوة وتشريد الدعاة .

وقد كانت هذه الأسباب موفورة قبل فتح مكة ، فلما يسر الله فتحها وقوى الإسلام على الشرك فى جزيرة العرب كلها ودخل الناس فى دين الله أفواجا وأرسل

النبي صلى الله عليه وسلم إلى أطراف الجزيرة وغيرها من يعلم الناس شرائع الإسلام زالت هذه الأسباب ، وقد روى ابن عباس أن النبي صلى الله عليه وسلم قال « لاهجرة بعد الفتح ولكن جهاد ونية وإذا استنفرتم فانفروا » رواه أحمد والشيخان ؛ وإذا وجد أحد الأسباب الثلاثة المتقدمة فى أى عصر وجبت الهجرة ، وأهمها اعتداء الكفار على بلاد المسلمين وخوف استيلائهم عليها .

وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلَاةِ إِنْ خِفْتُمْ أَنْ يَفْتِنَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا ، إِنَّ الْكَافِرِينَ كَانُوا لَكُمْ عَدُوًّا مُبِينًا (١٠١) وَإِذَا كُنْتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلَاةَ فَلْتَقُمْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا أَسْلِحَتَهُمْ ، فَإِذَا سَجَدُوا فَلْيَكُونُوا مِنْ وَرَائِكُمْ ، وَلْتَأْتِ طَائِفَةٌ أُخْرَى لَمْ يُصَلُّوا فَلْيُصَلُّوا مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ ، وَدَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُمْ مَيْلَةً وَاحِدَةً ، وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِنْ كَانَ بِكُمْ أَذًى مِنْ مَطَرٍ أَوْ كُنْتُمْ مَرْضَى أَنْ تَضَعُوا أَسْلِحَتَكُمْ وَخُذُوا حِذْرَكُمْ ، إِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا (١٠٢) فَإِذَا قَضَيْتُمُ الصَّلَاةَ فَاذْكُرُوا اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِكُمْ ، فَإِذَا اطْمَأْنَنْتُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَوْقُوتًا (١٠٣)

شرح المفردات

ضربتم فى الأرض أى سافرتم فيها ، لأن المسافر يضرب الأرض برجليه وعصاه أو بقوائم راحلته ، والقصر بالفتح من القصر (كعنب) ضد الطول ، وقصرت الشيء :

جعلته قصيرا ، والجناح : التضييق من جُنِحَ البعير إذا انكسرت جوانحه (أضلاعه) لثقل حمله، يفتنكم: يؤذونكم بقتل أو غيره، إقامة الصلاة: الذكر الذى يدعى به للدخول فيها ، والأسلحة : واحدها سلاح وهو كل ما يقاتل به كالسيف والخنجر والمسدس والبندقية من أسلحة العصر الحاضر ، قضيتم الصلاة أى أديتموها ، فأقيموا الصلاة أى ائتوا بها مقومة تامة الأركان والشروط ، كتابا موقوتا : فرضا منجما فى أوقات محدودة لا بد من أدائها فيها .

المعنى الجملى

كان الكلام فى سابق الآيات فى الجهاد والحث عليه لإقامة الدين وحفظه وإيجاب الهجرة لأجل ذلك وتوبيخ من لم يهاجر من أرض لا يقدر على إقامة دينه فيها ، والجهاد يستلزم السفر ، وذكر هنا أحكام من سافر للجهاد أو هاجر فى سبيل الله إذا أراد الصلاة وخاف أن يفتن عنها ، فبين أنه يجوز له أن يقصر منها وأن يصلى جماعتها بالطريقة التى ذكرت فى الآية الثانية من هذه الآيات .

الإيضاح

(وإذا ضربتم فى الأرض فليس عليكم جناح أن تقصروا من الصلاة إن خفتم أن يفتنكم الذين كفروا) أى إذا سافرتم أىّ سفر فليس عليكم تضييق ولا ميل عن محجة الدين إذا قصرتم الصلاة أى تركتم شيئا منها فتكون قصيرة ، بشرط أن تخافوا فتنة الكافرين لكم بالقتل أو الأسر أو غيرهما ، وليس هذا خاصا بزمن الحرب بل إذا خاف المصلى قطاع الطريق كان له أن يقصر هذا القصر ، وليس هذا هو قصر الصلاة الرباعية فى السفر المبين فى كتب الفقه ، إذ هذا مأخوذ من السنة المتواترة بل المراد هنا القصر فى صلاة الخوف المذكور فى الآية الأولى والمبين فى الآية التى بعدها وفى سورة البقرة بقوله تعالى « فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجَالاً أَوْ رُكْبَانًا » .

فالآية التى هنا بصدد القصر من عدد الركعات بأن تصلى طائفة مع الإمام ركعة

واحدة فإذا أتمتها تأتى الطائفة الأخرى وهى التى كانت تحرس الأولى فتصلى معه الركعة الثانية ، وآية البقرة فى القصر من هيئة الصلاة بالترخيص فى عدم إقامة صورتها ، بأن يكتفى المشاة والركبان بالإيماء عن الركوع والسجود .

صلاة القصر فى السفر وشرطها

كان النبى صلى الله عليه وسلم يصلى الظهر والعصر والعشاء فى السفر ركعتين ركعتين ، وكذلك فعل أبو بكر وعمر وسائر الصحابة ، ففى صحيح البخارى عن ابن عمر رضى الله عنهما قال صحبت رسول الله صلى الله عليه وسلم فكان فى السفر لا يزيد على ركعتين ، وأبا بكر وعمر وعثمان — يعنى فى صدر خلافته وإلا فعثمان قد أتم فى آخر خلافته وكان ذلك أحد الأسباب التى أنكرت عليه ، وقد خرّج لفعله تأويلات اه .

قال ابن القيم وأحسن ما اعتذر به عن عثمان أنه قد تزوج بمنى والمسافر إذا أقام فى موضع وتزوج فيه أتم صلاته فيه وهو قول الحنفية والمالكية .

وقد روى الشيخان عن عائشة قالت «فرضت الصلاة ركعتين ركعتين فلما هاجر رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى المدينة زيد فى صلاة الحضر وأقرت صلاة السفر» .

وقال عمر بن الخطاب : صلاة السفر ركعتان والجمعة ركعتان والعيد ركعتان تمام غير قصر على لسان محمد صلى الله عليه وسلم وقد خاب من افترى ، وكان قد سأل النبى صلى الله عليه وسلم ما بالنا نقصر ؟ فقال له رسول صلى الله عليه وسلم « صدقة تصدق الله بها عليكم فاقبلوا صدقته » .

وقال أمية بن خالد لعبد الله بن عمر : إنا نجد صلاة الحضر وصلاة الخوف فى القرآن ولا نجد صلاة السفر فى القرآن (يعنى صلاة الرباعية ركعتين) فقال له ابن عمر: يا أخى إن الله بعث محمدا صلى الله عليه وسلم ولا نعلم شيئا فإنما نفعل كما رأينا محمدا صلى الله عليه وسلم يفعل .

فالحق ما عليه الحنفية وغيرهم من وجوب القصر فى السفر خلافا للشافعية الذين أجازوا الإتمام .

وشرط القصر فى الصلاة والإفطار فى رمضان أن يكون السفر مسيرة ثلاثة أيام ولياليها بسير الإبل ومشى الأقدام بالاقتصاد فى البر وجرى السفينة والريح معتدلة فى البحر ، لحديث أنس أنه قال حين سئل عن قصر الصلاة « كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا خرج مسيرة ثلاثة أيام أو ثلاثة فراسخ صلى ركعتين » رواه أحمد ومسلم وأبو داود ، وقدره الشافعى بمسيرة يومين . وحقق المرحوم أحمد الحسينى بك فى كتابه [دليل المسافر] أن هذه المسافة تقدر بنحو ٨١ كم عند الحنفية ، وبنحو ٨٩ كم لدى الشافعية والمالكية والحنابلة ، وعلى هذا فالمسافر من القاهرة إلى طنطا فما فوقها يقصر الصلاة عند الحنفية لأن المسافة بينهما ٨٧ كم وإلى المحطة التى تليها (شبرا النملة) لدى المذاهب الثلاثة لأن المسافة بينهما ٩٣ كم .

كيفية صلاة الخوف فى القرآن والسنة

(وإذا كنت فيهم فأقمت لهم الصلاة فلتقم طائفة منهم معك وليأخذوا أسلحتهم) هذا بيان لما قبله من النص المجمل الوارد فى مشروعية القصر وبيان كيفيته عند الضرورة ، وذكر هذا البيان فى القرآن واكتفى فيما عداه بالبيان بطريق السنة لمزيد الحاجة إليه لما فيه من كثرة التغيير عن الهيئة الأصلية .

أى وإذا كنت أيها الرسول فى جماعتك من المؤمنين وأردت أن تقيم بهم الصلاة فلتقم طائفة منهم معك بعد أن تجعلهم طائفتين ولتقف الطائفة الأخرى بإزاء العدوّ يحرسون المصلين خوفا من الاعتداء ، وليحمل الذين يقومون معك فى الصلاة أسلحتهم ولا يدعوها وقت الصلاة لئلا يضطروا إلى المكافحة عقبها مباشرة أو قبل إتمامها فيكونوا مستعدين لها .

(فإذا سجدوا فليكونوا من ورائكم) أى فإذا سجد الذين يقومون معك فى الصلاة فليكن الذين يحرسونكم من خلفكم ، إذ أحوج ما يكون المصلى للحراسة حين السجود لأنه لا يرى من يهمّ به .

ويجب حينئذ أن يكون الباقون مستعدين للقيام مقامهم والصلاة مع النبى صلى الله عليه وسلم كما صلوا ، وهو قوله :

(ولتأت طائفة أخرى لم يصلوا فليصلوا معك وليأخذوا حذرهم وأسلحتهم) أى ولتأت الطائفة الأخرى الذين لم يصلوا لاشتغالهم بالحراسة فليصلوا كما صلت الطائفة الأولى وليأخذوا حذرهم وأسلحتهم فى الصلاة كما فعل الذين من قبلهم .

وحكمة الأمر بالحذر للطائفة الثانية أن العدوّ قلما يتنبه أول الصلاة لبدء المسلمين فيها إذ هو إذا رآهم صفا ظن أنهم قد اصطفوا للقتال واستعدوا للحرب والنزال ، فاذا رآهم سجدوا علم أنهم فى صلاة ، فيخشى أن يميل على الطائفة الأخرى عند قيامها فى الصلاة كما يتربص ذلك بهم عند كل غفلة .

وقد بين الله تعالى علة الأمر بأخذ الحذر والسلاح حتى فى الصلاة بقوله :

(ود الذين كفروا لو تغفلون عن أسلحتكم وأمتعتكم فيميلون عليكم ميلة واحدة) أى تمنى أعداؤكم الذين كفروا بالله وبما أنزل عليكم لو تغفلون عن أسلحتكم وأمتعتكم التى بها بلاغكم فى سفركم بأن تشغلكم صلاتكم عنها فيميلون حينئذ عليكم ويحملون حملة واحدة وأنتم مشغولون بالصلاة واضعون السلاح تاركون حماية المتاع والزاد فيصيبون منكم غِرّة فيقتلون من استطاعوا قتله وينتهبون ما استطاعوا نهبه فلا تغفلوا عنهم .

وقد يعرض لبعض المحاربين أعذار يشق فيها حمل السلاح ومن ثم رخص فى تركه لصاحب العذر فقال :

(ولا جناح عليكم إن كان بكم أذى من مطر أو كنتم مرضى أن تضعوا أسلحتكم وخذوا حذركم) أى ولا إثم عليكم فى وضع أسلحتكم إذا أصابكم أذى من مطر تمطرونه فيشق عليكم حمل السلاح مع ثقله فى ثيابكم ، وربما أفسد الماء السلاح إذ يجعله يصدأ ، أو إذا كنتم مرضى بالجراح أو غير الجراح من العلل ، ولكن يجب عليكم فى جميع الأحوال أن تأخذوا حذركم ولا تغفلوا عن أنفسكم ولا عن أسلحتكم وأمتعتكم فان عدوكم لا يغفل عنكم ولا يرحمكم ، والضرورات تقدر بقدرها .

(إن الله أعد للكافرين عذابا مهينا) بما هداكم إليه من أسباب النصر بأخذ الأهبة والحذر والاعتصام بالصبر والصلاة رجاء ما عند الله من المثوبة والأجر .

فهذا العذاب المهين هو عذاب غلب المسلمين وانتصارهم عليهم إذا قاموا بما أمرهم الله تعالى به ، ويؤيده قوله تعالى : « إِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ وَتَرْجُونَ مِنَ اللهِ مَالاَ يَرْجُونَ » وقوله « قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنْصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ »

روى البخارى أن هذه الرخصة التى فى الآية نزلت فى عبد الرحمن بن عوف وكان جريحا ، وروى أحمد والحاكم والبيهقى عن ابن عياش الزرقى قال « كنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فى عُسْفان فاستقبلنا المشركون وعليهم خالد بن الوليد وهم بيننا وبين القبلة فصلى بنا النبى صلى الله عليه وسلم الظهر فقالوا قد كانوا على حال لو أصبنا غِرّتهم ، ثم قالوا يأتى عليهم الآن صلاة هى أحب إليهم من أبنائهم وأنفسهم فنزل جبريل بين الظهر والعصر بهذه الآيات (وإذا كنت فيهم فأقمت لهم الصلاة) » الحديث ، وقد روى عن النبى صلى الله عليه وسلم يوم ذات الرقاع « أن طائفة صفت مع النبى صلى الله عليه وسلم وطائفة وجاه العدو (اتجاهه مراقبة له) فصلى بالتى معه ركعة ثم ثبت قائما فأتموا لأنفسهم ثم انصرفوا وجاه العدو ، وجاءت الطائفة الأخرى فصلى بهم الركعة الثانية التى بقيت من صلاته فأتموا فسلم بهم » وسميت هذه الغزوة ذات الرقاع لأنها نقبت أقدامهم فلفوا على أرجلهم الرقاع والخرق .

وقد قال بهذه الصلاة أفقه الصحابة عليهم الرضوان على وابن عباس وابن مسعود وابن عمر وزيد بن ثابت وأبو هريرة وأبو موسى ، ومن فقهاء الأمصار مالك والشافعى وغيرهما .

(فإذا قضيتم الصلاة فاذكروا الله قياما وقعودا وعلى جنوبكم) أى فاذا أديتم الصلاة على هذه الصورة فاذكروا الله تعالى فى أنفسكم بتذكر وعده بنصر من ينصرونه فى الدنيا ونيل الثواب فى الآخرة ، وبألسنتكم بالحمد والتكبير والدعاء وعلى كل حال تكونون عليها من قيام فى المسابقة والمقارعة ، وقعود للرمى أو المصارعة ، واضطجاع

من الجراح أو المخادعة ، فذكر الله مما يقوّى القلوب ويعلى الهمم ويجعل متاعب الدنيا حقيرة ومشاقها سهلة ، والثبات والصبر يعقبهما الفلاح والنصر كما قال تعالى فى سورة الأنفال «إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ»

والخلاصة أننا أمرنا بالذكر على كل حال نكون عليها فى الحرب كما يدل على ذلك السياق ، فأجدر بأن نؤمر به فى حال السلم ، إلى أن المؤمنين فى جهاد مستمر وحروب دائمة ، فهم تارة يجاهدون الأعداء ، وأخرى يجاهدون الأهواء ، ومن ثم أمرهم الله بالذكر فى كثير من الآى كقوله « الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللهَ قِيَاماً وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِهِمْ » لما فى ذلك من تربية النفس وصفاء الروح وتذكر جلال الله وعظمته وأن كل شىء هين فى سبيله وابتغاء مرضاته .

وقد روى ابن جرير عن ابن عباس أنه قال : لا يفرض الله على عباده فريضة إلا جعل لها جزاء معلوما ، ثم عذر أهلها فى حال العذر ، غير الذكر فان الله لم يجعل له حدا ينتهى إليه ولم يعذر أحدا فى تركه ، إلا مغلوبا على عقله فقال : فاذكروا الله قياما وقعوداً وعلى جنوبكم أى بالليل والنهار فى البر والبحر ، وفى السفر والحضر ، والغنى والفقر ، والسقم والصحة ، والسر والعلانية ، وعلى كل حال اهـ .

(فاذا اطمأننتم فأقيموا الصلاة) الاطمئنان السكون بعد اضطراب وانزعاج أى فاذا سكنت قلوبكم من الخوف وأمنتم بعد أن تضع الحرب أوزارها فأدوا الصلاة بتعديل أركانها ومراعاة شرائطها ولا تقصروا من هيئتها كما أذن لكم حال الخوف .

(إن الصلاة كانت على المؤمنين كتابا موقوتا) يقال وقت العمل يقته ووقّته توقيتا : إذا جعل له وقتا يؤدى فيه أى إن الصلاة كانت فى حكم الله فرضا مؤكدا فى أوقات محدودة لابد من أدائها فيها بقدر الإمكان ، فأداؤها فى أوقاتها مع القصر بشرطه خير من تأخيرها لتؤدى تامة كاملة .

وهذه جملة جاءت لتعليل وجوب المحافظة على الصلاة حتى فى وقت الخوف ولو مع القصر منها .

والحكمة فى توقيتها فى تلك الأوقات المعلومة أن الأشياء إن لم يكن لها وقت معين لايحافظ عليها الجم الغفير من الناس .

إلى ما فى هذا النوع من الذكر المهذب للنفس من التربية العملية للأمة الإسلامية بأن تلتزم أداء أعمالها فى أوقات معينة مع عدم الهوادة فيها ، ومن قصر فيها فى تلك الأوقات الخمسة فى اليوم والليلة فهو جدير بأن ينسى ربه و يغرق فى بحار الغفلة .

ومن قوى إيمانه وزكت نفسه لا يكتفى بهذا القدر القليل من ذكر الله ومناجاته بل يزيد عليه من النوافل ما شاء الله أن يزيد .

والخلاصة أن الصلوات الخمس إنما كانت موقوتة لتكون مذكرة المؤمن بربه فى الأوقات المختلفة ، لئلا تحمله الغفلة على الشر أو التقصير فى الخير ، ولمن يريد الكمال فى النوافل والأذكار أن يختار الأوقات التى يرى أنها أوفق بحاله .

وَلاَ تَهِنُوا فِى ابْتِغَاءِ الْقَوْمِ ، إِنْ تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ وَتَرْجُونَ مِنَ اللهِ مَالاَ يَرْجُونَ ، وَكَانَ اللهُ عَلِيماً حَكِيماً (١٠٤)

شرح المفردات

الوهن : الضعف ، والابتغاء : الطلب .

المعنى الجملى

كان الكلام فيما سلف فى شأن الحرب وما يقع فيها وبيان كيفية الصلاة فى أثنائها ومايلاحظ فيها إذا كان العدو متأهبا للحرب من اليقظة وأخذ الحذر وحمل

السلاح فى أثنائها ، و بين فى أثناء السياق شدة عداوة الكفار لهم وتربصهم غفلتهم وإهمالهم ليوقعوا بهم .

وهنا نهى عن الضعف فى لقائهم وأقام الحجة على كون المشركين أجدر بالجوف منهم ، لأن ما فى القتال من الألم والمشقة يستوى فيه المؤمن والكافر ، ويمتاز المؤمن بأن له من الرجاء فى ربه ما ليس عند الكافر ، فهو يرجو منه النصر والمعونة و يعتقد أنه قادر على إنجاز وعده ، كما يرجو منه المثوبة على حسن بلائه فى سبيله ، وقوة الرجاء تخفف الآلام وتنسيه التعب والنصب .

الإيضاح

(ولا تهنوا فى ابتغاء القوم) أى ولا تضعفوا فى طلب القوم الذين ناصبوكم العداوة ، بل عليكم أن تستعدوا لقتالهم بعد الفراغ من الصلاة مع أخذ الحذر وحمل السلاح عند أدائها ، وذلك فى معنى الأمر بالهجوم .

وسرّ هذا أن الذى يوجه همته إلى المهاجمة تشتد عزيمته وتعلو همته ، أما الذى يلتزم الدفاع فحسب فإنه يكون خائر العزيمة ضعيف القوة .

(إن تكونوا تألمون فإنهم يألمون كما تألمون) أى إن ما ينالكم من الآلام ينالهم منه مثله فهم بشر مثلكم ، وهم مع هذا يصبرون ، فما لكم لا تصبرون وأنتم أولى منهم بالصبر ؟ و بين سبب هذا بقوله :

(وترجون من الله ما لا يرجون) من ظهور دينكم الحق على سائر الأديان الباطلة ، ومن الثواب الجزيل والنعيم المقيم فى الآخرة — إلى أنه تعالى قد وعدكم إحدى الحسنيين النصر أو الجنة بالشهادة إذا نصرتم دينه ودافعتم عن حماه ، وهذا الوعد من الرحمن مع خلوص الإيمان يدعوان إلى الرجاء والأمل و يضاعفان العزيمة ، و يحثان صاحبهما على العمل بصبر وثبات .

أما اليائس من هـــذا الوعد الكريم فإنه يكون ضعيف العزيمة ميت الهمة ،

يغلب عليه الجزع والفتور ، فإن تساويتم فى الآلام فقد فضلتموهم فى الثقة بحسن العاقبة فأنتم أجدر منهم بالإقدام والجرأة .

(وكان الله عليما حكيما) وقد ثبت فى واسع علمه ومضت به سننه أن العاقبة للمتقين والنصرة لهم على الكافرين ، ماداموا عاملين بهديه سائرين على الطريق التى وضعها لنصرة الحق على الباطل من الأخذ بالأسباب وكثرة العَدد والعُدد ، فإذا هم فعلوا ذلك كانوا أشد منهم قتالا وأحسن منهم نظاما ، وبذا يفوزون بالمطلوب وبحسن العاقبة .

إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ وَلَا تَكُنْ لِلْخَائِنِينَ خَصِيماً (١٠٥) وَاسْتَغْفِرِ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُوراً رَحِيماً (١٠٦) وَلَا تُجَادِلْ عَنِ الَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنْفُسَهُمْ ، إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ خَوَّاناً أَثِيماً (١٠٧) يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَى مِنَ الْقَوْلِ ، وَكَانَ اللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطاً (١٠٨) هَا أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ جَادَلْتُمْ عَنْهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ، فَمَنْ يُجَادِلُ اللَّهَ عَنْهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَمْ مَنْ يَكُونُ عَلَيْهِمْ وَكِيلاً (١٠٩) وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءاً أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُوراً رَحِيماً (١١٠) وَمَنْ يَكْسِبْ إِثْماً فَإِنَّمَا يَكْسِبُهُ عَلَى نَفْسِهِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيماً حَكِيماً (١١١) وَمَنْ يَكْسِبْ خَطِيئَةً أَوْ إِثْماً ثُمَّ يَرْمِ بِهِ بَرِيئاً فَقَدِ احْتَمَلَ بُهْتَاناً وَإِثْماً مُبِيناً (١١٢) وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُ لَهَمَّتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ أَنْ يُضِلُّوكَ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِنْ شَيْءٍ ، وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ

وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ ، وَكَانَ فَضْلُ اللهِ عَلَيْكَ عَظِيماً (١١٣)

شرح المفردات

بما أراك الله أى بما عرفك وأوحى به إليك ، خصيما أى تخاصم وتناضل عنهم ، يختانون أنفسهم: يخونونها ويتكلفون مايخالف الفطرة مما يعود عليهم بالضرر، والمجادلة: أشد المخاصمة، والوكيل: هو الذى يوكل إليه الأمر فى الحفظ والحماية ، والمراد بالسوء هنا: مايسوء الإنسان به غيره ، وبالظلم : ما كان ضرره خاصا بالعامل كالحلف الكاذب ، والاستغفار : طلب المغفرة من الله مع الشعور بقبح الذنب والتوبة منه ، والكسب : ما يجر منفعة أو يدفع مضرة ، والإثم : الذنب ، والخطيئة : الذنب غير المتعمد ، والإثم : مايصدر عنه مع ملاحظة أنه ذنب ، يرم به أى يقذفه به ويسنده إليه، احتمل: كلف نفسه أن تحمل، والبهتان: الكذب على غيرك بما يبهت منه ويتحير عند سماعه .

المعنى الجملى

بعد أن حذر الله المؤمنين من المنافقين أعداء الحق وأمرهم أن يستعدوا لمجاهدتهم خوف أن يطمسوا معالم الحق ويهلكوا أهله ــ أمرهم هنا بأن يقوموا بحفظ الحق وألا يحابوا فيه أحدا .

« روى ابن جرير عن قتادة : أن هؤلاء الآيات أنزلت فى شأن طُعْمة بن أُبيرق وكان رجلا من الأنصار ، ثم أحد بنى ظفر سرق درعا لعمه كان وديعة عنده ثم قذفها على يهودى كان يغشاهم يقال له زيد بن السمين ، فجاء اليهودى إلى نبى الله صلى الله عليه وسلم يهتف ، فلما رأى ذلك قومه بنو ظفر جاءوا إلى نبى الله صلى الله عليه وسلم ليعذروا صاحبهم وكان نبى الله عليه السلام قد هم بقبول عذره حتى أنزل

الله فى شأنه (ولا تجادل الخ) وكان طعمة قذف بها بريئا ، فلما بين الله شأن طعمة نافق ولحق بالمشركين بمكة فأنزل الله فيه (ومن يشاقق الرسول) الآية » .

الإيضاح

(إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق لتحكم بين الناس بما أراك الله) أى إنا أنزلنا إليك هذا القرآن بتحقيق الحق وبيانه لأجل أن تحكم بين الناس بما أعلمك الله به من الأحكام :

(ولا تكن للخائنين خصيما) أى ولا تكن لمن خان خصيما أى مخاصما ومدافعا تدافع عنه من طالبه بحقه الذى خان فيه .

وخلاصة ذلك — إن عليك ألا تتهاون فى تحرى الحق اغترارا بلحن الخائنين وقوة جدلهم فى الخصومة لئلا تكون خصيما لهم وتقع فى ورطة الدفاع عنهم ، ويؤيد هذا حديث أم سلمة « إنما أنا بشر وإنكم تختصمون إلىّ ولعل بعضكم يكون ألحن بحجته من بعض فأقضى بنحو ما أسمع ، فمن قضيت له من حق أخيه شيئا فلا يأخذه فإنما أقطع له قطعة من النار » .

(واستغفر الله) مما يعرض لك من شؤون البشر وأحوالهم بالميل إلى من تراه ألحن بحجته أو الركون إلى مسلم لأجل إسلامه تحسينا للظن به ، فهذا ونحوه صورته صورة من أتى ذنبا يوجب الاستغفار وإن لم يكن متعمدا للزيغ عن العدل والتحيز للخصم .

وفى هذا من زيادة الحرص على الحق والتشديد فيه مالا يخفى ، حتى كأن مجرد الالتفات إلى قول المخادع يجب الاحتراس منه .

كما أن فيه إيماء إلى أن الاعتقاد الشخصى والميل الفطرى والدينى لا ينبغى أن يظهر لهما أثر فى مجلس القضاء ، وإلى أن القاضى لا يساعد من يظن أنه صاحب الحق ، بل عليه أن يساوى بين المتخاصمين فى كل شىء .

والنبي صلى الله عليه وسلم لم يحكم فى هـذه القضية قبل نزول الآيات ولم يعمل بغير ما يعتقد أنه تأييد للحق ، لـكنه أحسن الظن فى أمر بين له علام الغيوب حقيقة الواقع فيه وما ينبغى له أن يعامل به ذويه .

(إن الله كان غفورا رحيما) أى إنه تعالى مبالغ فى المغفرة والرحمة لمن استغفره .

(ولا تجادل عن الذين يختانون أنفسهم) هذا الخطاب وجه إلى النبى صلى الله عليه وسلم وهو أعدل الناس وأكملهم مبالغة فى التحذير من هذه الخلة المعهودة فى كثير من الحكام ، وسمى خيانة غيرهم خيانة لأنفسهم لأن ضررها عائد إليهم، والذين يختانون هم هذا السارق ومن عاونه لأنه شريك له فى الإثم والخيانة ، ولهم نظراء فى كل زمان ومكان .

وخلاصة المعنى — لا تدافع عن هؤلاء الخونة ولا تساعدهم عند التخاصم .

(إن الله لا يحب من كان خوانا أثيما) المراد بعدم الحب البغض والسخط أى إن الله يبغض من اعتاد الخيانة وألفت نفسه اجتراح السيئات وضريت عليها ولم يعدّ للعقاب الإلهى الرهبة والخشية التى ينبغى أن يفكر مثله فيها ، وإنما يحب الله أهل الأمانة والاستقامة .

(يستخفون من الناس ولا يستخفون من الله وهو معهم إذ يبيتون ما لا يرضى من القول) أى إن شأن هؤلاء الخوانين أنهم يستترون من الناس عند اجتراحهم الآثام إما حياء وإما خوفا من ضررهم ، ولا يستترون من الله ولا يستحيون منه بتركها لضعف إيمانهم، إذ الإيمان يمنع من الإصرار وتكرار الذنب ولا تقع الخيانة من صاحبه إلا عن غفلة أو جهالة عارضة لا تدوم ، فمن يعلم أن الله يراه فى حنادس الظلمات لابد أن يترك الذنب والخيانة حياء منه تعالى وخوفا من عقابه ، وهو تعالى شاهدهم حين يدبرون ليلا ما لا يرضى من القول تبرئة لأنفسهم ورمى غيرهم بجريمتهم .

(وكان الله بما يعملون محيطا) أى حافظا لأعمالهم لا يعزب عنه مثقال ذرة فى السموات ولا فى الأرض ، فلا سبيل إلى نجاتهم منّ عقابه .

(هأنتم هؤلاء جادلتم عنهم فى الحياة الدنيا فمن يجادل الله عنهم يوم القيامة أم من يكون عليهم وكيلا) أى يا هؤلاء أنتم جادلتم عنهم وحاولتم تبرئتهم فى الحياة الدنيا فمن يجادل الله عنهم يوم القيامة يوم يكون الخصم والحاكم هو الله تعالى المحيط بأعمالهم وأحوالهم وأحوال الخلق كافة ؟ أى فلا يمكن أن يجادل هناك أحد عنهم ولا أن يكون وكيلا بالخصومة لهم ، فعلى المؤمنين أن يراقبوا الله تعالى فى مثل ذلك ولا يظنوا أن من أمكنه أن ينال الفوز والحكم له وأخذه من قضاة الدنيا بغير حق ، يمكنه أن يظفر به فى الآخرة « يَوْمَ لاَ تَمْلِكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ شَيْئاً وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلّٰهِ » .

وفى الآية إيماء إلى أن حكم الحاكم فى الدنيا لا يجيز للمحكوم له أن يأخذ به إذا علم أنه حكم له بغير حقه ، كما أن فيها توبيخا وتقريعا لأولئك الذين أرادوا مساعدة بنى أبيرق على اليهودى .

(ومن يعمل سوءا أو يظلم نفسه ثم يستغفر الله يجد الله غفورا رحيما) أى ومن يعمل قبيحا يسوء به غيره أو يظلم نفسه بفعل معصية تختص به كالحلف الكاذب يجد الله غفارا لذنوبه رحيما متفضلا عليه بالعفو والمغفرة .

وفى ذلك حث وترغيب لطعمة وقومه فى التوبة والاستغفار ، كما أن فيها بيانا للمخرج من الذنب بعد وقوعه ، وفيها تحذير من أعداء الحق والعدل الذين يحاولون هدمهما وهما أسس الشرائع .

والمراد بوجدان الله غفورا رحيما : هو أن التائب المستغفر يجد أثر المغفرة فى نفسه بكراهة الذنب وذهاب داعيته ويجد أثر الرحمة بالرغبة فى الأعمال الصالحة التى تطهر النفس وتزيل الدرن منها .

(ومن يكسب إثما فإنما يكسبه على نفسه) أى ومن يعمل الإثم ويرأنه قد كسبه وانتفع به فإنما كسبه وبال على نفسه وضرر لا نفع له فيه كما يخطر على بال من يجهل عواقب الآثام فى الدنيا والآخرة ، من فضيحة للآثم ومهانة له بين الناس وعند الحاكم العادل كما وقع لأصحاب هذه القصة الذين نزلت فى شأنهم هذه الآيات ، ومن خزى فى الآخرة يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم .

(وكان الله عليما حكيما) أى إنه تعالى بعلمه الواسع حدد للناس شرائع يضرهم تجاوزها ، وبحكمته جعل لها عقابا يضر المتجاوز لها ، فهو إذا يضر نفسه ولا يضر الله شيئا .

(ومن يكسب خطيئة أو إثما ثم يرم به بريئا فقد احتمل بهتانا وإثما مبينا) أى ومن يكسب ذنبا خطأً بلا تعمد أو إثما يصدر عنه مع ملاحظة أنه ذنب ثم يبرىء نفسه وينسبه إلى برىء ويزعم أنه هو الذى كسبه فقد كلف نفسه وزر البهتان بافترائه على البرىء واتهامه إياه .

وقد فشا هذا بين المسلمين فى هذا الزمان ، ولم يكن لهذا من سبب إلا ترك هداية الدين وقلة الوازع النفسى والغفلة عن الأوامر والنواهى التى جاءت بها الشريعة .

وبعد أن ذكر المختانين أنفسهم ومحاولتهم زحزحة الرسول صلوات الله عليه عن الحق ، بين فضله ونعمته عليه فقال :

(ولولا فضل الله عليك ورحمته لهمت طائفة منهم أن يضلوك) أى إنه تعالى بفضله ورحمته عليك صرف نفوس الأشرار عن الطمع فى إضلالك والهم بذلك ، لأنه إذا توجهت همتهم إلى التلبيس على شخص ومحاولة صرفه عن الحق ، احتاج إلى طائفة من الوقت لمقاومتهم وكشف حيلهم وتمييز تلبيسهم حتى تمحص الحقائق وينجلى الرشد من الغى فيضيع وقت هو فى أشد الحاجة إليه ولصرفه فى عمل نافع ، ومن ثم تفضل الله على نبيه صلى الله عليه وسلم ورحمه بصرف كيد الأشرار عنه وزحزحته عن صراط الله الذى أقامه عليه .

والخلاصة — أنه لولا فضل الله عليك بالنبوة والتأييد بالعصمة ورحمته لك ببيان حقيقة الواقع لهمت طائفة منهم أن يضلوك عن الحكم العادل المنطبق على حقيقة القضية فى نفسها ، ولكنهم قبل أن يطمعوا فى ذلك ويهموا به جاءك الوحى ببيان الحق وإقامة أركان العدل والمساواة فيه بين جميع الخلق .

(وما يضلون إلا أنفسهم) بانحرافهم عن الصراط السوىّ الذى هداهم الاسلام إليه

(وما يضرونك من شئ) وقد عصمك الله من الناس ومن اتباع الهوى فى الحكم بينهم .

(وأنزل الله عليك الكتاب والحكمة) علمت مما سلف أن الكتاب هو القرآن ، والحكمة فقه مقاصد الدين وأسراره ووجه موافقتها للفطرة وانطباقها على سنن الاجتماع البشرى ومصالح الناس فى كل زمان ومكان .

(وعلمك مالم تكن تعلم) من الكتاب والشريعة ، وخصوصا ما تضمنته هذه الآيات من العلم بحقيقة الواقعة التى تخاصم فيها بعض المسلمين مع اليهودى .

(وكان فضل الله عليك عظيما) إذ أرسلك للناس كافة وجعلك خاتم النبيين واختصك بنعم كثيرة ومزايا لاتدخل تحت حصر، فيجب أن تكون أعظم الناس شكرا له ، كما يجب على أمتك مثل ذلك ليكونوا خير أمة أخرجت للناس قدوة لغيرهم فى جميع الخيرات .

لَاخَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِنْ نَجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ ، وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاةِ اللهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيماً (١١٤) وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَى وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّى وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا (١١٥)

شرح المفردات

النجوى: المسارّة بالحديث ، أوجمع واحده نجىّ بمعنى المتناجين أى المتسارين، المعروف: ماتعرفه النفوس وتقره وتتلقاه بالقبول، و بغى: الشىء طلبه، والمشاقة: المعاداة

والمخالفة مأخوذة من الشق كأن كل واحد من المتعاديين يكون فى شق غير الذى فيه الآخر .

المعنى الجملى

لا يزال الحديث فى الذين يختانون أنفسهم ويستخفون من الناس ولا يستخفون من الله وهم طعمة بن أبيرق ومن أراد مساعدته من بنى جلدته .

الإيضاح

(لاخير فى كثير من نجواهم إلا من أمر بصدقة أو معروف أو إصلاح بين الناس) أى لاخير فى كثير من تناجى أولئك الذين يسرون الحديث من جماعة طعمة الذين أرادوا مساعدته على اتهام اليهودى وبهته ومن سائر الناس ، ولكن الخير كل الخير فى نجواه من أمر بصدقة أو معروف أو إصلاح بين الناس ، وإنما قال فى كثير لأن من النجوى ما يكون فى الشؤون الخاصة كالزراعة والتجارة مثلا فلا توصف بالشر ولا هى مقصودة من الخير ، وإنما المراد بالنجوى الكثيرة المنفى عنها الخير هى النجوى فى شؤون الناس ومن ثم استثنى منها الأشياء الثلاثة التى هى جماع الخير للناس .

والكتاب الحكيم يجعل النجوى مظنة الإثم والشر ، ومن ثم خاطب الله المؤمنين بقوله « يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَنَاجَيْتُمْ فَلَا تَتَنَاجَوْا بِالإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَةِ الرَّسُولِ وَتَنَاجَوْا بِالْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَاتَّقُوا اللهَ الَّذِى إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ » .

والسر فى كون النجوى مظنة الشر فى الأكثر أن العادة قد جرت بحب إظهار الخير والتحدث به فى الملأ . وأن الشر والإثم هو الذى يذكر فى السر والنجوى وفى الأثر « الإثم ما حاك فى النفس وكرهت أن يطلع عليه الناس » .

وقد استثنى الله من النجوى التى لاخير فى أكثرها أمورا ثلاثة لأن خيريتها أو كمالها تتوقف على الكتمان وجعل التعاون عليها سرا والحديث فيها نجوى .

فالصدقة وهى من الخير قد يؤذى إظهارها المتصدَّق عليه ويضع من كرامته ، ومن ثم قال عز من قائل « إِنْ تُبْدُوا الصَّدَقَاتِ فَنِعِمَّا هِيَ ، وَإِنْ تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا الْفُقَرَاءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ » .

وقد يكون الجهر بالأمر بها والحث عليها أشد إيذاء وإهانة من إيتائه إياها جهرا ولو مع الإخلاص وابتغاء مرضاة الله .

وكذلك الأمر بالمعروف على مسمع من الناس فكثيرا ما يستاء منه المأمور به ولا سيما إذا كان الآمر من أقرانه لأنه يرى فى أمره إياه استعلاء عليه بالعلم والفضل واتهاما له بالتقصير أو الجهل ، فمن ثم كانت النجوى به أبعد عن الإيذاء ، ومثله الإصلاح بين الناس ، فإنه ربما ترتب على إظهاره والتحدث به كثير من الشر ، ألا ترى أن بعض الناس إذا علم أن ما يطالب به من الصلح كان بأمر فلان من الناس لا يستجيب ولا يقبل ، أو يصده عن الرضا به ذكره بين الناس وعلمه بأنه كان بسعى وتواطؤ .

أخرج البيهقى عن أبى أيوب الأنصارى : أن النبى صلى الله عليه وسلم قال له « يا أبا أيوب ألا أدلك على صدقة خير لك من حمر النعم ؟ فقال بلى يارسول الله ، قال تصلح بين الناس إذا تفاسدوا وتقرب بينهم إذا تباعدوا » وعن عبد الله بن عمر قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « أفضل الصدقة إصلاح ذات البين » .

(ومن يفعل ذلك ابتغاء مرضاة الله فسوف نؤتيه أجرا عظيما) أى ومن يفعل هذه الأعمال الثلاثة من الطاعات لوجه الله وطلب مرضاته فإن الله سيؤتيه الثواب العظيم والأجر الجزيل ، وإنما تنال مرضاة الله بالشىء إذا فعل على الوجه الذى يحصل به الخير ويتم به النفع الذى شرع لأجله ، وبذا ترقى روح الفاعل له ارتقاء تصل به إلى ذلك الفضل وتنال قربا معنويا من الله وتصير أهلا للجزاء الأوفى فى حياة أشرف من هذه الحياة وأرقى .

والخلاصة — أن ابتغاء مرضاته إنما تطلب بالإخلاص وعدم إرادة السمعة والرياء كما يفعل المتفاخرون من الأغنياء (تصدقنا . أعطينا . منحنا . عملنا وعملنا) فهؤلاء إنما يبتغون الربح بما يبذلون أو يعملون لا مرضاة لله تعالى ، ولذلك يشق عليهم أن يكون خفيا ، وأن يخلصوا فى الحديث عنه نجيا ، لأن الاستفادة منه بجذب القلوب إليهم وتسخير الناس لخدمتهم ورفعهم لمكانتهم إنما تكون بإظهاره لهم ليتعلق الرجاء فيهم .

وبعد أن وعد الله بالجزاء الحسن من يتناجون بالخير ويبتغون نفع الناس مرضاة لله عز وجل أوعد الذين يتناجون بالشر ويبيتون ما يكيدون به للناس فقال :

(ومن يشاقق الرسول من بعد ما تبين له الهدى ويتبع غير سبيل المؤمنين نوله ما تولى ونصله جهنم وساءت مصيرا) أى ومن يشاقق الرسول بارتداده عن الإسلام وإظهار عداوته له من بعد ما ظهرت له الهداية على لسانه وقامت عليه الحجة ، ويتبع سبيلا غير سبيل أهل الهدى ، نوله ما تولى أى نتركه وما اختار لنفسه ونكله إلى ما توكل عليه ، وفى هذا بيان لسنة الله فى عمل الإنسان وذكر لما أوتيه من الإرادة والاستقلال والعمل بالاختيار ، فالوجهة التى يتولاها ويختارها لنفسه يوليه الله إياها أى يجعله واليا لها وسائرا على طريقها ، فلا يجد من القدرة الإلهية ما يجبره على ترك ما اختار لنفسه على حسب الاستعداد والإدراك وعمل كل فرد ما يرى أنه خير له وأنفع فى عاجله أو آجله أو فيهما معا ثم ندخله جهنم ونعذبه أشد العذاب ، لأنه استحب العمى على الهدى وعاند الحق واتبع الهوى ، وما أقبحها عاقبة لمن تفكر وتدبر!

وقد اشترط فى هذا الوعيد أن يتبين له الهدى ، أما من لم يتبين له فلا يدخل فيه .

وهم أصناف : فمنهم من نظر فى الدليل ولم يظهر له الحق وبقى متوجها إلى طلبه بتكرار النظر والاستدلال مع الإخلاص وهذا معذور غير مؤاخذ ومثل هذا مثل من لم تبلغه الدعوة الإسلامية أو بلغته مشوهة معكوسة ككثير من أهل أوربا فى العصر الحاضر .

إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ ، وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا (١١٦) إِنْ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا إِنَاثًا وَإِنْ يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَانًا مَرِيدًا (١١٧) لَعَنَهُ اللَّهُ وَقَالَ لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَفْرُوضًا (١١٨) وَلَأُضِلَّنَّهُمْ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ ، وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ آذَانَ الْأَنْعَامِ ، وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ اللَّهِ ، وَمَنْ يَتَّخِذِ الشَّيْطَانَ وَلِيًّا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُبِينًا (١١٩) يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا (١٢٠) أُولَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَلَا يَجِدُونَ عَنْهَا مَحِيصًا (١٢١) وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا وَعْدَ اللَّهِ حَقًّا ، وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلًا (١٢٢)

شرح المفردات

يدعون أى يتوجهون إليها ويطلبون منها المعونة لهيبة غيبية لا يعقل الإنسان معناها ، إلا إناثا أى أمواتا ، والعرب تطلق على الميت أنثى لضعفه وعجزه ، والشيطان هو الخبيث المؤذى من الجن والإنس ، والمَريد والمارد من مرد على الشيء إذا مرن عليه حتى صار يأتيه بلاتكلف ، والمراد أنه مرد على الإغواء والإضلال أو تمرد واستكبر عن الطاعة ، واللعن: هو الطرد والإبعاد مع السخط والإهانة، والنصيب: الحصة والسهم من الشيء ، والمفروض : المعين ، والأمانى جمع أمنية ، يقال تمنى الشيء إذا أحب أن يكون له وإن لم يتخذ له أسبابه ، والتمنى : تقدير شيء فى النفس وتصويره فيها سواء أكان عن تخمين وظن أم عن رؤية و بناء على أصل ، ولكنه يغلب فيما يبنى على الحدْس والتخمين وما لاحقيقة له ، البتك : القطع ، وسيف باتك أى قاطع والتبتيك

التقطيع ، والغرور الباطل ، والمحيص المهرب والمخلص ، يقال : وقعوا فى حَيْصَ بَيْصَ وفى حاص باص أى فى أمر يعسر التخلص منه .

المعنى الجملى

علمت فيما سلف أن قوله تعالى: إنا أنزلنا إليك الخ نزلت فى شأن طُعْمة بن أُبيرق سارق الدرع ورميه اليهودى بسرقته، وأن قوله: ومن يشاقق الرسول الخ نزلت فى ارتداده عن الدين ولحوقه بالمشركين ، وهنا ذكر أنه لو لم يرتد لم يكن محروما من رحمة الله ولكنه بارتداده صار بينه و بين رحمته حجاب أيما حجاب فإن كل ذنب يجوز أن يغفره الله للناس إلا ذنب الشرك فإن صاحبه مطرود من عفو الله ورحمته .

الإيضاح

(إن الله لا يغفر أن يشرك به و يغفر مادون ذلك لمن يشاء) تقدم هذا النص بعينه فى غرض آخر من هذه السورة ، وأعاده هنا مرة أخرى، لأنه إنما ترجى الهداية والموعظة بإبراز المعانى التى يراد إيداعها فى نفوس السامعين فى كل سياق يقصد فيه توجيها إليها و إعدادها لقبولها ، ولن يتم ذلك إلا بتكرار المقاصد الأساسية من تلك المعانى حتى تتمكن فى النفوس بذلك التكرار ، ومن ثم نرى رجال الدين والسياسة الذين عرفوا سنن الاجتماع وفهموا طبائع البشر وأخلاقهم يكررون فى خطبهم ومقالاتهم ، أغراضهم ومقاصدهم التى ينشرونها فى الصحف والكتب ، فإن الذهن إذا تكرر عليه مدح الشىء أو ذمه أثر فيه .

المعنى — إن الله أكد لعباده أنه لايغفر لأحد شركه به البتة ، وأنه قد يغفر لمن يشاء من المذنبين مادون الشرك من الذنوب فلا يعذبهم عليه .

ذاك أن الشرك هو منتهى فساد الأرواح وضلال العقول ، فكل خير يلابسه لا يقوى على إضعاف مفاسده وآثامه والعروج بها إلى جوار ربها ، إذ أنها تكون

موزعة بين شركاء يحولون بينها و بين الخاوص إليه عز وجل، والله لا يقبل إلا ما كان خالصا له .

و بعض الناس ممن يسمون أنفسهم بالموحدين يفعلون كما يفعل سائر المشركين ، فيدعون حين يشتد الكرب و يعظم الخطب غير الله وحده أو مع الله ولا يسمون عملهم دعاء بل يسمونه توسلا واستشفاعا و يسمون من يدعونهم أولياء وشفعاء ، ولو لم يكن منهم إلا هذا الدعاء لقضاء الحاجات وتفريج الكربات لكفى ذلك عبادة وشركا بالله ، وقد قال النبى صلى الله عليه وسلم « الدعاء هو العبادة » رواه أبو داود أى إن العبادة جدّ العبادة إنما تكون فى الدعاء الذى يفيض على اللسان من قرارة النفس حين وقوع الخطب واشتداد الكرب ، وهذا ما تسمعه من أصحاب الحاجات عند حدوث الملمات وفى هيا كل العبادات ولدى قبور الأموات ، فكل ذلك يمثل الخشوع والخضوع و يذرف من العين الدموع « وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللهِ أَنْدَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلهِ » .

وما عدا هـذا الدعاء من العبادات جله يفعل بالتعليم ويكون فى الغالب خاليا من الشعور الذى به يكون القول أو الفعل عبادة ، إذ هو خال من معنى العبادة وروحها وهو الشعور بالسلطة الغيبية التى هى وراء الأسباب العادية ، ولا سيما الأدعية التى تكون فى الصلوات أو فى غير الصلوات ، إذ ترى الحافظ لها يحرك بها لسانه وقلبه مشغول بشواغل أخرى ، فمثل هـذا لا يمثل العبادة الحقة التى تملأ القلب نورا ، والنفس استسلاما وخضوعا والروح طهارة وزكاء .

(ومن يشرك بالله فقد ضل ضلالا بعيدا) أى ومن يشرك بالله شيئا فيدعوه معه ويذكر اسمه مع اسمه ، أو يدعوه وحده ملاحظا أنه يقربه إليه زلفى — فقد ضل عن القصد ، و بعد عن سبيل الرشد ضلالا بعيدا فى سبيل الغواية ، لأنه ضلال يفسد العقل ، ويكدر صفاء الروح ، ويجعله يخضع لعبد مثله ، ويخضع أمام مخلوق يحاكيه ، ويكون عبدا للخرافات والأوهام .

وخلاصة ماتقدم :

(١) إن الشرك فى العبادة الذى يتجلى فى الدعاء ، هو أقوى أنواع الشرك ، لأنه يكون باعتقاد ناشىء عن وجدان حا كم على النفس مستعبد لها .

(٢) إن دون هذا — الشرك المبنى على الفكر والنظر الذى يحاجك فيه صاحبه بالشبهات المنتزعة من تشبيه الخالق بالمخلوق ، وقياسه على ظلَمة الملوك ، كقولهم : إن الإنسان الخاطئ لايليق أن يخاطب الإله العظيم مباشرة ، بل عليه أن يتخذ له وليا يكون واسطة بينه و بينه ، كما يتخذ آحاد الرعية الوسائط إلى الملوك والأمراء من المقربين إليهم .

ومثله من يشرك فى ربوبية الله باتخاذ بعض المخلوقين شارعين يحلون له مايرون تحليله ويحرمون عليه ما يرون تحريمه فيتبعهم فى ذلك .

(٣) إن الجزاء فى الآخرة يكون تابعا لما تكون عليه النفس فى الدنيا من سلامة العقيدة ومقدار درجة الفضيلة التى يلازمها فعل الخيرات ، أو فساد الفطرة وخطأ العقيدة والتدنس بالرذيلة التى يلازمها فعل السيئات .

(٤) إن الناس متفاوتون فيما بين ذلك من درجات ودركات ، أخسها الشرك وأعلاها التوحيد ولكل منهم صفات تناسبها ، فلو جاز أن يغفر الشرك و يجعل صاحبه مع النبيين والصديقين والملائكة المقربين لكان ذلك نقضا لسنة الله التى لاتبديل فيها ولا تغيير .

(إن يدعون من دونه إلا إناثاً) أى هؤلاء المشركون لايدعون لقضاء حاجتهم وتفريج كربهم إلا أمواتاً فقد كانوا يعظمون الموتى و يدعونها كما يفعل ذلك كثير من أهل الكتاب ومسلمى هذه القرون ، أو إلا إناثا كاللات والعزّى ، وقد كان لكل قبيلة صنم يسمونه أنثى بنى فلان .

(وإن يدعون إلا شيطاناً مريداً) أى وما يعبدون بعبادتها إلا شيطانا مريدا ، إذ هو الذى أمرهم بعبادتها وأغراهم بها ، فكانت طاعتهم له عبادة .

(لعنه الله) أى أبعده الله عن رحمته وفضله ، فإنه داعية الشر والباطل فى نفس الإنسان بما يوسوس فى صدره و يعده و يمنيه .

(وقال لأتخذنّ من عبادك نصيبا مفروضا) النصيب المفروض هو ما للشيطان فى نفس كل أحد من الاستعداد للشر ، إذ ما من إنسان إلا يشعر من نفسه بوسوسة الشيطان ، فإن لم يكن بالشرك فبالمعصية والإصرار عليها أو الرياء فى العبادة ، لكن الله أخبر أنه ليس له سلطان على عباده المخلصين ، وقد جاء فى القرآن والحديث ما يدل على هذا .

والخلاصة أن الشيطان خلق متمردا على الحق بعيدا من الخير مُغْرًى بإغواء البشر و إضلالهم .

(ولأضلّنهم ولأمنينَّهم) إضلال الشيطان لمن يضلهم هو صرفهم عن العقائد الصحيحة وشغلهم عن الدلائل الموصلة إلى الحق والهدى ، وتمنيته لهم تزيينه لهم الاستعجال باللذات الحاضرة والتسويف بالتوبة والعمل الصالح .

والخلاصة ـ أن من شأن الشيطان ومقتضى طبعه إضلال العباد وشغلهم بالأمانى الباطلة كرحمة الله للمجرمين بغير توبة والخروج من النار بعد دخولها بالشفاعة ، وتزيين لذات الحياة العاجلة على ثواب الآجلة ونعيمها .

(ولآمرنهم فليبتكن آذان الأنعام) أى ولآمرنهم بالضلال فليقطعن آذان الأنعام بموجب أمرى ، والمراد به ما كانوا يفعلونه من قطع آذان بعض الأنعام لأصنامهم كالبحائر التى كانوا يقطعون آذانها أو يشقونها شقا واسعا و يتركون الحمل عليها ، وهذا من سخيف أعمالهم الوثنية الدالة على سنة عقولهم .

(ولآمرنهم فليغيرن خلق الله) تغيير خلق الله وسوء التصرف فيه شامل للتغيير الحسى كالخصاء ورووا ذلك عن ابن عباس وأنس بن مالك ، وللتغيير المعنوى وروى أيضا عن ابن عباس وغيره ، وعلى هذا فالمراد بخلق الله دينه لأنه دين الفطرة وهى

الخلقة قال تعالى : « فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً فِطْرَةَ اللهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لاَ تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ » أى إنه يراد به تغيير الفطرة الإنسانية عما فطرت عليه من الميل إلى النظر والاستدلال وطلب الحق وتربيتها وتعويدها الأباطيل والرذائل والمنكرات ، فالله قد أحسن كل شىء خلقه ، وهؤلاء يفسدون ما خلق الله ويطمسون عقول الناس .

والخلاصة — إن الدين الفطرى الذى هو من خلق الله وآثار قدرته ليس هو مجموع الأحكام التى جاء بها الرسل ليبلغوها للناس ، بل هو ما أودعه الله فى فطرة البشر من توحيده والاعتراف بقدرته وجلاله ، وهو ما أشار إليه فى الحديث « كل مولود يولد على الفطرة » .

ومن أهم أسس هـذا الدين الفطرية العبوديةُ للسلطة الغيبية التى تنتهى إليها الأسباب وتقف دون الوصول إلى حقيقتها العقول .

(ومن يتخذ الشيطان وليا من دون الله فقد خسر خسرانًا مبيناً) أى ومن يتبع الشيطان ووسوسته وإغواءه وهو البعيد من أسباب رحمة الله وفضله ، فقد خسر خسرانًا ظاهراً فى الدنيا والآخرة ؛ إذ أنه يكون أسير الأوهام والخرافات ، يتخبط فى عمله على غير هدى ويفوته الانتفاع التام بما وهبه الله من العقل والمواهب الكسبية التى أوتيها الإنسان وميز بها من بين أصناف الحيوان .

(يعدهم ويمنيهم) فيعد الناس الفقر إذا هم أنفقوا شيئا من أموالهم فى سبيل الله ويوسوس لهم بأن أموالهم تنفد أو تقلّ ويصبحون فقراء أذلاء ويعدهم الغنى والثروة حين الإغراء بالقمار ، ويعد من يغريه بالتعصب لرأيه وإيذاء مخالفه فيه من أهل دينه بالجاه والشهرة وبعد الصيت .

ويؤيد هذه الوعود بالأمانى الباطلة يلقيها إليهم .

ويدخل فى وعد الشيطان وتمنيته ما يكون من أوليائه من الإنس وهم قرناء السوء الذين يزينون للناس الضلال والمعاصى ويمدونهم فى الطغيان وينشرون مذاهبهم

الفاسدة وآراءهم الضالة التي يبتغون بها الرفعة والجاه والمال ، وهؤلاء يوجدون في كل زمان ومكان .

(وما يعدهم الشيطان إلا غروراً) أي ولا يعدهم الشيطان إلا باطلا يغترون به ولا يملكون منه ما يحبون ، فيزين لهم النفع في بعض الأشياء وهي مشتملة على كثير من الآلام والمضارّ ، فالزاني أو المقامر أو شارب الخمر يخيل إليه أنه يتمتع باللذات بينما هو في الحقيقة يتمتع بلذائذ وقتية تعقبها آلام دنيوية طويلة المدى ، وخيمة العواقب إلى عذاب أخروي لايعلم كنهه إلا من أحاط بكل شيء علما .

(أولئك مأواهم جهنم ولا يجدون عنها محيصاً) أي أولئك الذين يعبث بهم الشيطان بوسوسته أو بإغواء دعاة الباطل من أوليائه ، مأواهم جهنم لايجدون عنها مهربا يفرون إليه ، إذ هم بطبيعتهم ينجذبون إليها ويتهافتون عليها تهافت الفَراش على النار .

(والذين آمنوا وعملوا الصالحات سندخلهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها أبدا) بعد أن بين الله أولياء الشيطان وما يعدهم الشيطان به من الوعود والأماني بزخرف القول وغروره ، وذكر عاقبتهم بأنهم لايجدون مستقرا ومكانا إلا جهنم ذات العذاب التي تصلى وجوههم وجنوبهم وظهورهم .

ذكر هنا عاقبة من لايستجيب للشيطان دعوة ولا يصيخ لأمره ونهيه ، فبين أنها النعيم المقيم في جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها أبدا وذلك هو الفوز العظيم لمن آمن وعمل صالحا وسمت نفسه عن دنس الشرك فلم تجعل لله أندادا ولم تحط بها الخطيئة في صباحها ومسائها في غدوها ورواحها .

(وعد الله حقا ومن أصدق من الله قيلا ؟) أي ذلك الذي وعدكم الله به هو الوعد الحق فهو القادر على أن يعطي ما وعد بفضله وجوده وواسع كرمه ورحمته ، وأما وعد الشيطان فهو غرور من القول وزور ، إذ هو عاجز عن الوفاء فهو يدلى إلى

أوليائه بباطله فحقه ألا يستجاب له أمر ولا نهى ولا تتبع له نصيحة، فوساوسه أباطيل وسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماء حتى إذا جاءه لم يجده شيئا .

لَيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَا أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ، مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ وَلَا يَجِدْ لَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا (١٢٣) وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ، فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا (١٢٤) وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا، وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا (١٢٥) وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُحِيطًا (١٢٦)

شرح المفردات

الأمانى، واحدها أمنية : وهى الصورة التى تحصل فى النفس من تمنى الشىء وتقديره، وكثيرا ما يطلق التمنى على ما لا حقيقة له ، ومن ثم يعبرون به عن الكذب كما قال عثمان رضى الله عنه : ما تغنيت ولا تمنيت منذ أسلمت . وليا : أى يلى أمره ويدفع العقاب عنه ، ولا نصيرا : أى ينصره وينقذه مما يحل به، والنقير والنقرة: النكتة التى تكون فى ظهر النواة ويضرب بها المثل فى القلة ، الحنيف: المائل عن الزيغ والضلال ، والخليل : المحب لمن يحبه ، من الخلة (بالضم) وهى المودة والمحبة التى تتخلل النفس وتمازجها قال شاعرهم :

قد تخللت مسلك الروح منى ... وبذا سمى الخليل خليلا

محيطا : أى عالما بالأشياء قادرا عليها .

المعنى الجملى

بعد أن بين الله سبحانه فى الآيات السالفة أن الشيطان يعدهم و يمنيهم، و يدخل فى تلك الأمانى ما كان يمنيه أهل الكتاب من الغرور بدينهم إذ كانوا يرون أنهم شعب الله الخاص ويقولون إنهم أبناء الله وأحباؤه وأن النار لن تمسهم إلا أياما معدودات ، وقد سرى لهم هذا الغرور من اتكالهم على الشفاعات وزعمهم أن فضلهم على غيرهم من البشر بمن بعث فيهم من الأنبياء ، فهم يدخلون الجنة بكرامتهم لا بأعمالهم .

حذرنا فى هـذه الآيات أن نكون مثلهم ، وكانت هذه الأمانى قد دبت إلى المسلمين فى عصر النبى صلى الله عليه وسلم كما دلّ على ذلك قوله : « أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلاَ يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلُ » الآية ، فلضعفاء الإيمان من المسلمين فى الصدر الأول ولأمثالهم فى كل زمان أنزلت هذه الموعظة ، ولو تدبروها لما كان لهذه الأمانى عليهم من سلطان ، وقد أخرج ابن أبى شيبة عن الحسن موقوفا . « ليس الإيمان بالتمنى ولكن ما وقر فى القلب وصدقه العمل » وقال الحسن : إن قوما غرتهم المغفرة فخرجوا من الدنيا وهم مملوءون بالذنوب ولو صدقوا لأحسنوا العمل .

أخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن السدى قال « التقى ناس من المسلمين واليهود والنصارى فقال اليهود للمسلمين: نحن خير منكم ، ديننا قبل دينكم وكتابنا قبل كتابكم ونبينا قبل نبيكم ونحن على دين إبراهيم ولن يدخل الجنة إلا من كان هودا. وقالت النصارى مثل ذلك ، فقال المسلمون: كتابنا بعد كتابكم ونبينا بعد نبيكم ، وقد أمرتم أن تتبعونا وتتركوا أمركم ، فنحن خير منكم ، نحن على دين إبراهيم و إسماعيل

وإسحاق ، ولن يدخل الجنة إلا من كان على ديننا فأنزل الله ليس بأمانيكم الخ الآية» فأفلج الله حجة المسلمين على من ناوأهم من أهل الأديان الأخرى .

الإيضاح

(ليس بأمانيكم ولا أمانىّ أهل الكتاب) أى ليس فضل الدين وشرفه ولا نجاة أهله به أن يقول القائل منهم : إن دينى أفضل وأكمل ، بل عليه أن يعمل بما يهديه إليه ، فإن الجزاء إنما يكون على العمل لا على التمنى والغرور ، فليس أمر نجاتكم ولا أمر نجاة أهل الكتاب منوطا بالأمانى فى الدين ، فالأديان لم تشرع للتفاخر والتباهى ولا تحصل فائدتها بالانتساب إليها دون العمل بها .

(من يعمل سوءا يجز به) أى إن من يعمل سوءا يلق جزاءه ، لأن الجزاء على حسب سنة الله تعالى أثر طبيعى للعمل لا يتخلف فى اتباع بعض الأنبياء وينزل بغيرهم كما يتوهم أصحاب الأمانى والظنون ، فعلى الصادق فى دينه أن يحاسب نفسه على العمل بما هداه إليه كتابه ورسوله ويجعل ذلك المعيار فى سعادته ، لا أن يجعل تكأته أن هذا الكتاب أكمل ولا أن ذلك الرسول أفضل .

وقد روى « أنه لما نزل قوله (من يعمل سوءا يجز به) راع ذلك أبا بكر وأخافه فسأل النبى صلى الله عليه وسلم قال : من ينج مع هذا يا رسول الله ؟ فقال له النبى صلى الله عليه وسلم أما تحزن ، أما تمرض ، أما يصيبك البلاء ؟ قال بلى يا رسول الله قال هو ذاك » .

وأخرج مسلم وغيره عن أبى هريرة قال : لما نزلت هذه الآية شق ذلك على المسلمين وبلغت منهم ما شاء الله تعالى فشكوا ذلك إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : « سدّدوا وقاربوا فإن فى كل ما أصاب المسلم كفارة حتى الشوكة يشاكها والنكبة ينكبها » والأحاديث بهذا المعنى كثيرة ، ومن ثم يرى عامة العلماء أن الأمراض والأسقام ومصايب الدنيا وهمومها يكفر الله بها الخطايا .

و يرى بعضهم أن المصايب لاتكفّر إلا إذا أثرت فى النفس تأثيرا صالحا وكانت سببا فى قوة الإيمان وترك السوء والتوبة منه والرغبة فى صالح العمل بما تحدثه من العبرة فتكون مربية لعقله ونفسه ، أما إذا ضاعفت الذنوب كالمصايب التى تحمل صاحبها على الجزع ومهانة النفس وضعف الإيمان إلى ذنوب أخرى لم يكونوا ليقترفوها لولا المصيبة فلا تكفر شيئا من الخطايا بل تزيدها .

(ولا يجد له من دون الله وليا ولا نصيرا) أى من يعمل السوء و يستحق العقاب عليه لايجد له وليا غير الله يتولى أمره و يدفع الجزاء عنه ، ولا نصيرا ينصره و ينقذه مما يحل به ، لامن الأنبياء الذين تفاخر بهم ولا من غيرهم من المخلوقات التى اتخذها بعض البشر آلهة وأربابا ، فكل تلك الأمانى تكون أضغاث أحلام ، و إنما يكون المدار فى ذلك على الإيمان والأعمال كما قال :

(ومن يعمل من الصالحات من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فأولئك يدخلون الجنة ولا يظلمون نقيرا) أى ومن يعمل كل ما يستطيع عمله من الأعمال التى تصلح بها النفوس فى أخلاقها وآدابها وأحوالها الاجتماعية ، سواء كان العامل ذكرا أو أنثى وهو مطمئن القلب بالإيمان ـ فأولئك العاملون المؤمنون بالله واليوم الآخر يدخلون الجنة بزكاء أنفسهم وطهارة أرواحهم ولا يظلمون من أجور أعمالهم شيئا ولو حقيرا كالنقير.

وفى هذه الآية وما قبلها من العبرة والموعظة ما يهدم صروح الأمانى التى يأوى إليها الكسالى وذوو الجهالة من المسلمين الذين يظنون أن الله يحابى من يسمى نفسه مسلما و يفضله على اليهودى والنصرانى لأجل هذا اللقب ، فالذين يفخرون بالانتساب إليه وقد نبذوه وراء ظهورهم وحرموا الاهتداء بهديه ، هم فى ضلال مبين .

و بعد أن بين سبحانه أن النجاة والسعادة منوطان بصالح الأعمال مع الإيمان أردف ذلك بذكر درجات الكمال فقال :

(ومن أحسن ديناً ممن أسلم وجهه لله وهو محسن) أى لا أحد أحسن ممن جعل قلبه خالصا لله وحده فلا يتوجه إلى غيره فى دعاء ولا رجاء ولايجعل بينه و بينه حجابا

من الوسطاء والشفعاء ، ولا يرى فى الوجود إلا الله ويعتقد أنه سبحانه ربط الأسباب بالمسببات ، فلا يطلب شيئا إلا من خزائن رحمته ، ولا يأتى بيوت هذه الخزائن إلا من مسالكها وهى السنن والأسباب التى سنها فى الخليقة .

وهو مع هـذا الإيمان الكامل والتوحيد الخالص محسن للعمل متحلّ بأحسن الأخلاق والفضائل .

وقد عبر عن توجه القلب بإسلام الوجه ، لأن الوجه أعظم مظهر لما فى النفس من إقبال أو إعراض وسرور أو كآبة ، وما فيه هو الذى يدل على ما فى السريرة .

(واتبع ملة إبراهيم حنيفا) أى واتبع إبراهيم فى حنيفيته التى كان عليها بميله عن الوثنية وأهلها وتبريه مما كان عليه أبوه وقومه منها، قال تعالى: « وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِى بَرَاءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ . إِلَّا الَّذِى فَطَرَنِى فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ . وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِى عَقِبِهِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ » .

(واتخذ الله إبراهيم خليلا) أى اصطفاه الله لإقامة دينه فى بلاد غلبت عليها الوثنية وأفسد الشرك عقول أهلها ، وقد بلغ من الزلفى عند ربه ماصح به أن يسمى خليلا فقد اختصه بكرامة ومنزلة تشبه الخليل لدى خليله ، ومن كانت له هذه المنزلة كان جديرا أن تتبع ملته وتؤتسى طريقته .

والخلاصة — أنه منّ عليه بسلامة الفطرة وقوة العقل وصفاء الروح وكمال المعرفة وفنائه فى التوحيد .

(ولله ما فى السموات وما فى الأرض) أى إن كل ما فى السموات والأرض ملك له ومن خلقه مهما اختلفت صفات المخلوقات ، فجميعها مملوكة عابدة له خاضعة لأمره .

(وكان الله بكل شىء محيطا) إحاطة قهر وتسخير ، وإحاطة علم وتدبير ، وإحاطة وجود لأن هذه الموجودات ليس وجودها من ذاتها ولا هى ابتدعت نفسها

بل وجودها مستمد من ذلك الوجود الأعلى ، فالوجود الإلهى هو المحيط بكل موجود فوجب أن يخلص له الخلق و يتوجه إليه العباد .

وقد جاءت هذه الآية خاتمة لما تقدم لفوائد :

(١) بيان الدليل على أنه المستحق وحده لإسلام الوجه له والتوجه إليه فى كل حال لأنه هو المالك لكل شىء ، وغيره لا يملك لنفسه شيئا .

(٢) نفى ما يتوهم فى اتخاذ الله إبراهيم خليلا من أن هناك شيئا من المقاربة فى حقيقة الذات والصفات .

(٣) التذكير بقدرته تعالى على إنجاز وعده ووعيده فى الآيات التى قبلها ، إذ من له ما فى السموات والأرض خلقا وملكا فهو أكرم من وعد .

وَيَسْتَفْتُونَكَ فِي النِّسَاءِ ، قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ وَمَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ فِي يَتَامَى النِّسَاءِ اللَّاتِي لَا تُؤْتُونَهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ وَتَرْغَبُونَ أَنْ تَنْكِحُوهُنَّ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الْوِلْدَانِ وَأَنْ تَقُومُوا لِلْيَتَامَى بِالْقِسْطِ ، وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِهِ عَلِيماً (١٢٧) وَإِنِ امْرَأَةٌ خَافَتْ مِنْ بَعْلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاضاً فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَنْ يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا ، وَالصُّلْحُ خَيْرٌ ، وَأُحْضِرَتِ الْأَنْفُسُ الشُّحَّ ، وَإِنْ تُحْسِنُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا (١٢٨) وَلَنْ تَسْتَطِيعُوا أَنْ تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ ، فَلَا تَمِيلُوا كُلَّ الْمَيْلِ فَتَذَرُوهَا كَالْمُعَلَّقَةِ ، وَإِنْ تُصْلِحُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيماً (١٢٩) وَإِنْ يَتَفَرَّقَا يُغْنِ اللَّهُ كُلًّا مِنْ سَعَتِهِ ، وَكَانَ اللَّهُ وَاسِعاً حَكِيماً (١٣٠)

شرح المفردات

يستفتونك أى يطلبون منك الفتيا ، يفتيكم : يبين لكم ما أشكل عليكم ، يقال أفتاه إفتاء وفتيا وفتوى ، وأفتيت فلانا رؤياه عبرتها له ، ما كتب لهن أى مافرض لهن من الميراث ، وأن تقوموا أى تعنوا عناية خاصة ، بالقسط أى بالعدل ، خافت أى توقعت ماتكره بوقوع بعض أسبابه أو ظهور بعض أماراته ، نشوزا: ترفعا وتكبرا إعراضا : ميلا وانحرافا ، فلا جناح أى لا إثم ولا حرج ، أحضرت الأنفس الشح أى إن الشح حاضر لها لايغيب عنها ، المعلقة : التى ليست مطلقة ولا ذات بعل ، من سعته . من غناه ، واسعا : غنيا .

المعنى الجملى

كان الكلام أول السورة فى الأحكام المتعلقة بالنساء واليتامى والقرابة ، ومن قوله واعبدوا الله إلى هنا فى أحكام عامة فى أسس الدين وأصوله وأحوال أهل الكتاب والمنافقين والقتال ــ ثم عاد الكلام هنا إلى أحكام النساء لشعور الناس بالحاجة إلى زيادة البيان فى تلك الأحكام ، فالآيات السالفة أوجبت مراعاة حقوق الضعيفين المرأة واليتيم وجعلت للنساء حقوقا مؤكدة فى المهر والإرث وحرمت ظلمهن وأباحت تعدد الزوجات وحددت العدد الذى يحل منهن حين الخوف من عدم الظلم ، ولكن ربما يحدث لهم الاشتباه فى بعض الوقائع المتعلقة بها كأن يقع الاشتباه فى حقيقة العدل الواجب بين النساء ، هل يدخل العدل فى الحب أو فى لوازمه من زيادة الإقبال على المحبوبة والتبسط فى الاستمتاع بها أولا ، وهل يحل للرجل أن يمنع اليتيمة ما كتب الله لها من الإرث حين يرغب فى نكاحها ؟ وبماذا يصالح امرأته إذا أرادت أن تفتدى منه ــ كل هذا مما تشتد الحاجة إلى معرفته بعد العمل بتلك الأحكام ، فمن ثم جاءت هذه الآيات مبينة أتم البيان لذلك .

أخرج ابن جرير قال : كان لا يرث إلا الرجل الذى قد بلغ أن يقوم فى المال ويعمل فيه ولا يرث الصغير ولا المرأة شيئا ، فلما نزلت آيات المواريث فى سورة النساء شق ذلك على الناس وقالوا : أيرث الصغير الذى لا يقوم فى المال والمرأة التى هى كذلك فيرثان كما يرث الرجل ، فرجوا أن يأتى فى ذلك حدث من السماء فانتظروا فلما رأوا أنه لا يأتى حدث قالوا لئن تم هذا إنه لواجب ما عنه بدّ ، ثم قالوا سلوا فسألوا النبي صلى الله عليه وسلم فأنزل الله تعالى هذه الآية .

الإيضاح

(ويستفتونك فى النساء) أى يطلبون منك الفتيا فى شأنهن ببيان ما غمض وأشكل من أحكامهن من جهة حقوقهن المالية والزوجية كالعدل فى المعاملة حين العشرة وحين الفرقة والنشوز .

(قل الله يفتيكم فيهن) بما يوحيه إليك من الأحكام فى كتابه .

(وما يتلى عليكم فى الكتاب فى يتامى النساء اللاتى لا تؤتونهن ما كتب لهن وترغبون أن تنكحوهن والمستضعفين من الولدان) أى ويفتيكم فى شأنهن ما يتلى عليكم فى الكتاب مما نزل قبل هذا الاستفتاء فى أحكام معاملة يتامى النساء اللاتى قد جرت عادتكم ألا تعطوهن ما كتب لهن من الإرث إذا كان فى أيديكم لولايتكم عليهن وترغبون فى أن تنكحوهن لجمالهن والتمتع بأموالهن ، أو عن أن تنكحوهن لدمامتهن فلا تَنكحونهن ولا تُنكحونهن غيركم حتى يبقى مالُهن فى أيديكم ، وقد كان الرجل منهم يضم اليتيمة ومالها إلى نفسه فإن كانت جميلة تزوجها وأكل المال ، وإن كانت دميمة عضلها عن التزوج حتى تموت فيرثها ، وما يتلى عليكم أيضا فى شأن المستضعفين من الولدان الذين لا تعطونهم نصيبهم من الميراث ، وقد كانوا إنما يورثون الرجال دون الأطفال والنساء .

والخلاصة — أن الذى يتلى عليهم فى الضعيفين المرأة واليتيم هو ما تقدم فى أول

السورة وأن الله يذكرهم بتلك الآيات المفصلة ليتدبروها ويتأملوا معانيها ثم يعملوا بها ، إذ قد جرت طباع البشر أن يتغافلوا عن دقائق الأحكام والعظات التى ترجعهم عن أهوائهم وتؤنبهم على اتباع شهواتهم .

(وأن تقوموا لليتامى بالقسط) أى يفتيكم أن تقوموا لليتامى من هؤلاء النساء والولدان المستضعفين بالقسط ، بأن تهتموا بهم اهتماما خاصا وتعنوا بشأنهم ويجرى العدل فى معاملتهم على أكمل الوجوه وأتمها ، فإن ذلك هو الواجب الذى لا هوادة فيه ولا خيرة فى شأنه .

(وما تفعلوا من خير فإن الله كان به عليما) أى وما تفعلوه من الخيرات لليتامى فهو مما لا يعزب عن علمه وهو مجازيكم به ولا يضيع عنده شىء منه .

(وإن امرأة خافت من بعلها نشوزا أو إعراضا) أى وإن توقعت من بعلها نشوزا وترفعا عليها بما لاح لها من مخايل ذلك وأماراته بأن منعها نفسه ونفقته والمودة والرحمة التى تكون بين الرجل والمرأة ، أو آذاها بسبٍّ أو ضرب أو نحو ذلك ، أو إعراضا عنها بأن قلل من محادثتها ومؤانستها لبعض أسباب من طعن فى سن أو دمامة أو شىء فى الأخلاق أو الخلق أو ملال لها أو طموح إلى غيرها أو نحو ذلك .

لكن الواجب عليها أن تتثبت فيما تراه من أمارات الإعراض فربما كان الذى شغله عن مسامرتها والرغبة عن مباعلتها مسائل من مشاكل الحياة الدنيوية أو الدينية ، وهى أسباب خارجية لا دخل له فيها ولا تعلق لها بكراهتها والجفوة عنها وحينئذ عليها أن تعذره ، وتصبر على مالا تحب من ذلك ، أما إذا استبان لها أن ذلك لكراهته إياها ورغبته عنها .

(فلا جناح عليهما أن يصلحا بينهما صلحا) أى فلا بأس بهما فى أن يصلحا بينهما صلحا كأن تسمح له ببعض حقها عليه فى النفقة أو المبيت معها أو بحقها كله فيهما أو فى أحدهما لتبقى فى عصمته مكرمة أو تسمح له ببعض المهر ومتعة الطلاق أو بكل

ذلك ليطلقها كما جاء فى قوله تعالى : « فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا افْتَدَتْ بِهِ »
و إنما يحل له ذلك إذا كان برضاها لاعتقادها أن فى ذلك الخير لها بلا ظلم لها ولا إهانة.

وقد روى أن امرأة أراد زوجها أن يطلقها لرغبته عنها وكان لها منه ولد فقالت لا تطلقنى ودعنى أقوم على ولدى وتقسم لى فى كل شهرين ، فقال إن كان هذا يصلح فهو أحب إلىّ ، فأقرها على ما طلبت .

(والصلح خير) من التسريح والفراق ، لأن رابطة الزوجية من أعظم الروابط وأحقها بالحفظ وميثاقها من أغلظ المواثيق .

وعروض الخلاف بين الزوجين وما يترتب عليه من نشوز و إعراض وسوء معاشرة من الأمور الطبيعية التى لا يمكن زوالها من البشر .

وأجمل ما جاء فى الإسلام لمنعه هو المساواة بينهما فى كل شىء إلا القيام برياسة الأسرة لأنه أقوى من المرأة بدنا وعقلا وأقدر على الكسب وعليه النفقة كما جاء فى قوله « وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِى عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ » .

فيجب على الرجل أن يعاشرها بالمعروف وأن يتحرى العدل بقدر المستطاع .

(وأحضرت الأنفس الشح) أى إن النفوس عرضة له ، فإذا عرض لها داع من دواعى البذل ألمّ بها الشح والبخل ونهاها أن تبذل ما ينبغى بذله لأجل الصلح ، فالنساء حريصات على حقوقهن فى القسم والنفقة وحسن العشرة ، والرجال حريصون على أموالهم أيضا ، فينبغى أن يكون التسامح بينهما كاملا إذ هما قد ارتبطا ارتباطا وثيقا بذلك الميثاق العظيم وأفضى بعضهما إلى بعض .

(و إن تحسنوا وتتقوا فإن الله كان بما تعملون خبيرا) أى و إن تحسنوا العشرة فيما بينكم وتتقوا أسباب النشوز والإعراض ومايترتب عليهما من الشقاق ، فإن الله كان خبيرا بذلك لايخفى عليه شىء منه ، فهو يجازى من أحسن الحسنى و يثيبه على ذلك .

(ولن تستطيعوا أن تعدلوا بين النساء ولو حرصتم) أى مهما حرصتم على العدل والمساواة بين المرأتين حتى لايقع ميل إلى إحداهما ولا زيادة ولا نقص ، فلن تستطيعوا

ذلك ، ولو قدرتم عليه لما قدرتم على إرضائها به ، ومن ثم رفع الله ذلك عنكم وما كلفكم إلا العدل فيما تستطيعون بشرط أن تبذلوا فيه وسعكم ، لأن الباعث على الكثير من هذا الميل هو الوجدان النفسى والميل القلبى الذى لا يملكه المرء ولا يحيط به اختياره ولا يملك آثاره الطبيعية ، ولهذا خفف الله ذلك عنكم وبين أن العدل الكامل غير مستطاع ولا يتعلق به تكليف .

(فلا تميلوا كل الميل) أى وإذا كان ذلك غير مستطاع فعليكم ألا تميلوا كل الميل إلى من تحبون منهن وتعرضوا عن الأخرى .

(فتذروها كالمعلقة) أى كأنها ليست بالمتزوجة ولا بالمطلقة ، فإن الذى يغفره لكم من الميل هو ما لا يدخل فى اختياركم ولا يكون فيه تعمد التقصير أو الإهمال ، أما ما يقع تحت اختياركم فعليكم أن تقوموا به إذ لا هوادة فيه .

(وإن تصلحوا وتتقوا فإن الله كان غفورا رحيما) أى وإن تصلحوا فى معاملة النساء وتتقوا ظلمهن وتفضيل بعضهن على بعض فيما يدخل فى اختياركم كالقسم والنفقة فإن الله يغفر لكم ما دون ذلك مما لا يدخل فى اختياركم كالحب وزيادة الإقبال وغير ذلك .

وفى الآية عظة وعبرة لمن يتأملها من عباد الشهوات الذين لا يقصدون من الزوجية إلا التمتع باللذات الحيوانية دون مراعاة أهم أسس الحياة الزوجية التى ذكرها الله فى قوله « وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً » ولا يلاحظون أمر النسل وإصلاح الذرية ، هؤلاء السفهاء الذواقون الذين يكثرون من الزواج ما استطاعوا ولا باعث لهم إلا حب التنقل والملل من السابقة ولا يخطر لهم أمر العدل فى بال — عليهم أن يتقوا الله ويفكروا فى ميثاق الزوجية وفى حقوقها المؤكدة وفى عاقبة نسلهم وشؤون ذريتهم وفى حال أمتهم التى تتألف من هذه البيوت المبنية على أسس الشهوات والأهواء وفى حال ذريتهم التى تنشأ بين أمهاتها متعاديات .

(وإن يتفرقا يغن الله كلا من سعته) أى وإن يتفرق الزوجان اللذان يخافان ألا يقيما حدود الله بأن كره الرجل امرأته لدمامتها أو كبرها وأراد أن يتزوج غيرها أو كان عنده زوجان ولم يقدر على العدل بينهما ـ يغن الله كلا منهما عن صاحبه بسعة فضله ووافر إحسانه وجوده ، فقد يسخر المرأة رجلا خيرا منه ، كما يهيئ له امرأة أخرى تحصنه وترضيه وتقوم بشؤون بيته وأولاده ، ولن يكون كل منهما جديرا بعناية الله وإغنائه عن الآخر إلا إذا التزما حدود الله بأن اجتهدا فى الوفاق والصلح وظهر لهما بعد التفكير والتروى فى الأسباب أنه غير مستطاع ، فافترقا وهما حافظان لكرامتهما عما يجعلهما عرضة للنقد ونهش العرض ، فإن ذلك مما يرغب الناس فيهما لما يرونه فيهما من الأخلاق الفاضلة وعدم التلاحى والتنابذ والتهاجى واختلاق الأكاذيب ، فالرجل ذو الخلق الكريم إذا علم أن امرأة اختلفت مع بعلها لأنها لم تقبل أن تعيش مع من يعرض عنها أو يترفع عليها بل أحبت أن تعيش معه بطريق عادلة يرى فيها أفضل صفات الزوجية .

وكذلك كرائم النساء وأولياؤهن يرغبون فى الرجل إذا علموا أنه يمسك المرأة بمعروف أو يسرحها بإحسان ولا يلجئه إلى الطلاق إلا الخوف من عدم إقامة حدود الله .

(وكان الله واسعا حكيما) أى وكان الله ولا يزال واسع الفضل والرحمة ، حكيما فيما شرعه من الأحكام التى جعلها وفق مصالح العباد .

وَلِلَّهِ مَا فِى السَّمَوَاتِ ومَا فِى الْأَرْضِ ، وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ اتَّقُوا اللَّهَ ، وَإِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِى السَّمَوَاتِ وَمَا فِى الْأَرْضِ ، وَكَانَ اللَّهُ غَنِيًّا حَمِيدًا (١٣١) وَلِلَّهِ مَا فِى السَّمَوَاتِ وَمَا فِى الْأَرْضِ ، وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلاً (١٣٢) إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ

أَيُّهَا النَّاسُ وَيَأْتِ بِآخَرِينَ ، وكَانَ اللهُ عَلَى ذَلِكَ قَدِيرًا (١٣٣) مَنْ كَانَ يُرِيدُ ثَوَابَ الدُّنْيَا فَعِنْدَ اللهِ ثَوَابُ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ، وكَانَ اللهُ سَمِيعًا بَصِيرًا (١٣٤)

المعنى الجملى

بعد أن أمر سبحانه بالعدل والإحسان إلى اليتامى والمساكين ، بين أنه ما أمر بهذه الأشياء لاحتياجه إلى أعمال العباد ، لأن كل ما فى السموات والأرض ملكه فهو مستغن عنهم وقادر على إثابتهم على طاعته فيما شرعه لخيرهم ومصلحتهم ، بل ليزدادوا بتدبرها إيمانا يحملهم على العمل بها والوقوف عند حدودها .

الإيضاح

(ولله مافى السموات وما فى الأرض) خلقا وملكا ، فهو وحده مدبر الأكوان فلا يتعذر عليه الإغناء بعد الفقر ولا الإيناس بعد الوحشة إلى نحو هذا مما ينبئ بعظيم القدرة وكمال الجود والإحسان .

(ولقد وصينا الذين أوتوا الكتاب من قبلكم وإياكم أن اتقوا الله) أى ولقد أمرنا من قبلكم من اليهود والنصارى وغيرهم من سالف الأمم كما أمرناكم بتقوى الله فى إقامة سننه وإقامة شريعته ، فبالأولى ترقى معارفكم وبالثانية تزكو نفوسكم وتنتظم مصالحكم الدينية والدنيوية .

(وإن تكفروا فإن لله مافى السموات وما فى الأرض) أى وإن تكفروا أنعم الله وتجحدوا فضله وإحسانه فاعلموا أنه سبحانه مالك الملك والملكوت لايضره كفركم ومعاصيكم كما لاينفعه شكركم وتقواكم ، وصاكم وإياهم لرحمته لا لحاجته .

(وكان الله غنيا حميدا) أى وكان الله غنيا عن كل شىء بذاته ، محمودا بذاته

وكمال صفاته ، فهو لايحتاج إلى شكركم لتكميل نفسه « وَإِنْ مِنْ شَىْءٍ إلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لاَ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ » وفى الحديث القدسى «ياعِبَادى إنَّكُمْ لن تبلغوا ضرى فتضرونى ، ولن تبلغوا نفعى فتنفعونى، لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أتقى قلب رجل واحد منكم مازاد ذلك فى ملكى شيئا ، ياعبادى لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أفجر قلب رجل واحد منكم ما نقص ذلك فى ملكى شيئا ، ياعبادى لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم قاموا فى صعيد واحد فسألونى فأعطيت كل واحد مسألته مانقص ذلك مما عندى إلا كما ينقص المِخْيَط إذا أدخل فى البحر ، ياعبادى إنما هى أعمالكم أحصيها لكم ثم أوفيكم إياها فمن وجد خيرا فليحمد الله ، ومن وجد غير ذلك فلا يلومنَّ إلا نفسه » رواه مسلم .

(ولله مافى السموات والأرض وكفى بالله وكيلا) أى له سبحانه ما فيهما خلقا وملكا يتصرف فيهما كيفما شاء إيجادا وإعداما وإحياء وإماتة ، وكفى به قيّما وكفيلا يوكل به أمر العباد فى أرزاقهم وأقواتهم وسائر شؤونهم .

(إن يشأ يذهبكم أيها الناس ويأت بآخرين) أى إن يرد إفناءكم واستئصالكم من الوجود وإيجاد قوم آخرين من البشر يحلون محلكم فى الحكم والتصرف فهو قادر على ذلك لأن كل ما فى السموات والأرض فهو تحت قبضته وخاضع لسلطانه

والخلاصة — أن إبقاءكم على ما أنتم عليه من العصيان إنما هو لكمال غناه عن طاعتكم ، ولأن مشيئته لم تتعلق بهذا الإفناء لحكم ومصالح أرادها سبحانه لا لعجز عن ذلك ، تعالى الله علوا كبيرا .

ومثل هذه الآية قوله تعالى: «إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ، وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللهِ بِعَزِيزٍ» وقوله: «وَإِنْ تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لاَ يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ»

وفى هذه الآيات تهديد للمشركين الذين كانوا يؤذون النبى صلى الله عليه وسلم ويقاومون دعوته ، وتنبيه الناس إلى التأمل فى سنن الله التى جرت فى حياة الأمم وموتها ، وإن هذه السنن إذا تعلقت بها المشيئة وقعت لا محالة .

(وكان الله على ذلك قديرا) أى وكان الله قديرا على ذلك الإفناء و إيجاد خلق آخر إذ بيده ملكوت كل شىء ، لكنه لحكم يعلمها لم تتعلق إرادته بذلك .

(من كان يريد ثواب الدنيا فعند الله ثواب الدنيا والآخرة) أى من يرد منكم بسعيه وجهاده فى حياته نعيم الدنيا بالمال والجاه ونحوهما ، فعند الله ثواب الدارين معا بما أعطاكم من العقل والشعور وهداية الحواس ، فعليكم أن تطلبوهما معا ، ولا تكتفوا بما هو أدناهما وهو ما يفنى وتتركوا أعلاهما وهو ما يبقى ، مع أن الجمع بينهما هين ميسور لكم وهو تحت قدرتكم وسلطانكم ، فمن خطل الرأى أن تتركوا ذلك وترغبوا عنه ، بل عليكم أن تقولوا ـ ربنا آتنا فى الدنيا حسنة وفى الآخرة حسنة وقنا عذاب النار ـ .

وفى الآية إيماء إلى أن الدين يهدى أهله إلى السعادتين ، و إلى أن ثواب الدنيا والآخرة من فضله تعالى ورحمته .

(وكان الله سميعا بصيرا) أى وكان الله سميعا لأقوال عباده حين مخاطباتهم ومناجاتهم ، بصيرا بجميع أمورهم فى سائر حالاتهم ، فعليهم أن يراقبوه فى الأقوال والأفعال ، و بذا تزكو نفوسهم وتقف عند حدود الفضيلة التى بها تستقيم أمورهم فى دنياهم ، و يستعدون لحياة أبدية فى آخرتهم يكون فيها مقيمهم وثوابهم .

يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ، إِنْ يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَى بِهِمَا ، فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَى أَنْ تَعْدِلُوا ، وَإِنْ تَلْوُوا أَوْ تُعْرِضُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا (١٣٥) يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِى نَزَّلَ عَلَى رَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِى أَنْزَلَ مِنْ قَبْلُ ، وَمَنْ يَكْفُرْ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا (١٣٦)

المعنى الجملى

بعد أن أمر سبحانه بالقسط فى اليتامى والنساء فى سياق الاستفتاء فيهن ، لأن حقهن آكد وضعفهن معهود — عمم الأمر هنا بالقسط بين الناس ، لأن قوام أمور الاجتماع لا يكون إلا بالعدل ، وحفظ النظام لا يتم إلا به وبما فيه من الشهادة لله بالحق ولو على النفس والوالدين والأقربين وعدم محاباة أحد لغناه أو لفقره ، لأن العدل مقدم على حقوق النفس وحقوق القرابة وغيرها ، وقد كانت سنة الجاهلية محاباة ذوى القربى لأنه يعتز بهم كما كانوا يظلمون النساء واليتامى لضعفهن وعدم الاعتزاز بهن .

الإيضاح

(يأيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط) القوام هو المبالغ فى القيام بالشىء والإتيان به مستويا تاما لا نقص فيه ، وقد أمر الله بإقامة الصلاة وإقامة الشهادة وإقامة الوزن بالقسط تأكيدا للعناية بهذه الأشياء أى فلتجعلوا العناية بإقامة القسط على وجهه صفة ثابتة لكم راسخة فى نفوسكم ، والعدل كما يكون فى الحكم بين الناس ممن يوليه السلطان أو يحكمه الناس فيما بينهم ، يكون فى العمل كالقيام بما يجب بين الزوجات والأولاد من النصفة والمساواة بينهم ، ولو سار المسلمون على هدى القرآن لكانوا أعدل الأمم وأقومهم بالقسط ، وقد كانوا كذلك رَدَحا من الدهر حين كانوا مهتدين بهديه ، ولكن قد خلف من بعدهم خلف نبذوا تلك الهداية وراء ظهورهم فصارت تضرب بهم الأمثال فى ظلم حكامهم وسوء أحوالهم .

(شهداء لله ولو على أنفسكم أو الوالدين والأقربين) أى كونوا شهداء لله بأن تتحروا الحق الذى يرضاه ويأمر به من غير مراعاة أحد ولا محاباته ، ولو كانت الشهادة على أنفسكم بأن يثبت بها الحق عليكم (ومن أقر على نفسه بحق فقد شهد عليها

لأن الشهادة إظهار الحق) أو على والديكم وأقرب الناس إليكم كأولادكم و إخوتكم ، إذ ليس من بر الوالدين ولا من صلة ذوى الرحم أن يعانوا على ما ليس لهم بحق بالإعراض عن الشهادة عليهم أو ليّها والتحريف فيها ، بل البر والصلة فى الحق والمعروف .

وليس من شك فى أن الحياة قصاص ، فالذين يتعاونون على الظلم وهضم حقوق الناس ، يتعاون الناس على ظلمهم وهضم حقوقهم ، فتكون المحاباة من أسباب فشوّ الظلم والعدوان والمفاسد التى لايؤمن شرها .

(إن يكن غنيا أو فقيرا فالله أولى بهما) أى إن يكن المشهود عليه من الأقارب أو غيرهم غنيا أو فقيرا فالله أولى بهما ، وشرعه أحق أن يتبع فيهما ، فحذار أن تحابوا غنيا طمعا فى بره ، ولا خوفا من أذاه وشره ، ولا فقيرا عطفا عليه وشفقة به ، فرضاة كل منهما ليست خيرا لكم ولا لهما من مرضاة الله ، ولستم أعلم بمصلحتهما من ربهما ، ولولا أنه يعلم أن العدل و إقامة الشهادة بالحق خير للشاهد والمشهود عليه لما شرع ذلك ولا أوجبه .

وقد روى ابن جرير عن السُّدى فى سبب نزول الآية : أن رجلين فقيرا وغنيا اختصما إلى النبى صلى الله عليه وسلم فكان حلفه (ميله القلبى) مع الفقير ، يرى أن الفقير لايظلم الغنى فأبى الله إلا أن يقوم بالقسط فى الغنى والفقير ، وقال قتادة فى هذه الآية : هذا فى الشهادة فأقم الشهادة يا ابن آدم ولو على نفسك أو الوالدين أو على ذوى قرابتك وأشراف قومك فإنما الشهادة لله وليست للناس ، والعدل ميزان الله فى الأرض ، به يردّ الله من الشديد على الضعيف ، ومن الصادق على الكاذب ، ومن المبطل على المحق اه .

(فلا تتبعوا الهوى أن تعدلوا) أى فلا تتبعوا الهوى لئلا تعدلوا عن الحق إلى الباطل ، إذ فى الهوى الزلل .

(و إن تلووا أو تعرضوا فإن الله كان بما تعملون خبيرا) أى و إن تلووا ألسنتكم

بالشهادة وتحرفوها أو تعرضوا عنها فلا تؤدوها فالله خبير بأعمالكم لا يخفى عليه قصدكم فهو مجازيكم بما تعملون .

وعبر بالخبير ولم يعبر بالعليم لأن الخبرة العلم بدقائق الأمور وخفاياها ، والشهادة يكثر فيها الغش والاحتيال حتى لقد يغش الإنسان فيها نفسه ويلتمس المعاذير في كتمان الشهادة أو تحريفها .

فليتدبر المسلمون ذلك وليعملوا بهدى كتابهم ويقيموا الشهادة بالحق ففى ذلك فلاحهم فى دينهم ودنياهم .

(يأيها الذين آمنوا آمنوا بالله ورسوله والكتاب الذى نزل على رسوله والكتاب الذى أنزل من قبل) هذا خطاب لمؤمنى اليهود ، فقد روى عن ابن عباس « أن هذه الآية نزلت فى عبد الله بن سلام وأسد وأسيد ابنى كعب وثعلبة بن قيس وسلام ابن أخت عبد الله بن سلام ويامين بن يامين ، إذ أتوا رسول الله صلى الله عليه وسلم وقالوا نؤمن بك وبكتابك وبموسى وبالتوراة وعزير ونكفر بما سوى ذلك من الكتب والرسل ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم (بل آمنوا بالله ورسوله محمد وكتابه القرآن وبكل كتاب كان قبله) فقالوا لا نفعل ، فنزلت ، قال فآمنوا كلهم » :

وقيل إن الخطاب فيها للمؤمنين كافة ، والمعنى ازدادوا فى الإيمان طمأنينة ويقينا وآمنوا برسوله خاتم النبيين وبالقرآن الذى نزله عليه وبالكتب التى نزلها على رسله من قبله ، فإنه لم يترك عباده فى زمن ما محرومين من البينات والهدى .

وبعد أن أمر بالإيمان بما ذكر توعد من كفر بذلك فقال :

(ومن يكفر بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر فقد ضل ضلالا بعيدا) أى ومن يكفر بالله أو بملائكته أو ببعض كتبه أو رسله أو اليوم الآخر (وهى أسس الدين وأركانه) فقد ضل عن صراط الحق الذى ينجى صاحبه فى الآخرة من العذاب الأليم ويمتعه بالنعيم المقيم .

ومن فرق بين كتب الله ورسله فآمن ببعض وكفر ببعض كاليهود والنصارى

فلا يعتد بإيمانه، لأنه إما يتبع الهوى أو يقلد عن جهل وعمى ، ذاك أن سر الرسالة هى الهداية ، ولم يكن بعض النبيين فيها بأكل من بعض ، فإذا كفر ببعض الكتب أو الرسل كان كفره بها دليلا على أنه لم يؤمن بشئ منها إيمانا صحيحا مبنيا على فهم حقيقتها والبصر بحكمتها ، وكل ذلك من الضلال البعيد عن طرق الهداية .

إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ ازْدَادُوا كُفْرًا لَمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيلًا (١٣٧) بَشِّرِ الْمُنَافِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا (١٣٨) الَّذِينَ يَتَّخِذُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَيَبْتَغُونَ عِنْدَهُمُ الْعِزَّةَ فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا (١٣٩) وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ ، إِنَّكُمْ إِذًا مِثْلُهُمْ ، إِنَّ اللَّهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا (١٤٠) الَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ ، فَإِنْ كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِنَ اللَّهِ قَالُوا أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ ، وَإِنْ كَانَ لِلْكَافِرِينَ نَصِيبٌ قَالُوا أَلَمْ نَسْتَحْوِذْ عَلَيْكُمْ وَنَمْنَعْكُمْ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ، فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَنْ يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا (١٤١)

المعنى الجملى

ذكر الله تعالى فى هذه الآيات حال قوم من أهل الضلال البعيد ـ آمنوا فى الظاهر نفاقا ، وكان الكفر قد استحوذ على قلوبهم ولم يجعل فيها مكانا للاستعداد للفهم ، ومن ثم لم يمنعهم ذلك من الرجوع إلى الكفر مرة بعد أخرى ، إذ هم لم يفقهوا

حقيقة الإيمان ولا ذاقوا حلاوته ولا أشربت قلوبهم حبه ولا عرفوا فضائله ومناقبه ، ثم أوعد بعدئذ المنافقين بالعذاب الأليم وذكر أنهم أنصار الكافرين على المؤمنين فلا ينبغي للمؤمنين أن يتخذوا منهم أولياء ولا أن يبتغوا عندهم جاها ولا منزلة .

الإيضاح

(إن الذين آمنوا ثم كفروا ثم آمنوا ثم كفروا ثم ازدادوا كفرا لم يكن الله ليغفر لهم ولا ليهديهم سبيلا) أى إن هؤلاء قد استبان من ذبذبتهم واضطراب أحوالهم من إيمان إلى كفر ، ثم من كفر إلى إيمان وهكذا دواليك ، أنهم قد فقدوا الاستعداد لفهم حقيقة الإيمان وفقه مزاياه وفضائله ؛ ومثلهم لا يرجى لهم ـ على حسب سنن الله فى خليقته ـ أن يهتدوا إلى الخير ولا أن يسترشدوا إلى نافع ولا أن يسلكوا سبيل الله ، فجدير بهم أن يمنع الله عنهم رحمته ورضوانه ومغفرته وإحسانه لأن أرواحهم قد دنست ، وقلوبهم قد عميت ، فلم تكن محلا للمغفرة ولا للرجاء فى ثواب .

والله أرحم الراحمين واسع المغفرة لم يكن ليحرم أحدا المغفرة والهداية بمحض الخلق والمشيئة ، وإنما مشيئته مقترنة بحكمته ، وقد جرت سنة الله وحكمته الأزلية بأن يكون كسب البشر لعلومهم وأعمالهم مؤثرا فى نفوسهم ، فمن طال عليه أمد التقليد حجب عن عقله نور الدليل ، ومن طال عليه عهد الفسوق والعصيان حرم من أسباب الغفران التى ذكرها سبحانه فى قوله « وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِمَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَى » .

ولا شك أن المغفرة وهى محو أثر الذنب من النفس إنما تكون بتأثير التوبة والعمل الصالح الذى يزيل ماعلق فى النفس من تلك الآثام كما قال تعالى « إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ » .

(بشر المنافقين بأن لهم عذابا أليما) البشارة لاتستعمل غالبا إلا فى سارّ الأخبار إذ هى مأخوذة من انبساط بشرة الوجه ، فاستعمالها فى الأخبار السيئة يكون من باب

التهكم والتوبيخ ، أى بشر المنافقين بالعذاب المؤلم الذى لا يقدر قدره ولا يحيط بكنهه إلا علام الغيوب .

(الذين يتخذون الكافرين أولياء من دون المؤمنين) أى هؤلاء المنافقون هم الذين يتخذون الكافرين المعادين للمؤمنين أولياء وأنصارا ، ويتجاوزون ولاية المؤمنين ويتركونها ويمالئون الكافرين عليهم اعتقادا منهم أن الدُّولَة ستكون لهم فيجعلون لهم يدا عندهم .

(أيبتغون عندهم العزة ؟ فإن العزة لله جميعا) الاستفهام هنا للتوبيخ ، والعزة القوة والمنعة أى إن كان المؤمنون يطلبون عندهم الغلبة والمنعة ، فإن العزة لله يؤتيها من يشاء ، فعليهم أن يطلبوها منه تعالى بصادق إيمانهم واتباعهم هدايته التى أرشد إليها أنبياءه وقد بينوا لهم أسبابها ، وقد آتاها الله المؤمنين حينما اهتدوا بكتابه وساروا على سننه ونهجوا نهجه ، فلما أعرضوا عن هذه الهداية التى اعتز بها أسلافهم ذلوا وخنعوا لعدوهم وصار منهم منافقون يوالون الكافرين يبتغون عندهم عزة وشرفا وماهم لها بمدركين .

(وقد نزل عليكم فى الكتاب أن إذا سمعتم آيات الله يكفر بها ويستهزأ بها فلا تقعدوا معهم حتى يخوضوا فى حديث غيره) الخطاب موجه إلى كل من يظهر الإيمان سواء أكان مؤمنا حقا أم منافقا ، وما نزله فى الكتاب هو قوله فى سورة الأنعام المكية « وَإِذَا رَأَيْتَ الذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ » وقد كان بعض المسلمين يجلسون مع المشركين وهم يخوضون فى الكفر وذم الإسلام والاستهزاء بالقرآن ولا يستطيعون الإنكار عليهم لضعفهم وقوة المشركين ، فأمروا بالإعراض عنهم وعدم الجلوس معهم فى هذه الحال .

ثم إن يهود المدينة كانوا يفعلون فعل مشركى مكة وكان المنافقون يجلسون معهم ويستمعون إليهم فنهى الله المؤمنين عن ذلك .

والخلاصة ـ أنكم إذا سمعتم الكلام الذى يتضمن جعل الآيات فى موضع السخرية والاحتقار فابتعدوا عنهم ولا ترجعوا إليهم حتى يعودوا إلى حديث آخر .

وفى الآية دليل على اجتناب كل موقف يخوض فيه أهله بما يدل على التنقص والاستهزاء بالأدلة الشرعية والأحكام الدينية كما يقع من أسراء التقليد الذين استبدلوا آراء العلماء بالكتاب والسنة ولم يبق فى أيديهم إلا قال إمام مذهبنا كذا وقال فلان من أتباعه كذا ، وإذا استدل أحد بآية قرآنية أو بحديث نبوى سخروا منه وظنوا أنه قد جاء بخطب شنيع وجعلوا رأى إمامهم مقدما على ما نطق به الكتاب وأرشدت إليه السنة .

(إنكم إذا مثلهم) أى إنكم إن قعدتم معهم تكونوا شركاء لهم فى الكفر ، لأنكم رضيتم به ووافقتموهم عليه ، وفى الآية إيماء إلى أن من يقر المنكر ويسكت عليه يقع فى الإثم ، وإلى أن إنكار الشىء يمنع من انتشاره بين الناس .

وقد وقع فى هـــذا المنكر كثير من المسلمين ، فإنهم يرون الملحدين فى البلاد يخوضون فى آيات الله ويستهزئون بالدين وهم يسكتون عن ذلك ولا يبدون إنكارا ولا اشمئزازا ولا صدا ولا إعراضا .

(إن الله جامع المنافقين والكافرين فى جهنم جميعا) أى إنهم كما اجتمعوا على الاستهزاء بآيات الله فى الدنيا سيجتمعون فى العقاب يوم القيامة ولا يخفى ما فى هذا من الوعيد للكفار والمنافقين .

(الذين يتربصون بكم) يتربصون ينتظرون مايحدث من خير أو شر أى إن هؤلاء المنافقين ينتظرون مايحدث لكم من كسر أو نصر ، وشر أو خير .

(فإن كان لكم فتح من الله قالوا ألم نكن معكم ؟) أى فإن نصركم الله وفتح عليكم ادعوا أنهم كانوا معكم فيستحقون مشاركتكم فى النعمة وإعطاءهم من الغنيمة .

(وإن كان للكافرين نصيب قالوا ألم نستحوذ عليكم ونمنعكم من المؤمنين) الاستحواذ: الاستيلاء على الشىء والتمكن من تسخيره أو التصرف فيه أى وإن كان

للكافرين نصيب من الظفر منّوا عليهم بأنهم كانوا عونا لهم على المؤمنين بتخذيلهم والتوانى فى الحرب معهم وإلقاء الكلام الذى تخور به عزائمهم عن قتالكم فاعرفوا لنا هذا الفضل وهاتوا نصيبنا مما أصبتم .

والسر فى التعبير عن ظفر المؤمنين بالفتح وأنه من الله ، وعن ظفر الكافرين بالنصيب — الإيماء إلى أن العاقبة للحق دائما وأن الباطل ينهزم أمامه مهما كان له أول أمره من صولة ودولة ، وقد يقع أثناء ذلك نصيب من الظفر للباطل ولكن تنتهى بغلبة الحق عليه كما قال « وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ » مادام أهله متبعين لسنة الله بأخذ الأهبة وإعداد العدّة كما أمر بذلك الكتاب العزيز بقوله « وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ » .

وإنما غلب المسلمون فى هذه العصور على أمرهم وفتح الكافرون بلادهم التى فتحوها من قبل بقوة إيمانهم لأنهم تركوا أخذ الأهبة وإعداد العدة ، وقام أعداؤهم بكل ما تستدعيه الحروب الحاضرة فأنشئوا البوارج والمدافع والدبابات المدرعة والغواصات المهلكة والطائرات المنقضة إلى نحو ذلك من آلات التدمير والهلاك فى البر والبحر والجو ووسائل ذلك من علوم طبيعية أو آلية (ميكانيكية) أو رياضية .

(فالله يحكم بينكم يوم القيامة) أى فالله يحكم بين المؤمنين الصادقين والمنافقين الذين يظهرون الإيمان ويبطنون الكفر حكما يليق بشأن كل من الثواب والعقاب فيثيب أحباءه ويعاقب أعداءه ، أما فى الدنيا فأنتم وهم سواء فى عصمة الأنفس والأموال كما جاء فى الحديث « فإذا قالوها عصموا منى دماءهم وأموالهم » .

(ولن يجعل الله للكافرين على المؤمنين سبيلا) أى إن المؤمنين ماداموا مستمسكين بدينهم متبعين لأمره ونهيه قائمين بعمل مايستدعيه الدفاع عن بيضة الدين من أخذ الأهبة وإعداد العدّة ، لن يغلبهم الكافرون ولن يكون لهم عليهم سلطان ، وما غلب المسلمون على أمرهم إلا بتركهم هدى كتابهم وتركهم أوامر دينهم وراءهم

ظهريا ، فذلوا بعد عزة وأجلب الكفار عليهم بخيلهم وَرَجْلِهم ودخلوا عليهم فى عُقْر دارهم وامتلكوا بلادهم ، ولله الأمرُ من قبلُ ومن بعدُ .

إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ ، وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كُسَالَى يُرَاءُونَ النَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ اللهَ إِلَّا قَلِيلاً (١٤٢) مُذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَٰلِكَ لَا إِلَى هٰؤُلَاءِ وَلَا إِلَى هٰؤُلَاءِ ، وَمَنْ يُضْلِلِ اللهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ سَبِيلاً (١٤٣) .

شرح المفردات

الخداع : إيهام غيرك أن الشيء على ما يحب ويريد بتزيينك له وهو على غير ذلك، كسالى : واحدهم كسلان ، وهو المتثاقل المتباطئ ، المراءاة : من الرؤية ، وهى أن يكون من يرائيك بحيث تراه كما يراك فالمرأئى يريهم عمله وهم يُرُونه استحسان ذلك العمل الذبذبة : حكاية صوت الحركة للشيء المعلق ثم استعملت فى كل اضطراب وحركة .

المعنى الجملى

لايزال الحديث فى المنافقين وبيان أحوالهم بعد أن ذكر طرفا منها قبل ذلك .

الإيضاح

(إن المنافقين يخادعون الله) أى يخادعون رسول الله أى يظهرون له الإيمان ويبطنون الكفر ، ونسب ذلك إلى الله من جهة أن معاملة الرسول بذلك كمعاملة الله به كما قال تعالى « إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللهَ » .

وفى جعل ذلك خداعا لله تنبيه إلى شيئين فظاعة فعلهم فيما تحروه من الخديعة

إذهم بمخادعتهم للرسول إنما يخادعون الله ، وعظم شأن المقصود بالخداع وهو الرسول صلى الله عليه وسلم وأن معاملته بذلك كمعاملة الله به .

(وهو خادعهم) أى مجازيهم على خداعهم ، وسمى ذلك مخادعة مشاكلة للفظ الأول ، ونظيره « وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللهُ » وإنما جعل كذلك لأنه قد استعمل فى المعانى المذمومة التى تتضمن الكذب أو تدل على ضعف صاحبها وعجزه غالبا .

وخلاصة المعنى — أنه عبر عن سنة الله فى عاقبة أمرهم فى العاجل والآجل من حيث إنها جاءت على غير ما يحبون بلفظ مأخوذ من المخادعة إذ أنهم بمخادعتهم للرسول والمؤمنين يسيرون فى طريق يضلون فيه وينتهون إلى الخزى والوبال من حيث هم يطلبون السلامة والنجاة ، فمخادعتهم لأنفسهم بسوء اختيارهم لها هو مخادعة لله لهم ، إذ جرت سنته تعالى فيمن يعمل مثل عملهم أن يلاقى الخزى فى الدنيا والنكال فى الآخرة ، وهكذا حال المنافقين فى كل أمة وملة يخادعون ويكذبون ويكيدون ويغشون ويتولون أعداء أمتهم يبتغون بذلك يدا عندهم يمتّون بها إليهم إذا دالت دولتهم ، وكتب التاريخ ملأى بأخبار هؤلاء الأشرار ، ويكثر عددهم فى الامم فى أطوار الضعف وقوة الاعتداء إذ هم طلاب منافع يلتمسونها من كل فج ويسلكون لها كل طريق ولو فيما يضر أمتهم والناس أجمعين ، وقد روى عن ابن عباس أنه قال : خداعه تعالى لهم أن يعطيهم نورا يوم القيامة يمشون به مع المسلمين فإذا وصلوا إلى الصراط انطفأ نورهم وبقوا فى ظلمة ، ودليله قوله تعالى « كَمَثَلِ الَّذِى اسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِى ظُلُمَاتٍ لَا يُبْصِرُونَ » .

(وإذا قاموا إلى الصلاة قاموا كسالى) أى متباطئين متثاقلين ليست لديهم رغبة تبعثهم على عمل ولا نشاط يدفعهم على فعل ، لأنهم لا يرجون ثوابا فى الآخرة ، ولا يخشون عقابا إذ لا إيمان لهم ، وإنما يخشون الناس ، فإذا كانوا بمعزل عن المؤمنين

تركوها ، وإذا كانوا معهم سايروهم بالقيام بها ، ومن كانت هذه حاله وقع عمله على وجه الكسل والفتور .

(يراءون الناس) بها أى يبتغون بذلك أن يراهم المؤمنون فيعدوهم منهم .

(ولا يذكرون الله إلا قليلا) أى لا يصلّون إلا قليلا ، فإذا لم يرهم أحد لم يصلوا وإذا كانوا مع الناس راءوهم وصلّوا معهم .

(مذبذبين بين ذلك لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء) أى مضطربين مائلين تارة إلى المؤمنين وتارة إلى الكافرين لا يخلصون إلى أحد الفريقين لأنهم طلاب منافع ولا يدرون لمن تكون العاقبة ، فمتى ظهرت الغلبة لأحدهما ادعوا أنهم منه كما بين الله ذلك فيما سلف .

(ومن يضلل الله فلن تجد له سبيلا) أى ومن قضت سنته أن يكون ضالا عن الحق موغلا فى الباطل بما قدم من عمل وتخلق به من خلق ، فلن تجد له سبيلا للهداية باجتهادك والمبالغة فى إقناعه بالحجة والدليل ، فإن سنة الله لا تتبدل ولا تتحول .

يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَتَّخِذُوا الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ ، أَتُرِيدُونَ أَنْ تَجْعَلُوا لِلَّهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا مُبِينًا (١٤٤) إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا (١٤٥) إِلاَّ الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَاعْتَصَمُوا بِاللَّهِ وَأَخْلَصُوا دِينَهُمْ لِلَّهِ فَأُولَئِكَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ ، وَسَوْفَ يُؤْتِ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا (١٤٦) مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَآمَنْتُمْ ، وَكَانَ اللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا (١٤٧) .

المعنى الجملى

بعد أن ذم الله تعالى المنافقين بأنهم مذبذبون لايستقر لهم قرار ، فهم تارة مع المؤمنين وأخرى مع الكافرين ، حذر المؤمنين أن يفعلوا فعلهم وأن يوالى بعض ضعفائهم الكافرين دون المؤمنين ، يبتغون عندهم العزة ويرجون منهم المنفعة كما فعل حاطب بن أبى بلتعة إذ كتب إلى كفار قريش يخبرهم بما عزم عليه النبى صلى الله عليه وسلم فى شأنهم ؛ لأنه كان له عندهم أهل ومال .

الإيضاح

(يأيها الذين آمنوا لا تتخذوا الكافرين أولياء من دون المؤمنين) المراد بالولاية هنا النصرة بالقول أو بالفعل بما يكون فيه ضرر للمسلمين ، وهذا كقوله تعالى : « يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَتَتَّخِذُوا الْيَهُودَ والنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ » .

أما استخدام الذميين منهم فى الحكومة الإسلامية فليس بمحظور ، والصحابة رضوان الله عليهم استخدموهم فى الدواوين الأميرية ، وأبو إسحاق الصابى جُعل وزيرا فى الدولة العباسية .

(أتريدون أن تجعلوا لله عليكم سلطاناً مبيناً) السلطان الحجة والبرهان ، والمبين هنا بمعنى البين فى نفسه .

والمعنى — أتريدون أن تجعلوا لله عليكم حجة بينة فى استحقاقكم للعقاب إذا اتخذتموهم أولياء من دون المؤمنين ؟ فإن عملا كهذا لايصدر إلا من منافق .

(إن المنافقين فى الدرك الأسفل من النار) الدرْك والدرَك بالسكون والتحريك: الطبقة أسفل من الأخرى ، فإذا كانت أعلى منها كانت درجة ، والنار سبع دركات سميت بذلك لأنها متداركة متتابعة ، وفى الآية إشارة إلى أن دار العذاب فى الآخرة

ذات دركات بعضها أسفل من بعض ، كما أن دار النعيم درجات بعضها أعلى من بعض .

وإنما كان المنافقون فى الدرك الأسفل من النار لأنهم شر أهلها ، إذ هم جمعوا بين الكفر والنفاق ومخادعة الرسول والمؤمنين وغشهم ، فأرواحهم أسفل الأرواح ونفوسهم أحط النفوس ، ومن ثم كانوا أجدر الناس بالدرك الأسفل منها .

أما أكثر الكفار فقد غلب عليهم الجهل بحقيقة التوحيد فهم مع إيمانهم بالله يشركون به غيره من صنم أو وثن يتخذونه شفيعا عنده ووسيطا بينه وبينه ، وقد قاسوا ذلك على معاملة الملوك المستبدين والأمراء الظالمين .

(ولن تجد لهم نصيرا) ينقذهم من ذلك العذاب أو يخففه عنهم فيرفعهم من الطبقة السفلى إلى ما فوقها .

(إلا الذين تابوا وأصلحوا واعتصموا بالله وأخلصوا دينهم لله) أى هذا الجزاء الشديد الذى أعده الله للمنافقين لا يكون للذين تابوا من النفاق والكفر وندموا على ما فرط منهم وأتبعوا ذلك بأمور ثلاثة :

(١) اجتهادهم فى صالح الأعمال التى تغسل أدران النفاق بأن يلتزموا الصدق فى القول والعمل مع الأمانة والوفاء بالوعد ويخلصوا النصح لله ورسوله ، ويقيموا الصلاة مع الخشوع والخضوع ومراقبة الله فى السر والعلن .

(٢) اعتصامهم بالله بأن يكون غرضهم من التوبة وصلاح العمل مرضاة الله ، مع التمسك بكتابه والتخلق بآدابه والاعتبار بمواعظه والرجاء فى وعده والخوف من وعيده والائتمار بأوامره والانتهاء عن نواهيه كما قال تعالى : « فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا بِاللهِ وَاعْتَصَمُوا بِهِ فَسَيُدْخِلُهُمْ فِى رَحْمَةٍ مِنْهُ وَفَضْلٍ وَيَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ صِرَاطًا مُسْتَقِيماً »

(٣) إخلاصهم لله بأن يدعوه وحده ولا يدعوا من دونه أحدا لكشف ضر ولا لجلب نفع ، بل يكون كل ما يتعلق بالدين والعبادة خالصا له وحده كما قال : « إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ » وكما جاء فى قوله : « فَاعْبُدِ اللهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ أَلَا لِلهِ الدِّينُ الْخَالِصُ » .

(فأولئك مع المؤمنين) أى فأولئك التائبون يكونون مع المؤمنين ، لأنهم يؤمنون كإيمانهم ويعملون كعملهم فيجزون جزاءهم .

(وسوف يؤتى الله المؤمنين أجرا عظيما) أى وسوف يعطيهم الله الأجر العظيم الذى لا يقدر قدره ، كما قال تعالى : « فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ » .

(ما يفعل الله بعذابكم إن شكرتم وآمنتم) الاستفهام للانكار . والمعنى أنه تعالى لا يعذب أحدا من خلقه انتقاما منه ولا طلبا لنفع ولا دفعا لضر ؛ لأنه تعالى غنى عن كل أحد منزه عن جلب منفعة له ولا دفع مضرة عنه ، بل ذلك جزاء كفرهم بأنعم الله عليهم فهو قد أنعم عليهم بالعقل والحواس والجوارح والوجدان ، لكنهم استعملوها فى غير ما خلقت لأجله من الاهتداء بها لتكميل نفوسهم بالفضائل والعلوم والمعارف ، كما كفروا بخالق هذه القوى فاتخذوا له شركاء ولا ينفعهم تسميتهم شفعاء أو وسطاء حتى فسدت فطرتهم ودنست أرواحهم ، ولو آمنوا وشكروا لطهرت أرواحهم وظهرت آثار ذلك فى عقولهم وسائر أعمالهم التى تصلحهم فى معاشهم ومعادهم واستحقوا بذلك رضوان الله « وَرِضْوَانٌ مِنَ اللهِ أَكْبَرُ » .

(وكان الله شاكرا عليما) أى يجعل ثواب المؤمنين الشاكرين على حسب علمه بأحوالهم ، ونيلهم من الدرجات أكثر مما يستحقون جزاء على شكرهم وإيمانهم كما قال : « وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ

عَذَابِي لَشَدِيدٌ » فهو يجزى بيسير الطاعات رفيع الدرجات ، و يعطى بالعمل فى أيام معدودة نعما فى الآخرة غير محدودة .

وفقنا الله لصالح العمل وجعلنا من المؤمنين الشاكرين .

وصلى الله على محمد وصحبه وسلم .

وكان الفراغ من كتابة مسودة هذا الجزء فى اليوم الثانى من المحرم سنة اثنتين وستين وثلثمائة بعد الألف ، بمدينة حلوان بالديار المصرية .

فهرس

أهم المباحث العامة التى فى هذا الجزء